محمد راتب الحلاق

عبد الحميد الزهراوي

١٢٨٨ – ١٣٣٤ هـ / ١٨٧١ - ١٩١٦ م

دراسة في فكره السياسي والاجتماعي

منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٥

عبد الحميد الزهراوي

١٢٨٨ - ١٣٣٤ هـ / ١٨٧١ - ١٩١٦ م

دراسة في فكره السياسي والاجتماعي

الإهـــداء

* إلى أكرم من في الدنيا وأنبل بني البشر ...

* إلى شهداء الأمة على دروب الحرية والعزة والكرامـة

ممثلين بشيخ شهداء العروبة عبد الحميد الزهراوي

■

المقـــدمـة

من الرجال نفر يكونون ملء السـمع والبصر تزدهي بهـم المنابر وتزدان بهم المناصب وتنفتح لهم القلوب والعقول بما يملكون من صفـات شخصية فذة وبما أوتوا من صدق مع الذات ومع المبدأ ومع النـاس . في كلامهم لهجة الصدق وفي عملهم سمة الاخلاص وفي كتاباتهم نـبرة الحـق والعدل . ولكن ما إن يفارقون الحياة الدنيـا ومـا إن ينفـض المـأتم عنهـم حتى يسدل عليهم ستار كثيف من النسـيان والنكران فـلا يكـاد يسـمع بهم أحد وكـأنهم لم يكونـوا بـالأمس زينـة المهرجانـات وأبطـال المواقـف العبقرية ورواد الأمة في نضالها وكفاحها .

ومن هـؤلاء النفر الذيـن كـاد يلفهـم النسـيان المطبـق الشـهيد (السيد)(*) عبد الحميد الزهراوي الذي يكاد أن يكون مجهولاً من مثقفـي الأمة فضلاً عن عامتها مع أنه أحد أهم رواد الفكر العربي الحديث وأحد أساطين النهضة العربية المعدودين وواحد من الذين فدوا قضيتها المقدسـة بدمائهم الزكية الطاهرة .

وقد أغراني بالبحث في فكر الزهراوي ماأعتبره ميزة تفرد بها مـن دون أقرانه فهو إلى جانب ممارسته العملية لكل ماكان يبشر من فكر فيان فكره وليد عقل متفتح مثقف ، فيه من الأصالة بقدر مافيه مـن الحداثـة ، وفيه من العمق بقدر مافيه من الشفافية والاستشراف .

(*) يطلق عادة لفظ (السيد) على الأحيـاء مـن العلمـاء والأدبـاء والبـاحثين حـين تـرد أسماؤهم في البحث . ولكن لفظ (السيد) في التراث العربـي الحديـث كـان يسـبق أسماء الرجال الذين ينتسبون إلى العترة الشريفة (آل البيت) .

والقارئ لكتابات الزهراوي – وهي كثيرة ومتنوعة الأغراض – يجد فيها دائماً ملامح الكاتب المفكر ، أكثر مما يجد فيها ملامح الكاتب الأديب ، وإن كنت لاأعني أن كتاباته خلو من لمسات أديب جزل الأسلوب ، ناصع العبارة ، إنما الذي قصدت إليه أن الزهراوي كان يخاطب العقول أكثر مما يخاطب العواطف والمشاعر .

وقد وجدت نفسي وأنا أبحث في فكر الزهراوي وأبحث عن أفكاره المبثوثة في المصادر الكثيرة أشعر بالمتعة السارة والمفاجأة المدهشة في آن معاً : المتعة لأنني وجدت فيها مادة دسمة تستحق البحث والتنقيب والمفاجأة لأنني كنت كلما ازددت غوصا في طلب المزيد من كتابات وأفكار هذا المفكر العبقري وجدت من الكنوز الثمينة التي كان يصوغها بفكر علمي رصين ماينسي عناء البحث والتنقيب .

وإذا كنت قد اخترت البحث في فكر هذا الرائد فشعوراً مني بأن الرجل يستحق أن يقدم إلى القراء العرب والباحثين العرب وأن تأخذ أفكاره طريقها إلى دائرة الضوء والدراسة بعد أن طال التعتيم عليها لسبب أو لآخر واعتقادا مني بأن الجيل الجديد من أمتنا يجب أن يعرف عن الزهراوي أكثر من مجرد أنه أحد شهداء الأمة أو أنه رئيس المؤتمر العربي الأول بباريس ذلك أن الزهراوي قمة شامخة لكنها لم تستكشف حق الاستكشاف ، ولايفوتنا هنا أن نذكر أن الزهراوي ابن حقبة محددة وبيئة معينة لها ظروفها ومعطياتها الخاصة بها وأن الزهراوي في تعامله مع ما أفرزته تلك الحقبة من معطيات قد يكون أصاب وقد يكون أخطأ ونحن في حكمنا على آرائه وتصرفاته وتوجهاته يجب أن ننطلق من معطيات تلك الحقبة ومن الخصوصية التي تلازمها حتى لانقع ضحايا منطقنا وأسرى وجهات نظرنا .

لذلك فانني عند بحثي في أفكار هذا الرجل وعند حكمي على مواقفه وتصرفاته قد حاولت جاهدا الابتعاد عن أحكام سابقة وعن آراء قيلت فيه بغير علم وحاولت أن أرجعها ما أمكن إلى كتابات الزهراوي نفسه وإلى كتابات معاصريه وأن ألم بطبيعة الحقبة التي عاش فيها

والمعطيات التي أفرزتها على الصعد المختلفة وأهم التوجهات التي انبثقت عن تلك المعطيات ، لذلك سأحاول أن أعرف بالرجل من حيث مولده ونشأته وبيئته الخاصة والبيئة العامة التي قدر له أن يعيش فيها وسأحاول أن أعطي لمحة عن دراسته ومصادر ثقافته و "مشوار" حياته وأهم الأحداث التي ربما يكون لها أثر في فكره وسلوكه وتصرفاته كما سأحاول أن أعرف بالعصر الذي عاش فيه وبالبنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية لتلك الفترة وأهم الأحداث التي وقعت فيها وأن أتلمس آثارها في آرائه ومواقفه ثم أحاول أن اعرف بأهم آراء وأفكار الرجل في مناحي الحياة المختلفة فأبين رأيه في الإصلاح والمصلحين وفي المرأة وفي السياسة وفي التجديد وفي الحرية وفي العدالة وفي التعصب ثم أبين رأيه وموقفه (العروبي) وأحاول أن أوضح فهمه (للعثمانية) ورفضه للجامعة الإسلامية متطرقا أثناء ذلك إلى مواقفه التي جرت عليه سخط الساخطين وانتقادات المنتقدين والتي جرته وكان لابد أن تجره إلى حبل المشنقة مبرزا الحدة الثورية التي كان يعرض من خلالها آراءه ، تلك الثورة التي كان لابد أن يتسلح بها إنسان نذر نفسه لنصرة الحق ومقارعة الباطل .

هذا وحسبي أني بذلت جهد المقل في إنصاف واحد من أبطال الأمة العربية وأحد روّادها في دروب النهضة والتقدم .

رمضان ١٤٠٧ هـ

أيار ١٩٨٧ م

محمد راتب الحلاق

■

الفصل الأول

العصر وبنية المجتمع

من المعروف أن الدولة العثمانية إنما ولدت من خلال الحرب، وللحرب عاشت ، لذلك فهي لم تهتم بالنواحي الأخرى ، إلا بقدر ماتخدم تلك النواحي التوجهات العسكرية ، والآلة الحربية ، فهي لم تهتم بالنواحي الاقتصادية مثلا إلا لإتاحة المزيد من فرص سلب ونهب خيرات ممتلكاتها ، أمّا النواحي الاجتماعية والحضارية فلم تكن لتقيم كبير وزن لها . فنحن لانكاد نعثر على أي جهد حضاري بذلته هذه الدولة خلال سنوات قيامها ، كما لانكاد نلحظ أي جهد توليفي بين الشعوب والأمم والحضارات التي تكونت منها ، ولانستطيع أن نشير إلى أية رسالة حضارية حاولت هذه الدولة أن تحملها ، وأن توصلها إلى البلدان التي سيطرت عليها . كل هذا جعل بقاءها رهنا ببقاء آلتها العسكرية قوية متمكنة . وإنَّ دولةً تقوم على الحرب والقوة والغلبة لاتستطيع استيعاب أو تحمل أية نكسات عسكرية . بل إن هزيمة عسكرية ، كفيلة بتفسخها وانهيارها . ولعل أكبر دليل على الإخفاق الحضاري الذريع لهذه الدولة ، أنها لم تستطع في يوم من الأيام أن تكسب ود شعوب المناطق التي سيطرت عليها . وإذا استثنينا

المناطق العربية والإسلامية ، فإن شعوب وأمم المناطق الأخرى ، كانت تشعر دائماً ، بأنها لاتمت إلى حكومة (الاستانة) بصلة تذكر، اللهم إلاصلة القهر والتسلط والاستعباد . ولم يستطع أي إنسان في تلك المناطق ، أن يقتنع بأنه عثماني ، وأن يفتخر بانتمائه لهذه الامبراطورية ، بل على العكس من ذلك تماما ، كان ينتظر الفرصة الملائمة للثورة والانقضاض على هذه الدولة المغتصبة .

أمّا استثناؤنا للمناطق العربية والإسلامية فله مايبرره ، فثمة رابطة الدين تجمع بينهم وبين الأتراك من جهة ، ومن جهة أخرى أتى حين من الدهر استأثر فيه السلاطين بلقب الخلافة ، وصاروا أمراء للمؤمنين وتلقبوا بحماة الحرمين الشريفين ، فاعتقد العرب والمسلمون بأن هؤلاء سيكملون مابدأه الاوائل ، في نشر راية الدين الحنيف ، وإيصال الرسالة السمحة إلى كل فج عميق ، واعتقدوا بالتالي أن انتصارات هؤلاء في معاركهم ، إنما هي انتصارات للإسلام وللمسلمين جميعاً ، ولم يكن لهذا الاعتقاد مايبرره بطبيعة الحال "فهم قد أرهقوا الأقطار العربية بأعباء تلك الحروب وقد تساءل العرب والمسلمون عن جدوى حروب لم تكن غايتها نشر الدعوة الاسلامية أو الحضارة الإسلامية لذلك لم تترك وراءها أي أثر يذكر . وإن تلك الحروب لم تكن إلاّ نزوة عسكرية مغامرة ، تحمل المسلمون أوزارها ومايزالون"(١) . فالإسلام دين حضارة ، ولم يكن لدى هؤلاء مايعتد به في هذا المجال .

والإسلام دين محبة ورحمة وتسامح ، ولم يكن في موروث هؤلاء إلا السفك والتذابح ، والحقد القاتل . ثم إن الإسلام مادخل أرضا إلاّ زاد في إعمارها وإعلاء شأنها في شتى المجالات ، وماكان هؤلاء إلاّ طلاب غنائم ، ومحترفي حروب وخراب ودمار .

ثم إن من يريد خدمة الإسلام ، وإعلاء شأنه لابد أن يجعل أحد جناحيه إن لم يكن جناحاه جميعاً من حملة الرسالة . وأهلها الذين بعث الرسول منهم ، ونزل القرآن بلسانهم العربي المبين . بينما يؤكد الواقع أن هؤلاء السلاطين ومن والاهم من بني جنسهم لم يفرقوا في تعاملهم بين إقليم امتلكوه وإقليم آخر ، فكل الأقاليم سواء ، وكل الشعوب دون مستوى الترك ، وإلا فهل يستطيع باحث مهما حاول ، أن يدلنا على عظيم من العرب برز في عهد تلك الدولة ، في أي مجال من المجالات ، اللهم إلا أن في البطانة الفاسدة ، يطبّل ويزمّر ويساهم في الفاسد من أمورها ، فقد "كانت الدولة العثمانية مكونة من خلاصة الظلم والقسوة والرشوة والجهل والهمجية ففي عهدها قضي على ماأبقاه التتر والمغول وأضرابهم من معالم الحضارة ، وحكم على لغة الضاد أن تظل في سبات عميق طيلة قرون " (٢) .

أمّا السبب الذي دفعني – مع ذلك – إلى استثناء العرب والمسلمين ، فهو أنه في الوقت الذي لم يشعر فيه اليوناني أو البلغاري مثلا بأية مودة نحو الدولة العثمانية ، وكان يتمنى زوالها ، فان العربي لم يشعر بالمودة نحو الحكومات وزبانيتها ، وكان يتمنى زوال تلك الحكومات الفاسدة ، والتي حادت عن الصواب . أمّا الدولة فهي دولته ، وظل هذا الشعور ملازما حتى للمصلحين والخاصة من أبناء العرب حتى وقت متأخر " إنني أقرر بكل صدق وإخلاص بأنني وجميع من استعنت بهم وتعاونت معهم من رجالات العرب وشبانهم لم يخطر على بالنا الانفصال عن الدولة العثمانية"(٣) ويؤكد (مصطفى الشهابي) ماذهب اليه (محب الدين الخطيب) فيذكر : "إن جميع من يعتد بهم من العاملين في سبيل القومية العربية في تلك الأيام ماأرادوا قط الانفصال التام عن الدولة العثمانية خشية

الوقوع في براثن الدول الاستعمارية ، ومما لايقبل الجدل أنه لم يكن لأحد من علاقة بدولة من الدول الاستعمارية ، وأنا أقول هذا عن معرفة بأعمالهم ودخائلهم" [٤] . فالأمر يتعلق بالنسبة للعربي بحكومة فاسدة يجب تغييرها ، ويذهب البعض إلى أن (محمد علي باشا) عندما أرسل ابنه (ابراهيم باشا) إلى بلاد الشام ثم اندفاع هذا باتجاه (الآستانة) إنما كان يهدف من جملة مايهدف إلى قلب تلك الحكومة والاستيلاء على السلطة وليس بمجرد الاستئثار بولاية سورية [٥] .

بل إن التمسك (بالعثمانية) كان في وقت من الأوقات هو الملجأ والبديل الوحيد في وجه الأطماع الأوروبية التي بدأت تكشف عن أهدافها ومآربها . فقد بدأ في وقت من الأوقات أن انهيار الدولة (العثمانية) لايعني شيئاً أكثر من سقوط الوطن العربي لقمة سائغة في براثن الإستعمار الاوربي الذي كان قد بدأ بالفعل التقام بعض الأقاليم في الجزائر وعدن وتونس ومصر وطرابلس الغرب ، ولايخفي تطلعه إلى سورية والعراق ومناطق الخليج ، تسبقه إليها شركاته واحتكاراته وعملاؤه من الجواسيس الذين تزيوا بزي التجار والمبشرين والمستشرقين والأطباء والسياح .

" وكان عقلاء العرب يفقهون أنه إذا وقع الانفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الإفرنج فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفا من حكم الأجانب واختياراً لأهون الشرين " [٦] " وقد كان المفهوم الغالب على أفكار كثير من رجال المسلمين الراغبين في الاصلاح أن يضعوا حداً لسوء الإدارة العثمانية وأن ينال العرب حقوقاً مساوية للأتراك وأن تكون هناك حرية سياسية كافية وان كان ذلك كله لايصل آنذاك إلى حد أن يفكر هؤلاء المسلمون في القضاء على الامبراطورية العثمانية

وإيجاد دولة عربية منفصلة عنها تمام الانفصال " (٧) وإن كان لابد من الإضافة هنا أن هذا الموقف ينسحب كذلك على الكثير من رجال الإصلاح المسيحيين .

وكانت عملية تفكيك الدولة العثمانية التي يمارسها الأوربيون لاتكاد تخفى على ذي عينين . وأكاد أزعم بأن حركة القومية العربية ماتأخرت بالظهور إلاّ لاهذه الأسباب .

ففي حين كانت الحركات القومية عند الشعوب الأخرى تعني التحرر والوحدة والقوة فإن القومية بالنسبة للعرب لم تكن شيئاً آخر سوى الإفلات من أثر حكومة مستبدة ، وسلطان طاغية للوقوع في أحابيل استعمار لايرحم خاصة وأن المصالح الأوربية لم تكن لتسمح عبر امتيازاتها وعملائها وسماسرتها بالنمو الطبيعي للفكر القومي عبر نمو الاقتصاد ، خاصة نمو وتطور الصناعة . وأكاد أزعم كذلك بأن السبب الذي جعل الفلاحين والحرفيين وأبناء المدن لايندفعون كثيراً باتجاه الفكرة القومية بأنهم أول من اكتوى بنار الاستعمار " فقد أدى تدفق المنتوجات الصناعية الرخيصة من أوربا إلى التقهقر السريع للحرف التقليدية وقضى على بواكير الانتاج الصناعي الذي كان في طور الولادة ... وتحولت المدن من مراكز للانتاج الحرفي والتجارة الداخلية إلى مراكز لخدمة التجارة الخارجية مع أوربا بالدرجة الأولى " (٨) وإن كنت لاأريد الدخول في مزيد من التفاصيل الآن فلذلك مكانه في البحث إنما الذي أريد أن أقوله الآن بأن التعنت والجهل والتعصب الذي أبداه الاتراك لاسيما جمعية (الاتحاد الترقي) ، ونزعتها الطورانية الضيقة ، هي التي أدت إلى انهيار الدولة (العلية) .

ولست من الذين لايعترفون بهذه الحقيقة ظنا منهم بأن هذا يسيء للحركة القومية عند العرب أو لحركة اليقظة والنهضة العربية

ولست من الذين تدفعهم أسباب كثيرة للبحث عن جذور عميقة للحركة القومية العربية كالدكتور (طيب تيزيني) حين جعل النهضة العربية تبدأ في منتصف القرن الثامن عشر ؟ على يد البروجوازية العربية ؟ والتي كان عليها ثلاث مهمات أولها بناء الدولة الوطنية . كمايشير البعض إلى حركات مثل حركة (محمد علي باشا) أو المعنيين أو الشهابيين أو حركة (أحمد بشا الجزار) أو حركة (محمد بن عبد الوهاب) على أنها مظاهر للحركة القومية عند العرب . بينما الحقيقة والواقع يؤكدان أن تلك الحركات إنْ هي إلا انتفاضات محلية أو جبتها غايات مختلفة قد يجمع بينها الرغبة في التخفف من ضغوط وسطوة العاصمة لمصلحة متنفذي المناطق .

ومع احترامي لكل الذين حاولوا أن يعطوا لهذه الحركات بعدا قوميا عربيا إلاّ أنني أجد صعوبة بالغة في قبول ذلك . ثم إن تأخر الوعي القومي ليس عيبا بحد ذاته مادام له مايبرره ، وما دامت الظروف الموضوعية لم تتوفر لنشوئه ، خاصة مايتعلق بضعف البروجوازية العربية ، وفشلها في إقامة صناعة محلية تستدعي بناء سوق قومية مع ملاحظة أن السوق ضاقت وانكمشت بتفكك الدولة العثمانية .

وبرأيي أن من أسباب فشل المشروع القومي إلى الآن أن الحركة القومية العربية ولدت قبل أوانها ، واضطرت للثورة وهي لم تستكمل بعد أسباب تلك الثورة ، فكان أن دخلت في صراع غير متكافئ مع الغرب ، الذي مارس ولايزال أنواعاً من الضغوط والتأثيرات السلبية ، وهو مافتئ يحاول أن يشكل المنطقة العربية بحيث تتلاءم مع مصالحه واستراتيجيته ، ويحاول أن يخضع الحضارة العربية لنوع من التفسير هو أقرب إلى المصادرة لصالح حضارته ، التي تسيئ الظن بكل نموذج حضاري آخر ، وتعتبره دونيا ،

ولايستحق مجرد البحث فيه . فالحضارة برأيهم هي الحضارة الأوروبية ، وكل ماعداها لايمت إلى الحضارة بصلة .

ومنذ أن استفاقت أوروبا من رقادها ونفضت عنها أسباب تخلفها ودخلت في عملية صناعة نهضتها مستفيدة من جهود وعلوم وانجازات الأمم التي سبقتها ، ومن ثورات العالم الجديد . ومنذ أن بدأت ثورة الإنتاج تحطم الحواجز الإقطاعية، وتقيم الدول القومية، ومنذ أن حدثت الثورة الصناعية وبدأت تدفع بسيل من السلع إلى الأسواق التي لم تعد تحتمل المزيد بدأت أنظارتلك الدول (الاوروبية) تمتد إلى خارج حدودها لتصريف تلك البضائع المكدسة وللحصول على المواد الخام الرخيصة .

وعلى مقربة من تلك الدول ثمة الدولة العثمانية ، بل إن أصابع تلك الدولة ، كانت تمتد إلى خاصرة تلك الدول في أعماق أوربا ، فكان لابد من وقوع الاحتكاك بين الدول الأوروبية الناهضة ، وذلك العجوز المتغطرس ، الذي طالما أذاقها الهزائم تلو الهزائم . وبدأت أصابع ذلك العجوز بالوهن والتراجع شيئاً فشيئا من منطقة لأخرى ، ولكن دون أن يسمح لنفسه بالتراجع عن فكرة القوة العسكرية كأساس لدولته . لذلك لم يحاول أن يستفيد من علوم أوربا ، ولامن صناعاتها اللهم إلاّ فيما يخدم توجهاته العسكرية . فكل البحوث وكل الإرساليات إلى أوربا إنما كانت بعوثا عسكرية ؛حتى المصانع التي حاول اشادتها لم تكن إلا مصانع حربية أو لخدمة التوجهات العسكرية .

وبدأت الأسوار العالية التي كانت تقف على حدود الدولة (العلية) بالتآكل والتصدع ، وبدأت عملية الانهيار الشامل ، وبدأت مراسم إعداد المأتم (للرجل المريض) والذي لم يحاول أحد إسعافه ، ولاكانت الرغبة عند أحد بشفائه . وبدأ الرأسمال

الأوربي يتحكم شيئاً فشيئاً بمقدرات الدولة وينتزع المراسيم والفرامانات السلطانية لحمايته " وأصبحت الاتجاهات في الحياة الاقتصادية تتغير لتتكيف مع متطلبات السوق الأوروبية "[٩] وعجزت الدولة عن سداد الديون الاوربية ولأول مرة وقع الميزان التجاري بخلل واضح [١٠] . وأصبحت الدولة مرهونة للاحتكارات الرأسمالية ، لاسيما في النصف الثاني للقرن التاسع عشر . وراحت هذه الاحتكارات تجبرها على اتباع سياسات مالية وجمركية تناسبها، وصارت إرادتها هي النافذة . وإلى جانب ذلك أجبرت الدولة على التنازل عن جزء من سيادتها حين تنازلت عن سلطتها على بعض رعاياها ، وأذعنت لما صار يعرف بنظام (الحماية) والامتيازات . حيث ادعت كل دولة من الدول الأوروبية حق حماية بعض الطوائف ، وبذلك أصبحت الدولة عاجزة عن تطبيق قوانينها على بعض رعاياها ، مما أدى إلى تمتع البغض بما لم يكن يتمتع به الاخرون ،وتحمل البعض لتبعات لم يكن يتحملها الآخرون، وشعور البعض بانتمائهم إلى دول وحكومات وحضارات خارج حدود الوطن. وكانت هذه هي البذرة الأولى للطائفية الخبيثة في وطننا حيث بدأت بعض الفئات تشعر بتميزها عن الآخرين . وظل الأوربيون يغذون هذه النعرات حتى اشتد عودها ، وأتت آكلها حقدا ونبغضا وصل إلى حد التذابح في أكثر من مناسبة في القرن الماضي ، وهو أمر غريب في شرقنا ، صدره لنا الغرب من جملة ماصدر ، مما أدى إلى خلل في العلاقات الاجتماعية بين شرائح المواطنين ، وإلى الشعور بالانتماء الطائفي بشكل حاد ولأول مرة ، وإلى الممارسات الخاطئة من قبل البعض الأمر الذي أدى إلى تعميق الخلافات بين المواطنين . وهذا سبب آخر من أسباب الخلل الذي أصاب بنية المجتمع ، وأصاب العلاقات الإجتماعية بالصميم . فكان لابد من مراجعة الذات ، لاسيما من

قبل متنوري الأمة ، فحاول هؤلاء أن يضعوا أيديهم على مكمن الداء ، وأن يوجدوا له الدواء . وبدؤوا بالتعرف على أسباب قوة الأوروبيين وأسباب ضعفنا ، أسباب تقدمهم وأسباب تخلفنا ، وبدأت عملية الاستفادة من علومهم الطبيعية وتقنياتهم وإنجازاتهم ، أمّا آرائهم وعلومهم الإنسانية فقد كان يحبذ البعض الاستفادة من تجاربهم بما يتمشى مع حاجتنا واستعداداتنا ، في حين كان الحذر مسيطرا على البعض الآخر وكان الرأي عندهم أن لدينا في هذا المجال مايغنينا وماهو أرقى وأفضل مما عند الأوروبيين ، لكن مالبثت أن تسربت أفكار الأوروبيين من خلال ماترجم من كتبهم ، وعبر البعثات التي زارت بلادهم ، والمبعوثين منهم إلينا . ولعل التماس المباشر الرئيسي والحقيقي قد تم خلال حملة (نابليون بونابرت) وماتلاها .

ولفهم المزيد عن طبيعة العصر لابد من الدخول في بعض التفاصيل وهذا ماسنحاول عمله في الصفحات التالية .

الحياة الاجتماعية والسياسية

أولاً – الحياة الاجتماعية

١ – الحياة الاجتماعية في المدن :

كانت المدن تضم مجموعات من السكان تعمل في مجالات مختلفة ، وتتوزع على مستويات مختلفة ، فهناك الحرفيون ، والتجار، والأعيان ، والموظفون ، ورجال الشرطة (الضابطية) ، والعلماء (رجال الدين) إلى جانب بعض (الفتوات والقبضايات) .

وكان الحرفيون يشكلون الشريحة الأكثر عددا والأقل حظا ، هذا إذا استثنينا بعض كبار الحرفيين ، الذين كانوا يملكون ورشات عمل واسعة فيها عدد من الصناع والأجراء . وإن كان أغلب هؤلاء الصناع من أبناء وأخوة صاحب الورشة . حيث كانت بعض الأسر تحتكر صناعة معينة تعرف بها دون سواها وربما اندثرت بعض الحرف بفناء أربابها وممارسيها مثل صناعة (القاشاني) مثلا .

وأشهر الحرف في تلك الفترة هي الحياكة والحدادة والنجارة والدباغة وصناعة الأحذية والأدوات النحاسية والخزفية والفخارية

وبعض المهن المكملة كالتنجيد وبعض مهن الخدمات كالحلاقة وبعض المهن التي تخدم الريف كالبيطرة ، ولعل أكثر المهن انتشارا وشهرة كانت مهنة الحياكة ومايتصل بها من حرف مكملة ، وقد اشتهرت مدن بلاد الشام وبعض مدن مصر والعراق بانتاج أنواع من النسيج الجيد والمشهور على المستوى العالمي .

أمّا الأعيان فقد كانوا أكثر الناس رفاهية وحظاً نتيجة الأموال التي كانت تتدفق عليهم سواء من الهبات الحكومية أو مما تغله عليهم شراكتهم الصورية للفلاحين أو مما تدره عليهم أملاكهم وأراضيهم التي كانوا يكلفون بعض الفلاحين بالعمل فيها لقاء أجور لاتكاد تقيم أودهم .

وكان بين أسر الأعيان هذه أسر الأشراف التي يمتد نسبها حقيقة أوتزويرا إلى العترة الشريفة وكانت تتمتع بامتيازات خاصة وحقوق إضافية .

أمّا التجار فقد كانت تجارتهم في البداية داخلية ، بمعنى أنهم كانوا واسطة بين المنتجين المحليين والمستهلكين المحليين كذلك ولكن بعد تغلغل النفوذ الأوربي في الدولة العثمانية وفتح البلاد أمام البضائع الأوروبية تحول الكثير من هؤلاء التجار لاسيما المسيحيين منهم (١١) وأصبحوا وكلاء لبعض الشركات الأجنبية يعملون على تصريف مصنوعاتها وتأمين المواد الأولية لها .

وقد أدى توسع أعمال التجارة إلى اغتناء هذه الشريحة الاجتماعية وثرائها وزيادة قوتها المؤثرة في المجتمع .

أمّا الموظفون الذين يعملون في الدوائر الرسمية فقد كانوا فئة قليلة العدد ، غريبة عن المدن غالبا (من مدن ومناطق أخرى) ولكنها رغم ذلك عرفت كيف تصنع لنفسها مكانة مرموقة وسط التركيبة الاجتماعية للمدينة وكان مما يميز هؤلاء تأنقهم في اللباس ،

وتشدقهم في الكلام ، وتسلطهم على عامة الناس ، وتسخيرهم لهم في قضاء حاجاتهم ، وتسابق البسطاء من العامة لخدمة هؤلاء لمجرد أن يقال أنهم يعرفون واحداً من موظفي (السراي) [١٢] .

أمّا عن العلاقات الاجتماعية في المدينة فقد كانت الأسرة (العائلة) تقيم في بيت واحد ، يختص كل واحد من الأبناء المتزوجين بغرفة ، أمّا الطعام فكان على (طبق واحد) كما يقولون أي يشترك الجميع بطعام واحد ، وكان الأب أو الجد هو المسؤول الأول .

وفي الحي تقوم بين الجيران عادات وطيدة من التعاون والتكافل والتساند . وكان وجوه الحي (أعيانه) يقومون مع المختار (شيخ الحارة) بحفظ الأمن في الحي ، ودفع الضرر ، وحمل الناس على احترام الحقوق . وكان (شيخ الحارة) و(الإمام) و(الأعيان) يشكلون مايشبه المجلس الإداري والقضائي والتنفيذي في الحي وكل خلاف ينشأ في الحي فمرده إلى هذه الهيئة حيث تنظر في الخلاف وتفصل بين المتخاصمين . في حين كانت قوى الأمن الحكومية والسلطة الإجرائية الرسمية لاتقوم في الغالب إلا بحماية نفسها ، والمحافظة على الأماكن التي تسكنها ، يستقبلون بعض المراجعين نهارا ، فإذا جاء الليل أغلقوا مخافرهم على أنفسهم وسكنوا على مضاجعهم ، لايبالون بما حدث وبما يحدث [١٣] . وتجدر الإشارة هنا إلى أن مجلس الحي كان يستعين ببعض (القبضايات) من الفتوات وذوي البطش ممن أتوا بسطة في الجسم . وكان يخول نفسه حل الإشكالات وإدارة أمور الحي . وهو مسؤول عن أبناء الحي تجاه الاحياء الاخرى ، ويعمل على صيانة سمعة وكرامة الحي . فكل حي يمتلك مايشبه الإدارة الذاتية الخاصة به ، ولكل حي راياته وبيارقه وأعلامه التي تميزه عن غيره من الأحياء والتي كانت ترفع في العراضات والاحتفالات والمناسبات . وكانت هذه الرايات

والأعلام تحفظ عند (شيخ شباب الحي) . أما في مواسم السَوْق إلى الجندية فيُنصب سوقٌ للرشوة أبطاله (شيوخ الحارات) .

حيث يظهر كل واحد منهم براعته في جمع الأموال واقتسامها مع رئيس التجنيد . وفي هذا الجو المفعم بالفساد ينجو من ينجو وتقع (القرعة) على من تقع . فكان أبناء الأغنياء هم أصحاء الأجسام يسرحون ويمرحون ، ولايذهب إلى الجندية إلا المرضى والمعيلون وأرباب العاهات من الفقراء الذين ليس لهم شافع (١٤) .

ومن الطريف أن الدولة (العلية) التي قاومت (اللامركزية) بكل ماأوتيت من بطش وإرهاب ، ورفضت أن تتنازل عن (المركزية المتزمتة) بإصرار شرس ، هي نفسها التي شجعت ورعت تلك الانقسامات في المدن ، وحولت كل حي إلى وحدة إدارية شبه مستقلة . وما فعلت ذلك إلا لتفتيت كل مدينة ، وإثارة معارك جانبية هامشية تستنزف الجهد والنقمة ، فيصبح بأس المواطنين بينهم شديد ، وينحصر همهم في قهر جيرانهم من أبناء الأحياء الأخرى بدل العمل على تغيير الأحوال . حتى لقد وصل الأمر في أحايين كثيرة إلى درجة نشوب معارك حقيقية بين الأحياء (كانت تسمى الكون) يقتل فيها من يقتل ويجرح من يجرح ويؤسر من يؤسر وتفرض الأتاوات و (الخوات) .

بل لقد كان لكل حي حدوده التي لايجرؤ أحد على اقتحامها أو تجاوزها دون أن يكون مستعدا لتحمل تبعات عمله .

ومن الطبيعي - كما هي العادة دائماً - أن يكون وقود هذه المعارك وحملة البيارق والأعلام فيها من بسطاء الناس وعامتهم . أمّا الأغنياء والأعيان والمتنفذون فكانوا يتصدرون المجالس ويتمتعون بالميزات ويترأسون وفود المصالحة والمجاملة ويتقدمون المواكب ويتحلقون حول الموائد . ولايفوتنا أن نذكر هنا تخصيص تلك

العائلات المتنفذة مكانا رحبا في بيوتهم لاستقبال الزوار والضيوف والشركاء من البدو والفلاحين يسمى المنزول أو (الاناء) (*) .

وكانت تبحث في تلك المنازيل الأمور الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . فالحرفيون وأرباب الصناعات المحلية يقصدون تلك (المنازيل) لطلب القروض والدعم أمام تفاقم أوضاعهم سوءاً بسبب تدفق البضائع الأوروبية الرخيصة . والفلاحون الذين تربطهم مع صاحب المنزول شراكة صورية يأتون لطلب قرض (على الموسم) أو لطلب مشورة أو مساعدة في أخذ مريضهم إلى الطبيب أو ليطلبوا الحماية من بعض رجال السلطة أو من هجمات البدو أو من تعديات بعض (الأشقياء) .

وفقراء الحي وعامته يطلبون الرأي والمشورة في أمر اجتماعي أو يطلبون المساعدة (لصرف) جابي الضرائب وكان صاحب (المنزول) حريصا - في الغالب - على تلبية مايطلب منه كلما كان ذلك ممكنا ليزيد من رصيده من (المحاسيب) والأتباع والأنصار الذين يدخرهم لوقت الحاجة .

وكان زعماء العائلات المدينية المتنفذة يشكلون قوة وسلطة حقيقية قادرة على الضبط والربط وقد برهنت الأحداث أكثر من مرة على قدرة هؤلاء وسطوتهم . فالكثير من الولاة ماكانوا ليستطيعوا ممارسة أية سلطة على الإطلاق إلاّ عن طريق تقربهم من تلك العائلات "والحقيقة أن هناك منطقتين للسلطة السياسية ، واحدة خارجية متمثلة بالدولة العثمانية (الوالي) ، وأخرى داخلية تتشكل من الجماعات المحلية ذات النفوذ الاجتماعي والسياسي المستقل في المجتمع . . . . فهي (الجماعات المحلية) لم تكن تشكل في

---

* أكبر الظن أن كلمة (الاناء) ترجمة عامية لكلمة (قُناق) التركية التي تعني مكان الاستراحة .

مجموعها وحدة سياسية متميزة ، ذات أيديولوجية موحدة ، بل كانت منظمة بشكل غير رسمي ؛ وكانت موزعة وفق خطوط عائلية و(اقتصادية – اجتماعية) وتتركز في مختلف أحياء المدينة حيث كانت سلطتها المستقلة تبرز بقوة (١٥) .

أمّا بالنسبة للدور الاجتماعي للمرأة فقد كان محدوداً للغاية ومحصوراً في أمور تربية الأطفال وإعداد الطعام وما إلى ذلك . أمّا الانخراط في الحياة الاجتماعية العامة فلم تعرفه المرأة إلاّ في حالات نادرة وعند بعض الطوائف وبعض العائلات إذ كانت تزداد الفرصة أمام المرأة للفاعلية الاجتماعية بازدياد اطلاع أسرتها على حالة المرأة عند الشعوب الأخرى . ومن هنا يمكن أن نفهم أسبقية المرأة لمبادرة الحياة الاجتماعية لدى العائلات التي عملت في التجارة لاسيما التجارة مع الأجانب ....

٢ – الحالة الاجتماعية في الأرياف :

ظل التأثر بالمستجدات ضعيفاً جداً في المجتمع القروي ، اللهم إلاّ في القرى التي ارتبط انتاجها الزراعي بالاحتكارات الرأسمالية الأوروبية (مناطق زراعة التوت خاصة) ، وفي القرى التي افتتحت فيها مدارس للإرساليات التبشيرية ، وهي قرى مختارة بدقة ، ومحدودة العدد ولايمكن اتخاذها قاعدة . أمّا بقية أنحاء الريف فقد كان الفلاحون واقعين فيها تحت رحمة أعيان المدن (أصحاب الأراضي) وتحت رحمة المرابين وإن كان أصحاب الأراضي والمرابون في حالات كثيرة عبارة عن جهة واحدة . كما إن الفلاحين كانوا واقعين تحت رحمة البدو ، إذ كثيراً ماكانوا يشنون عليهم الغارات التي هدفها السلب والنهب أو اتلاف المحاصيل عن طريق رعي أغنامهم ومواشيهم للأراضي المزروعة وكان الفلاحون واقعين تحت

استمرار هذه التبعية تكمن في تراكم الديون على الفلاح ، وجعله يشعر باستمرار بحاجته لتلك العائلات المدينية لإقراضه ، وحمايته من تعسف رجال الحكومة ، ومن تعديات البدو ، ولتأمين الخدمات المختلفة التي لاتتوفر في مركز السلطة (المدينة) .

والأساس الذي ترتكز إليه تلك الشروط يقوم على شكل الملكية الزراعية في الدولة العثمانية ، وشكل استثمارها وهو شكل الأرض (الميري) التي يعود تملكها (رقبتها) في الأساس لبيت المال أي للدولة ، ولكن يخول للأهلين استثمارها ، أي حق التصرف بها بسند يسمى (سند التصرف) . وبرأي (محمد كرد علي) أن أكثر أراضي بلاد الشام من هذا القسم .. [١٧] وقد صارت (رقبة) تلك الأراضي في معظم الحالات بيد ثلة من العائلات المدينية (أعيان - علماء - أشراف - أغوات ..) وذلك بتأثير عوامل مختلفة أهمها طبيعة تشكل قوى السلطة في المدن ،وأشكال جباية الضرائب عن أرض (الميري) بواسطة هذه القوى المدينية ، مما أدى إلى تخلي الكثير من الفلاحين عن حق التصرف بالأرض لمصلحة متنفذي المدن .

وبصورة عامة أصبحت القرى تحت الرحمة والسلطة الكاملة لأعيان المدن ، فقد سيطر التاجر ومالك الأرض والبيروقواطي على الريف ، وغالباً ماكان كل أولئك رجلاً واحداً أو عائلة واحدة . وبذلك صارت الحياة الزراعية نتيجة (تتحير) الزراعة تحت سيطرة الأعيان . ويذكر صاحب (خطط الشام) أن قرى بكاملها سجلت بأسماء عائلات متنفذة في المدينة ويشير إلى أن غالبية القرى حول دمشق وحماة وحمص وسواها صارت بيد قلة من المتنفذين .

ووقوع القرى وفلاحيها في شبكة متنفذي المدن كان يرضي نزعة أخرى في نفوس أولئك المتنفذين ونعني بها زيادة أهمية وقوة الساعين إلى الزعامة . كما يمكن أن نذكر هنا مالاحظه بعض

الدارسين الغربيين من تناقضٍ آخر بين الريف والمدينة في بلاد الشام وهو أن المدينة (غريبة) قومياً عن القرية ، فأعيان المدن وسكانها لم يأتوا من الريف المحيط بها (كما يجب أن يكون) وإنما ينتسبون إلى مدن وقبائل ومناطق بعيدة وهذا مايمكن التأكد منه بملاحظة (الكنى) التي تحملها عائلات المدن . وفي ظل هذا الواقع من الفقر والجهل والظلم ، كان لابد أن تستشري أمراض وعادات وتقاليد وخرافات ، تصب جميعها في خانة جر هذا الفلاح إلى المزيد من الاستلاب والقهر والضياع .

أمّا المرأة في الريف فقد كان حظها أسوأ كثيراً من حظ المرأة في المدينة ، فهي إلى جانب حرمانها من كل الحقوق التي تليق بإنسان ، كانت مضطرة إلى العمل الشاق والمضني في شتى مجالات العمل الزراعي . وخلافاً لكل المقولات التي تعتبر العمل وسيلة للتحرر ، فإن عمل المرأة كان أداة لمزيد من الاستلاب والقهر ، حيث كانت تعتبر وسيلة انتاج تباع وتشرى وتستغل من قبل أهلها وزوجها .

ثانياً – الحياة الاقتصادية :

إن الحياة الاقتصادية في المناطق العربية التي كانت خاضعة للدولة العثمانية قد تأثرت بحدة بمطامع الأوروبيين ، وخططهم ، وتدخلهم السافر في شؤون الدولة (العلية) . وهو تدخل دافعه الأساسي والحقيقي مادي اقتصادي ، وإن حاول أن يلبس لبوس الدين . فالأوربيون كانوا يهدفون إلى فتح السبل أمام بضائعهم ومصنوعاتهم من جهة ، وأمام تدفق المواد الخام الرخيصة إلى مصانعهم الناشئة من جهة ثانية . وقد وعى العرب هذه الحقيقة ، وأدركوا أنه منذ الحروب الصليبية التي شنها الغرب على شرقنا

والهدف هو الاستغلال : " إن بطرس الناسك لم يكن سوى آلة ، وأما حقيقة الأمر ، فهو أن أوربا قد لاح لها إذ ذاك أن المسلمين في ضعف لتفرق كلمتهم ، ولاشتداد ضعف الخلافة في تلك الأيام ، وتخيلت أن دولها إن هجمت على الشرق الإسلامي هجمة واحدة يتيسر لها أن تمتلك البلاد وتقتسمها ، وتصل إلى مشتهياتها المادية تحت ستار حماية المسيحيين في الشرق . فالروح التي حركت هذه الحروب هي روح (رومانية) وليست روحاً مسيحية . ونفس الأمر يقال اليوم : إن أوربا لاتتهجم على الشرق بسائق تعاليم دينية بل بسائق مناهج (رومانية) ورثوها مع ماورثوا من الرومان " (١٨) وقد كان الشرق لاسيما آسيا العربية لقمة سائغة ، سال لها لعاب الأوربيين جميعاً ، وتسابقوا على الفوز بها ، وسلك كل منهم سبيلاً قد يختلف عن الآخرين في سبيل الوصول إليها . وقد بين الزهراوي كيف أن الغرب كله متألب على الشرق ، وإن لبس في بعض الأحيان لبوس الصداقة وبرهن بالمنطق والعقل على اتفاق الغرب على اقتسام الشرق وإن اختلفوا على كيفية هذا التقسيم " مهما استحكمت حلقات الخلاف مابين ذويه (الغرب) يبقى من السهل أن يؤيدوا عرى الصلح على أكتاف الشرق ، التي يتسع عرضها له كله ... " (١٩) " فمن قال :" أن هذه الأمم الأوروبية التي تجمع بينها القرابات المتعددة إنما قصارى همها إخضاع الشرق والاستيلاء عليه فقوله صحيح تؤيده المؤيدات الكثيرة من المعقولات والمحسوسات ... على أننا إذا افترضنا أنهم لايقتتلون لأجل استيلاء بعضهم على بعض فان الفكر يذهب إلى أنهم ربما يقتتلون لأجل تزاحمهم وتدافعهم على الغنائم الشرقية " (٢٠) وقد وصلت حمى ذلك التزاحم والتدافع إلى ذرى عالية قبيل الحرب العالمية الأولى ، وكان هذا التزاحم يأخذ أشكالاً مختلفة منها الاتفاقيات السرية والعلنية : " كثرت الشوائع (الشائعات) عن الاتفاقيات

السرية بين الدول الأوربية وليست شائعة من تلك الشوائع ببعيدة عن الاحتمال، فبين انكلترة وفرنسة وايطالية زعموا أنه يوجد اتفاق لأجل التوازن في البحر الأبيض ، وبين ايطالية وروسية زعموا أنه يوجد اتفاق، وبين ألمانية وروسية زعموا أنه قد أوجد اتفاق حديث. وقد رأينا أن كل واحدة من هذه الشوائع تشهد لها آية من آيات السياسة المحسوسة ... وهذا مايجعلنا نظن أن أمام أوربا وأمامنا عهداً جديداً في السياسة قد يصح أن نعده مخيفا ولكن ربما كان حسن العواقب " (٢١) . ولكن هذا العهد الجديد المخيف على حد تعبير الزهراوي إنما كان وليد سلسلة من التداخلات التي بدأت منذ سنين طويلة ... ولاريب أن لهذه التدخلات أسباب مادية واقتصادية (في الأساس وهذا ماكان واضحاً في ذهن الزهراوي وأذهان المتنورين الآخرين من أبناء الأمة بل إن ذلك كان يلقي أضواء على الكثير من المشكلات التي يعالجها فهو حين يعالج مشكلة (حرب طرابلس الغرب) بين ايطاليا والدولة العثمانية يتنبأ بأن الدول الأوربية ستدخل في هذه الحرب بدوافع اقتصادية " مما لاريب فيه أن أوربا ذات الروح الاقتصادية الفعالة لاتستطيع الصبر على بقاء هذه المشكلة التي تتدرج كل يوم من شديد إلى ماهو أشد فهي من هذه الجهة لاتصبر على بقاء هذه المشكلة المهددة للاقتصاد والسياسة " (٢٢) .

ومما لاشك فيه أن قرب بلادنا من أوربا كان مدعاة للتفاعل على مر التاريخ ، بالوسائل السلمية حيناً ،وبالحديد والنار أحايين كثيرة . وكانت كل جهة من جهتي هذا التفاعل تتأثر وبحدة بما يجري في الجهة الأخرى . ومن الطبيعي أن الجهة الأضعف هي التي كانت تتحمل وطأة ذلك التفاعل ، وتدفع راضية أو صاغرة ضريبته. ومنذ إفاقة أوربا الأخيرة وصنعها ماصار يعرف بالحضارة الغربية ، أو (النموذج الأوربي) للحضارة ، وبلادنا هي الجهة

الأضعف ، وهي التي يترتب عليها أن تدفع ضريبة هذا التفاعل ؛ وأن تصبر على تجاوزات الجهة الأقوى " .. لهذا الغرب الأوربي مميزات كثيرة أهمها أنه صار يشعر بالأمن من هجوم الشرق عليه ، بل على العكس صارت كل دولة من دوله تحدث نفسها بالتجاوز على الشرق ، وهذا التجاوز هو موضوع السياسة اليومية منذ مائة عام بل أكثر . ولذلك لانحسب من الأمور الجديدة مانراه اليوم أمام أبصارنا على هذه الصورة ،وقد مرت حوادث كثيرة من تجاوز الغرب على هذا الشرق القريب ، ولكن لانظن أن هذا الشرق محن من قبل بمثل مامحن به اليوم من التجاوز ، كما لانظن أن الشرق وجب عليه أن ينتبه لنفسه من قبل مثلما وجب عليه الانتباه اليوم"(٢٣) .

ولعل أفدح ماعلى الشرق أن يدفعه من الضرائب وأن يحتمله من التجاوزات حرمانه من التقدم ، وحجبه عن امتلاك أبجدية التطور ، خاصة أبجدية التطور التقني (التكنولوجي) التي هي عماد الحضارة الحديثة .

" سيطرة الرأسمال الأجنبي في سورية تحرمها من تحويل موادها الأولية فوق أراضيها وبأيدي عمالها وبأدواتها وبذلك تسهم في إبقاء مستوى اقتصادها ضعيفاً ومستوى معيشة شعبها منخفضا وتجعل تطورها ضعيلاً " (٢٤) .

فمع تطور الرأسمالية الأوربية ، وزيادة الانتاج ، بدأت الرأسمالية الأوربية تعمل وبشتى الوسائل على ربط اقتصاد الدول الأخرى باقتصادها ،وجعله تابعا له . وقد استمرت هذه المرحلة الاستعمارية (الكولبانيلية) إلى الحرب العالمية الأولى ، حيث بدأت المرحلة الإمبريالية ، وفي حالة الدولة العثمانية فقد تسرب التدخل الأوربي في البداية عبر مسارب (شرعية) ؟ ضيقة جداً كالاتفاق

التركي الفرنسي الموقع عام (١٥٣٥)،والاتفاق التركي الإنكليزي الموقع عام (١٥٨٠)، وهي اتفاقيات قديمة وقعها الأتراك في أوج قوتهم . وكانت غاية تلك الاتفاقيات منح قناصل الدولتين شيئا من الحقوق ذات الصبغة القانونية والتي تخولهم حماية رعايا الدولتين في الدولة العثمانية * وعند النهوض الاقتصادي الأوربي رجع الانكليز والفرنسيون والأوربيون عامة إلى دفاترهم القديمة ، ثم بدؤوا بتوسيع أفق تلك الحقوق (الدبلوماسية العادية) التي منحتها لهم الدولة العثمانية دون أن تأبه (لعقابيلها) لأسباب كثيرة منها : اعتدادها بقوتها ، وضآلة العلاقات التجارية مع أوربا في ذلك الوقت ، ولأن الأجانب في الدولة لم يكونوا يشكلون ظاهرة تستحق أدنى ريبة . ولكن تغيرت الظروف ، حين بدأت السلع الأوربية تعمل على فتح سوق لها في الدولة (العلية) ، وازداد عدد الرعايا الأجانب زيادة هائلة ، أغلبهم من المغامرين الذين جعلت منهم الشركات الرأسمالية الاوربية وكلاء لها في المكان الذي يقيمون فيه ، وأرسلوا اليه . ثم إن الدولة العثمانية بدأت تتآكل وتضعف في الوقت الذي اشتد فيه عود الدول الأوروبية ، فاتخذت من تلك الاتفاقيات القديمة ، وماضمنته من حقوق كانت قد اكتسبت الصبغة القانونية المشروعة ، وسيلة لحماية الأجانب ، وتغطية تصرفاتهم الشاذة . وفي ظل فقدان التكافؤ بين الدولة (العلية) والدول الأوربية ، كان من الطبيعي أن تتمادى تلك الدول في فرض المزيد من هذه الامتيازات " مما أدى إلى فساد كبير داخل (الامبراطورية العثمانية) والى تدخل تجاري سافر من الأجانب ، وأصبح لهؤلاء الأجانب التحكم بينابيع الثروة التي كانت تستغل دون اعتبار لمصالح الدولة العثمانية نفسها " (٢٥) .

* أنظر سير ريدر بولارد - بريطانيا والشرق الأوسط من أقدم العصور حتى عام ١٩٥٢ ترجمة حسن أحمد سليمان . مطبعة الرابطة ، بغداد - ١٩٥٦ - ١٩٥٧ - خاصة ص ٥٢ ومابعدها - كذلك انظر : روحي الخالدي - مقدمة في المسألة الشرقية - مطبعة مدرسة الايتام بالقدس - ص ٥٠ ومابعدها .

بدأت هذه الامتيازات بالقليل وانتهت بالكثير " وأخذت دائرة هذه الامتيازات تتسع شيئاً فشيئاً حتى صارت الشعوب والجماعات غير المسلمة في الامبراطورية العثمانية تتمتع إلى هذا الحد أو ذاك باستقلال طائفي ، فيما يتعلق بالأحوال الشخصية ، وبإعفاء من الخدمة العسكرية ، ومن كثير من الضرائب والملاحقات القانونية ... وانتهى الأمر إلى تمكن فرنسا وانكلترا من منح الحماية حتى لبعض الرعايا العثمانيين من خدم وعملاء ... ولم تكن القوانين العثمانية لتطبق على المحميين ، حتى في حالة الإجرام ، الذي يستقل بالتحقيق فيه وبالمحاكمة عليه قنصل الرجل المحمي ... وكانت هذه الامتيازات أداة هامة للتآمر الاستعماري ضد الإمبراطورية ، تسهل الفتن ، وتشعل الثورات وتزرع في مختلف أنحاء الإمبراطورية مؤسسات أجنبية فكرية ودينية واقتصادية "(٢٦) .

بل لقد جاء حين من الدهر ، استطاع فيه القناصل الأوروبيون - بحكم هذه الامتيازات - أن يتدخلوا في كل صغيرة وكبيرة ، وأن يمنعوا الولاة ورجال الحكومة من تنفيذ القوانين المرعية . فقد " كانت حقوق وصلاحيات الممثلين الأوربيين المحلية واسعة جداً ، فكان بإمكانهم التدخل المباشر في الشؤون القضائية والإدارية عندما تمس هذه الشؤون مصالح المحميين ... ويضرب (ل . ن كوتلوف) مثلاً في نص رسالة أرسلها أحد القناصل الروس إلى أحد الولاة بشأن حادثة تمس إحدى (الفتيات المحميات) وقد جاء في الرسالة : " لي الشرف أن أحيط معاليكم علماً أنه إذا لم تنفذوا مطالبي التالية بشأن هذه القضية بعد أربعة أيام فأنني سأتوجه بنفسي مع هذه الفتاة إلى ... ويعود (كوتلوف) ليؤكد أن الممثلين الأجانب يتدخلون بفعالية في الشؤون الداخلية في مناطقهم ، ولم يكن من الحالات النادرة أن يتم تسريح بعض الإداريين الأتراك

الذين لايحسبون الحساب الكافي لمقاماتهم ... ، فيتعرضون للقصاص "(٢٧) .

وقد غدت هذه الامتيازات ضرورة للمصالح الأوربية تدخلها في حسابها : " إن التجارة مع الشرق ، وهي التي عززتها الامتيازات التي منحتها الامبراطورية العثمانية لمواطنينا وقناصلهم ، أصبحت إحدى الوظائف الطبيعة التي لابد منها لحياة فرنسا الاقتصادية . ومن المعلوم أن هذه التجارة نالت نصيباً من اهتمام الحكومة الفرنسية نفسها وأصبحت فائدتها ضرورية لتدخلها في شؤون الشرق " (٢٨) .

ومن الطبيعي والحالة هذه أن يحاول رجال الأعمال والرأسماليون الأوربيون إيجاد مفاصل ارتباط لهم من أبناء الدولة العثمانية ، لأن أولئك سيكونون خير عون لهم ، فهم يستطيعون القيام بما يعجز عنه الأجانب - رغم كل الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها - لأنهم الأدرى بعادات السكان ، ولغتهم ، وأنماط سلوكهم ، وطريقة التعامل معهم . فجعلوا من البعض وكلاء لهم، وممثلين لمصالحهم . وبدأ هؤلاء بتصريف البضائع الأوربية التي كانت تتدفق عليهم بأسعار رخيصة ، في محاولة لدحر وإجهاض بل والقضاء تماماً على المنتجات المحلية ، في نفس الوقت الذي بدؤوا فيه بتسوق المواد الخام الرخيصة ، وضخها باتجاه مراكز التصنيع في أوربا . وقد تركز هؤلاء الوكلاء في البداية في الموانئ الساحلية الكبيرة ، وفي بعض المدن الداخلية المهمة (حلب ، دمشق ، حمص).

والملفت للنظر أن هؤلاء الوكلاء كانوا في البداية من أبناء الاقليات (المسيحية - اليهودية) * وإن كانت المصالح الرأسمالية قد حاولت بعد ذلك استمالة بعض أعيان ومتنفذي المسلمين ، لما في

ذلك خدمة لمصالحها . فقد " تركزت التجارة الخارجية للولايات السورية بشكل أساسي في أيدي التجار الذين استعربوا ... المنحدرين أصلاً من ايطاليا واليونان. والعرب المسيحيين والأرمن واليهود " (٢٩) . وقد نقل (د. بدر الدين السباعي) عن (فوليتني) كيف أن الإفرنسيين " وجدوا من الأنسب لهم استخدام ، عملاء من المسيحيين اللاتين ... إن هذه الفئة من الناس ، التي ارتبطت مصالحها بمصالح الرأسمال الأجنبي ومؤسساته ، كانت تتحول تاريخياً إلى ركيزة من ركائز الدولة الأجنبية في سورية"(٣٠) .

والتجارة بعد أن كانت في الأغلب تجارة داخلية (محلية) ، قوامها الأساسي التبادل بين الصناعات الحرفية التي ينتجها حرفيو المدينة ، والمنتجات الزراعية التي تنتجها الأرياف القريبة من المدينة ، بدأت تأخذ طابعاً مختلفاً " ومنذ النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأ الاقتصاد السوري يشعر بوطأة التتجير (الخارجي مع أوربا) . فالاضطرابات التي أصابت الاقتصاد المديني ، والناجمة عن منافسة البضائع المصنوعة الأوروبية ، أدت إلى تنشيط التتجير الزراعي الذي أدى بدوره إلى تنشيط عملية اقتناء الأرض " (٣١) " وقد أخذ زعماء الأقليات يقيمون العلاقات مع القناصل والتجار الأوربيين ، ويحصلون على حمايتهم ، وكان التأثير الاقتصادي لأوربا في ازدياد خلال العشرين سنة التي سبقت حوادث (١٨٦٠)، وجنى الكثير من المسيحيين واليهود ثروة كبيرة من جراء عملهم كوكلاء للمصالح الأوربية . وقد شعر المسلمون من جميع الطبقات بالاستياء الشديد لهذه التطورات " (٣٢) .

وهكذا بدأت تظهر طبقة متميزة من زعماء الأقليات ، أهلّها مااستطاعت جمعه من الثروات ، وما استطاعت توطيده من العلاقات مع الأوربيين ، وما استطاعت اكتسابه من علومهم

ولغاتهم في المدارس التبشيرية التي كانت في البداية وقفاً عليهم وحدهم ، أن تفسح لنفسها مكاناً مرموقاً ضمن تركيبة القوى المؤثرة في المدن السورية الهامة ، حيث " استطاع زعماء الأقليات أن يستخدموا مراكزهم في الإدارة المحلية ، وصلاتهم المالية مع أوربا، لإقامة قاعدة متينة للثروة والنفوذ . وقد تأكدت سلطتهم الفعالة ، بعد أن أصبحوا الطبقة التجارية السائدة في دمشق . وقد لعبوا بوصفهم من التجار ، دوراً أساسياً في امتصاص اقتصاد الولاية تدريجياً إلى داخل اقتصاد أوربا، وكانوا باعتبارهم من المصرفيين والمرابين يسيطرون على السيولة النقدية ، فأقاموا صلات اقتصادية قوية مع (البيروقراطيين) وأصحاب الأراضي ، فقدموا لهم الرأسمال ، لتمويل مشترواتهم من الأراضي ومشاريع السكن . وفي الواقع لقد جمعت عائلتان مسيحيتان هما عائلة القدسي وعائلة شامية ، بين المناصب (البيروقراطية) ورأسمال التجار . . ." (٣٣) وبدأ هؤلاء يشكلون مايمكن تسميته (نواة البورجوازية) المحلية ، ولكن هذه البرجوازية ولدت مهيضة الجناح ، " بسبب ضعف القوى المنتجة ، ولأن حملة لواء هذا التطور (البورجوازية) تألفوا في البدء من الفئات التجارية المسيحية ، التي لم يكن بإمكانها التصدي للطرق الصوفية الإسلامية ، والوقوف أمام سيلها الجارف ، لماذا ؟ لأن كل محاولة بورجوازية لمقارعة الإقطاعية ، ورديفها الفكري (الصوفية) بمضمونها المتخلف المتزمت ، أتهمت بأنها هجوم من المسيحية على الإسلام " (٣٤) . وإذا كنا نوافق الدكتور (عبد الله حنا) على أن البورجوازية التي تقودها زعامة (الأقلية المسيحية) لم تكن لتستطيع استقطاب العامة والجماهير ولكن لأسباب غير تلك التي ذهب إليها . فبرأينا أن ماأسماه (البورجوازية) المحلية ، لم تكن تحمل في طياتها أية مصلحة لتلك الجماهير ، التي كانت في معظمها من الحرفيين ، الذين شلت صناعتهم أمام المنافسة غير المتكافئة والمحمية بالامتيازات

، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، فإن البورجوازية التي أشار إليها الدكتور (عبد الله حنا) لم تولد الولادة الطبيعية ، أي أنها لم تكن تطوراً نجم عن تطور في أساليب الإنتاج . وكذلك لم يخرج هؤلاء من صفوف التجار الذين كانت لهم علاقات وطيدة مع هؤلاء الحرفيين ، كما كان من الطبيعي أن يحدث بل إن (البورجوازيين) المحليين الذين أشار اليهم الدكتور (حنا) جُلبوا من شرائح لم يسبق لها أن تعاملت في السوق التجاري ، إنما أقحمت إقحاماً في هذا العمل ، لأسباب كثيرة ومختلفة ، ليس بينها مايمت بصلة إلى تشجيع قيام بورجوازية محلية حقيقية . وكانت مؤهلات هؤلاء تتمثل في استعدادهم لأن يكونوا نقاط ارتكاز للمصالح الرأسمالية الأوربية . وكانت مصالحهم ترتبط ارتباطاً عضوياً مصيرياً بتلك المصالح القابعة وراء الحدود . وهذا بالذات ماجعل العامة تقاومها ، وتربط بينها وبين الأوربي من جهة ، وتحارب جشعها واحتكاراتها من جهة ثانية . " فهؤلاء التجار ، وهم أصناف : فمنهم من يتاجر بالمنتجات المحلية وكان معظمهم من المسلمين ، ومنهم من إهتم بالتجارة الخارجية وبخاصة في حلب ، وكان معظمهم من المسيحيين، - العرب أو المستعربين - . وقد قام التجار بتخزين البضائع واحتكارها ، وتحقيق الأرباح الباهظة . وكثيراً ماثارت العامة على هؤلاء في أيام الجوع والأزمات " (٣٥) . وهذا سبب رئيسي آخر لمقاومة التجار من قبل العامة . وعدم انقيادها لهم لأنهم منذ البداية كانوا يمثلون الجانب المعادي لمصالحها وتطلعاتها . أمّا كون هؤلاء التجار من المسيحيين فليس سبباً أساسياً ورئيسياً لمقاومتهم .

بل إن توجه بيوتات المال الأوربية نحو الأقليات ، وجعل زعمائها وكلاء لها ، وما أغدقه ذلك من ثروات على هؤلاء ، ربما يكون من الأساليب الشيطانية التي لجأ اليها الرأسمال الغربي لشق

وحدة المجتمع ، وتفكيك عرى لحمته التي ظلت متماسكة قرون طويلة . " وقد فطن كل من (جب) و (هارولد براون) إلى الآثار السلبية التي خلفتها التجارة الأوربية مع الشرق نتيجة سيطرة الطوائف غير الإسلامية عليها ، مما ساهم برأيهما بتفكيك اللحمة الداخلية للمجتمع الإسلامي وبرأيهما أنه لو أتيحت الفرصة للتجار المسلمين ، للمشاركة الفعالة في التجارة مع الغرب ، لكان في ذلك تخفيف كبير من الأضرار البالغة التي لحقت كلا من مصر وسورية[٣٦] وإن كان لنا بعض التحفظات على هذا الكلام ، لاسيما مايتعلق بالفرص الضائعة أمام التجار المسلمين ، فليست المشكلة برأينا كون التاجر الوسيط للمصالح الرأسمالية الأوربية مسيحياً أو مسلماً ، إنما المشكلة في كونه وكيلا لهذه المصالح الاستعمارية ، التي كانت تهدف إلى تقويض الحرف المحلية واكتساحها ، وإغراق السوق بسيل من السلع الرديئة والرخيصة ، وإلى تتجير الزراعة . وتوجيه الإنتاج الزراعي لما يخدم الصناعات الأوربية . فلا "يعود فشل (البورجوازية) في تطلعها لإنشاء صناعات محلية إلى كون (البذرة البورجوازية) قد ظهرت في أوساط مسيحية بحكم ارتباطها مع الرأسمال الأوربي . وعجزها عن قيادة العامة المسلمة " [٣٧] إنما يعود هذا الفشل إلى كون هذه (البورجوازية) التي تحدث عنها الدكتور (حنا) ، بعيدة في الأساس عن الوسط الحرفي ، والى فقدانها كل حس وطني ، وإلى ارتباطها العضوي بالمصالح الأوربية ، التي كان همها القضاء على كل إنتاج محلي . وقد كانت وسائل دفاع العامة ، ووسائل دفاع المجتمع الإسلامي ، "تتمثل بصورة أساسية في تنظيمات الحرف المدينية ، التي هي من أكثر الأطراف الاجتماعية تضرراً وأكثر الأطراف تجانساً فكرياً وتنظيمياً بفعل تركيبها (الديني - الصوفي) المتماسك" [٣٨] لذلك يمكن أن ننظر إلى " انفجارات القرن التاسع

عشر لاسيما في المدن (التجارية – الحرفية) (على أنها) انفجارات اجتماعية طائفية .. توجهت في تعبيرها الشعبي ضد (الكافر) الغربي وممثله التاجر الوسيط في المدينة وحاميه (القنصليات) ومؤسساته الأيديولوجية (المبشرون) " (٣٩) . وعلى هذا يمكن اعتبار " هجوم جهلة المسلمين على الحي المسيحي في دمشق (١٨٦٠) ونهبه ... ليس مرده صراع (مسلم – مسيحي) ، بل هو نتيجة دوافع اجتماعية – سياسية وثقافية واقتصادية أشرنا إلى بعضها " (٤٠) .

و لم تكن الدول الأوربية بعيدة عن إشعال هذه الفتن بطبيعة الحال ، لأنها كانت المستفيدة الوحيدة – أولاً وأخيراً . " وكانت الفتن في الغالب ترتدي طابعاً دينياً ، لتنتهي بامتيازات سياسية واقتصادية تنالها الدولة المتآمرة . كما كانت أحياناً وسيلة ضغط لفرض هذا القانون أو إلغاء ذلك في البلاد " (٤١) .

فالسبب الرئيسي والحقيقي لعدم انقياد العامة (الجماهير) لما اعتبره (د. عبد الله حنا) بذرة البورجوازية . لايعود لكون هذه البذرة غرست في تربة (مسيحية) ، لأن بلادنا غريبة عن مثل هذا النوع من الصراع الديني الطائفي ، و لم تعرفه إلا مع ماعرفته من المستوردات الأوربية . فالأوربيون (الرأسماليون) حين بسطوا حمايتهم على طوائف معينة ، وأغدقوا عليها امتيازات معينة ، وأخرجوها من دائرة السيادة القانونية للدولة ، إنما دقوا الإسفين الأول للطائفية . وكان هدفهم شق الصفوف ، وتصديع وزعزعة الكيان الاجتماعي للمجتمع الإسلامي ، و لم يكن هدفهم مطلقاً رفع الظلم أو الحيف عن أحد . ونظرة بسيطة تجعلنا ندرك أن الذين استفادوا من هذه الحماية هم (نخبة) الأقليات ، وزعماؤها ، والمتنفذون فيها ، أمّا بقية أفراد الأقليات فقد حكم عليهم بأن

(يضرسوا) فقط بفعل التهمة زعماؤهم من (حضرم) الأوربيين . ويضع (فيليب شكري خوري) يده على مكمن العلة عند تحليله لأحداث (١٨٦٠) في دمشق حين قال :" ومن المؤكد أن (الرعاع) كانوا يضمون بعض الحرفيين العاطلين عن العمل ، بسبب انهزام الحرف المحلية اقتصادياً أمام البضائع الأوربية . فقد قاموا بصب غضبهم على المسيحيين المحليين الذين كان عامة الناس يقرنونهم بالمصالح الأوربية " [٤٢] هذه المصالح التي أغراها ضعف الدولة العثمانية ، للتمادي والتطرف في فرض المزيد من الامتيازات والقيود، وربط اقتصاد أقاليم تلك الدولة المتآكلة بالاقتصاد الأوروبي . وعدم السماح له بأن يشهد الانقلاب الطبيعي - كما حدث في أوربا - . ويبدو الطابع الاقتصادي (المادي) لأحداث عام (١٨٦٠) واضحاً حين نجد أن الغضب قد توجه أساساً باتجاه أغنياء المسيحيين : " وقد تضررت بشكل رئيسي المناطق التي كانت تسكنها الفئات الغنية من السكان المسيحيين ، أمّا حي الميدان حيث كان يسكن الحرفيون المسيحيون الفقراء فلم يتأذ كثيراً نظراً لأن الحرفيين المسلمين هبوا للدفاع عن جيرانهم هنا . . ." [٤٣].

وفي الفترة التي ولد فيها (الزهراوي) وترعرع كانت تلك الامتيازات تتصلب ، ويشتد عودها ، وتأتي على البقية الباقية من اقتصاد الدولة . وقد بلغت الدولة العثمانية من العجز والضعف ماجعلها تقبل بانشاء (مجلس إدارة الدين العثماني العام) سنة ١٨٨١ وهو مجلس رهن اقتصاد الدولة بين يديه . وكان يرأس هذا المجلس رجل فرنسي ورجل انكليزي بالتناوب وكان يتكوّن من مندوبين عن كل من الامبراطورية النمسوية المجرية وألمانيا وهولندا وايطاليا. أمّا وجود مندوب عثماني فيه فكان (تكملة للعدد) ووجوده لم يكن ليقدم أو يؤخر شيئاً ، خاصة إذا عرفنا أنه عضو مراقب ولايحق له التصويت . بالإضافة إلى هؤلاء فقد كان (مجلس

إدارة الدين العثماني العام) يضم مندوباً عن البنك العثماني ، وهو بنك استعماري تعود ملكيته من غالبيتها للأجانب وصار هذا المجلس يتصرف بممتلكات الدولة العثمانية ويشرف على إصدار الضرائب ، ويحتكر بعض أصناف المنتوجات (التبغ مثلا) . وساهم في تنفيذ مشاريع كلفت الدولة أموالاً طائلة في سبيل خدمة مصالح الدول الأوربية وغاياتها ، كمد الخطوط الحديدية . التي مدت لصالح الاستعمارالغربي لا لإنهاض القوى الإنتاجية المحلية . وكذلك الحال بالنسبة للموانئ التي شيدت خدمة للتجارة مع الغرب الراسمالي (٤٤) ومن أقسى مااستطاع الأوربيون فرضه على الدولة العثمانية تخفيض الرسوم والضرائب على التجارة التي يمارسها الأجانب في أراضي الدولة العثمانية مما فتح الباب للشذاذ والعاطلين عن العمل والمغامرين والأفاقين الأوربيين لأن يجدوها فرصة العمر . فجاؤوا إلى بلادنا وأصبحوا سادة الموقف اقتصادياً . بل إن البعض استغل قوانين الدولة التي تحمي الأجانب وصار يتاجر باسم بعض الأشخاص (الأجانب) مقابل جزء من الأرباح ذلك لأنه كان على التاجر الوطني أن يدفع ضريبة تتراوح بين (١٨-٢١٪) في حين كان الأوروبي لايدفع أكثر من (٤٪) " مما جعل التجارة تقع بين أيدي الأوربيين الذين جاؤوا من كل فج واستفادوا من هذا الواقع ، فاغتنوا وارتاشوا وتأثلوا

وتناسلوا حتى صاروا وكأنهم من أصحاب البلد " (٤٥) هذا البلد الذي اضطر لعقد اتفاقيات مع بعض الدول الأوربية " تسمح للتجار الأجانب بدفع رسوم جمركية لاتزيد عن (٣٪) في حين كان على التاجر العثماني أن يدفع (١٠٪) وفي أحسن الأحوال (٧٪) كما أن الرسوم الجمركية التي كان يدفعها التاجر الفرنسي مثلاً في مرفأ من مرافئ الامبراطورية العثمانية تحرر تجارته من أية رسوم جمركية أخرى إذا انتقلت إلى مرفأ آخر أمّا التجار العثمانيون فقد

كانوا يكلفون بدفع الرسوم الجمركية مرة أخرى في الميناء الآخر ... وكان لكل قنصل الحق (٥٠) براءة يقدمها لمن يريد من رعاياه . ثم أصبحت تباع من قبلهم بمبلغ يتراوح بين (٥٠٠٠ - ٦٠٠٠) ليرة تركية وهذه البراءة كانت تمنح حاملها امتيازات كثيرة" (٤٦) .

وقد هال (الزهراوي) انخداع البعض بنظام الحماية ومايمكن أن يجره من مغانم ، في حين أدرك هو أنه لعبة استعمارية : " فياليت شعري ألا يقوم في شرقنا المبارك من أبناء وطننا من المسيحيين من يردّون دعوى هذه الحماية في وجوه الأوربيين ويقولون لهم : إن بقاءنا في هذا الوطن منذ ثلاثة عشر قرناً ، دليل على أن أسلافنا لم يكونوا محتاجين إلى من يحيمهم " (٤٧) كما هاله تهافت **البعض** على أعتاب القنصليات ، للحصول على الوظائف والوكالات للشركات الأجنبية : لست أدري قيمة مراكز قد أصبح الأطفال يعرفون كيف يتصاغر الكبار لنيلها " (٤٨) .

أمام تفاقم الأوضاع الاقتصادية واضطرار الدولة للرضوخ كلية للرأسماليين الأوربيين ، وتحول ممتلكات الدولة إلى رهينة بيد (مجلس الدين) ، كان لابد من ظهور مقاومة لهذا الوضع الاقتصادي المأساوي ، وكان الحرفيون هم المؤهلون للقيام بهذه المقاومة ، ذلك لأنهم الجهة الأكثر تضرراً ، والجهة الأكثر تماسكاً وتنظيماً فالحرفيون " عماد العامة وروحها ، وهم بمنزلة عمال الصناعة بالنسبة للطبقة العاملة في عصر الرأسمالية ... وهم كتلة متحدة ، وقفت للدفاع عن مصالح الحرفة ، ومصالح أفرادها ومقاومة ظلم الحكام وتعسفهم . والحرفيون مثلوا الجانب الإيجابي الثوري للعامة، وجناحها التقدمي الأكثر وعياً في ذلك الحين " (٤٩) ويمكن أن نستنتج أنه كانت للحرفيين تنظيماتهم المتماسكة والقوية كما

عرفت الحرف نظام (التلمذة الصناعية) ، كما تأصلت بعض العادات والمواقف حتى صارت مع الزمن تقاليد راسخة ومتميزة ، فلكل حرفة رئيس (شيخ كار) يعتبر المسؤول عن تنظيم الحرفة ، وعن مصالح ممارسيها ، وكان يقوم بفض الإشكالات التي قد تحدث بين الحرفيين ، أو بينهم وبين زبائنهم ، أو بينهم وبين صناعهم (أجرائهم) ، وقد زاد من تماسك تلك التنظيمات وقوتها ، ارتباطها الوثيق بالطرق الصوفية ، بل ربما يكون من الطريف هنا أن نشير إلى أن بعض الحرف ارتبطت بطرق معينة من طرق الصوفية ، مما أعطى تلك التنظيمات (الحرفية) بعدا وجدانيا ومعنويا مؤثراً ولعلنا نجد فيما ذكره (العلاف) في كتابه (دمشق في مطلع القرن العشرين) مايؤيد مانذهب اليه ، فقد ذكر بالتفصيل نظام (التلمذة الصناعية) في حرفة التنجيد - وهي حرفة خدمات - وتحدث عن حفلات تنصيب (تعميد) الصناع الذين أتموا تعلمهم للصنعة ، وحان الوقت ليصبحوا (معلمين) أي العمل في مكان خاص يملكه ويديره (صانع الأمس معلم اليوم) وذكر القسم الذي كان على (الصانع - المعلم) أن يؤديه بين يدي (شيخ الكار) ، ووصف الاحتفالات التي ترافق وتلي ذلك كما تحدث عن المكانة التي كان يتبوؤها (شيخ الكار) ، والاحترام الذي يقابل به ، والمطلع على القسم الذي كان يردده (الصانع - المعلم) يدرك سريعاً الارتباط العضوي بين التنظيم الحرفي ، والطريقة الصوفية ، حيث يمتزج الدين ومصلحة الناس في ذلك القسم بشكل واضح [٥٠] ، ولعل ماذكره العلاف وغيره من شهود تلك الحقبة والأحقاب التالية يدفعنا للتفريق بين شلل من المتصوفة أُلحقت ببطانة السلطة ومن والاها من المحاسيب والمنتفعين ، وهم فئة من الناس عاطلة معطلة ، استمرأت حياة البطالة ، وتوسلت لذلك بشتى الوسائل ، فكانت بمثابة مخلوقات طفيلية ، وهذا النوع من المتصوفة هم الذين حاربهم

المتنورون ، ومن بينهم بل في مقدمتهم (الزهراوي) ، حتى لقد كادت مقاومته لهم تكلفه حياته كما سوف نرى . وبين متصوفة ماكان تصوفهم ليمنعهم من السعي والكد، والنضال ضد كل أشكال الظلم والقهر . فلم يكن كل المتصوفة كما ذكر الدكتور (عبد الله حنا) من المتخلفين والمترفين والرديف الفكري للإقطاعيين . بل إن الدكتور (حنا) وفي نفس البحث (تحركات العامة ...) يعود ليذكر بأن : " اشتراك فرق الصوفية علناً في كثير من التحركات (تحركات العامة) كان دليلاً على الارتباط العميق بين فرق الصوفية والعامة ، وبخاصة جناحها الثوري ، الممثل في الحرف ، فكانت فرق الصوفية بمثابة الأحزاب السياسية للعامة حيث امتزج في بوتقة واحدة النضال الاجتماعي والسياسي والديني"(٥١) . ومن هنا كان لابد من إعادة النظر في كثير مما كتب وقيل عن وقوف الفرق الصوفية في وجه (المد الحضاري) الغربي ، واعتبار ذلك نوعاً من التخلف والتزمت ، أو دفاعاً عن (الإقطاع والإقطاعية) وما إلى ذلك . إذ يجب ألا تؤخذ الفرق الصوفية بجرائر بعضها ، فالفرق الصوفية التي امتزجت (بطوائف الحرف) كانت تمثل المقاومة المشروعة النابعة من مصالح شرائح واسعة من أفراد المجتمع " وكان انتشار الفرق الصوفية على نطاق واسع ودخولها إلى أعماق الجماهير المدينية صدى للاحتجاج غير المباشر على نظام الحكم السائد آنذاك ومظهراً من مظاهر الحياة الحرفية وحاجتها إلى التكتل والدفاع عن مصالحها المهنية والمعاشية والحياتية . ولقد قامت هذه الجماعات بتحويل المفاهيم الصوفية العقلية والروحية إلى تعبيرات وأسس أخلاقية تسيّر حياتها الاجتماعية متبعة تقاليد معينة ، وهي تمارس رياضة نفسية خاصة تحت إشراف شيوخها المحليين .... ومن هذه الزاوية يمكن فهم بعض جوانب الصوفية بأنها تعبير عن الاحتجاج على المجتمع

الطبقي القائم بغض النظر عن الوسائل المتبعة في هذا الاحتجاج ... بالإضافة إلى هذه الفرق عرفت بلاد الشام أيضاً السعدية ، والشاذلية وغيرهما من الفرق التي كانت في الواقع أحزاباً للعامة وفق مفاهيم ذلك الزمن .. " (٥٢) .

وقد شارك المتنورون في هذه الحملة الهادفة إلى مقاومة النفوذ الأوربي بكل مظاهره وقد كانت المقاومة تنطلق من دوافع سياسية واقتصادية وثقافية لامن دوافع دينية كما يريد البعض أن يوهم الناس . " ولهذا يحسن أن ننتبه إلى عدم الانزلاق في تفسير مانراه من المستنيرين من المسلمين في هذه الفترة - فترة الربع الأخير من القرن التاسع عشر - حيث يتجهون إلى مقاومة تيار صبغ البلاد بالصبغة الغربية الأوربية وإغراقها بالبضائع الأوربية وبخاصة حين بدؤوا يرتابون ،ويرون أن هذه البضائع الغربية ،والأفكار الغربية ، وطرائق الحياة الغربية ، التي تقف وراءها جميعاً المصالح السياسية للدول الأوربية ،ستودي آخر الأمر إلى احتلال دولة أو أكثر بلدان الشرق العربي " (٥٣) .

وإلى جانب الحرفيين والتجار كان المرابون وهم من الأقليات الذين تحكموا بالسيولة النقدية بشكل كبير . وقد زادت ثروة هؤلاء بفعل حمى التتجير التي شهدتها البلاد والاضطرار إلى القروض رغم الشروط المرهقة . وقد استطاع هؤلاء أن يمتلكوا الكثير من العقارات في المدن ، والأراضي في الضواحي . ويذكر (فيليب شكري خوري) أن ملكية هؤلاء قد امتدت إلى مناطق كثيرة فيما كان يسمى بـ (حزام الحبوب) في حوران كما استطاع هؤلاء المرابون أن يكسبوا مباركة الكثير من أبناء العائلات المتنفذة نتيجة حاجة هؤلاء للقروض التي يشترون بها المناصب والوظائف .

إذ كان شراء المناصب بالرشوة أمراً شائعاً ومعروفاً ولايكاد ينكره أحد (*) .

وقد كانت الأسر المدينية الكبيرة حريصة على أن يتوزع أفرادها على أكبر عدد ممكن من المناصب وتحاول أن تؤسس لنفسها حقاً شرعياً في توارث مناصب معينة . ولعل من المفيد أن نذكر هنا أن " محمد فوزي باشا العظم قد دفع للوالي مبلغ (١٠٠٠) ل.ت.ذ من أجل تعيينه رئيساً لمجلس دمشق البلدي في أوائل تسعينات القرن التاسع عشر . كما دفع عبد الرحمن باشا اليوسف مبلغ (٢٠٠٠) ل.ت.ذمن أجل تجديد تعيينه أميراً للحج عام (١٨٩٥) . ومن المعروف أن كلا المنصبين يعودان على من يتولاهما بأرباح مالية كبيرة ويعطيان فرصة ذهبية لكسب المحاسيب والأتباع والأنصار " (٥٤) .

وازدياد النشاط التجاري مع الغرب ، وزيادة التدخل الأوربي في شؤون الدولة ، وتأثر البلاد بالأفكار (العلمانية) وظهور طبقة متوسطة مزودة بالمال الذي جنته من المتاجرة مع الغرب خاصة ومزودة بنوع مختلف من التعليم حصلته من المدارس التبشيرية أو من المدارس المتأثرة بأسلوبها ، ساعد بعض العائلات لأن توسع لنفسها مكانا وسط تركيبة العائلات المتنفذة في مدن بلاد الشام . وقد استطاعت هذه العائلات أن تشتري لنفسها المناصب المهمة وأن تلفت إليها الانتباه سواء أكانت هذه العائلات من الأغلبية المسلمة أو من الأقليات المسيحية " فنتيجة الارتباط الوثيق مع المصالح المالية والتجارية الأوربية وماحصلت عليه من حماية وافية وطمأنينة اجتماعية مكنتها من تطوير قواعد قوتها ضمن جماعتها أولا وضمن تركيبة المجتمع المديني ثانيا فقد مُنحت كل من الجماعتين المسيحية واليهودية تمثيلاً أكثر (إنصافا) ضمن مناصب الادارة المحلية وانضم (زعماء) هاتين الجماعتين إلى الكتلة القوية المتمثلة (بالبيروقراطيين)

---

* وقد ذكر الأمير مصطفى الشهابي في كتابه المحاضرات في الاستعمار ، أنه كان يسمع وهو صغير أحاديث تدور حول الوظائف فكان أحدهم يقول : الوظيفة الفلانية راتبها كذا من القروش ولكن (البراني) فيها أضعاف الراتب أو أربعة أمثاله

المسلمين من أصحاب الأراضي (والوجهاء والعلماء) بصفة أعضاء منتخبين لأرفع وأقوى هيئتين علمانيتين في المدينة والولاية وانتخبوا أعضاء في المجلس البلدي وعملوا قضاة في المحكمة التجارية ومحاكم الاستئناف والصلح ... وبالنظر للحماية السياسية والتجارية التي منحت لزعماء المسيحيين من قبل عدة قنصليات أوربية فقد عمل معظمهم تراجمة ... وحتى قناصل [٥٥] . ومن الجدير بالذكر أن تلك المجالس خولت سلطات كثيرة كانت تزداد بازدياد النفوذ الأوربي . ومن هذه السلطات " فرض الضرائب والرسوم الجمركية والإشراف على جمعها ، وتسجيل وتنظيم عمليات بيع الأراضي والموافقة على تعيين صغار الموظفين والإشراف على تجنيد الشرطة والحكم في الدعاوي المدنية ... وقد عارضت هذه المجالس الكثير من الإصلاحات العلمانية التي أصدرتها القسطنطينية " [٥٦] ... " وتجدر الإشارة هنا إلى أن المجالس البلدية في المدن كانت تنتخب فقط من قبل ناخبين يملكون أرضاً ويدفعون ضريبة الملك بمقدار لايقل عن (١٠٠) قرش أي أن عضوية المجالس البلدية كانت وقفاً على كبار ملاك الأراضي فقط " [٥٧] .

ويبدو أن الوجهاء المدينيين التقليديين " لم يرحبوا اجتماعياً بالاندماج الواسع مع العائلات العلمانية الفتية في المدينة " [٥٨] وإن كان محدثو النعمة هؤلاء قد استطاعوا أن يوسعوا لأنفسهم في النهاية مكاناً مرموقاً وسط التركيبة المدينية ، وأن يفرضوا أنفسهم بقوة ثرواتهم وسيطرتهم شبه الكاملة على الحياة الاقتصادية مما اضطر العائلات التقليدية لأن تخطب ود هؤلاء ، وأن تتقرب منهم ، بل وأن تتصاهر معهم ، مع الإشارة إلى أن " مواقع الزعامات الاجتماعية الجديدة في المدينة والمرتبطة بتطور النظام الرأسمالي وإن كانت قد تعززت لم تستطع -- بعد -- أن تنسف نفوذ الأعيان من الاقطاعيين ورجال الدين " [٥٩] ومع ذلك فقد استطاع هؤلاء

احتلال مناصب ووظائف ظلت حكراً على عائلات بعينها لأجيال متعاقبة مما يشير إلى المدى من النفوذ الذي استطاع هؤلاء أن يصلوا اليه بفضل سيطرتهم على مراكز الانتاج المحلي وأهمها الصناعات النسيجية – فقد كان هؤلاء بفضل الأموال التي جنوها من التجارة ، ومن السمسرة ، يمولون الحرفيين المنزليين [٦٠] .. وقد برهنت الأحداث أكثر من مرة أن هؤلاء استطاعوا أن يكتسبوا نفوذاً لدى سواد الناس مماجعل منهم قوة ضبط وربط اجتماعي أكثر فعالية مما كان بمقدور الوجهاء والمثقفين والعلماء أن يقوموا به [٦١] . وبذلك تكون العائلات المدينية التي توارثت الجاه والثروة قد انهكت تماماً أمام مد الطبقة الجديدة ، المكونة أساساً من التجار والبيروقراطيين الجدد . حيث أن العائلات المدينية المذكورة كانت أبعدت نفسها عن احتلال المناصب العليا ، معتمدة على السلطة المحلية التي استطاعت أن تخلقها لنفسها فجاءت العائلات الجديدة لتبعدها حتى عن جيوب السلطة المحلية . وبذلك كادت أن تفقدها أي نفوذ على الاطلاق .

أمّا بالنسبة للحياة الاقتصادية في الأرياف فقد كانت ملحقة إلحاقاً كاملاً باقتصاد المدينة ، وتقع تحت رحمة وسيطرة الوجهاء والأعيان المدينين على اختلاف انتماءاتهم ومشاربهم وفي فترة من الفترات أرادت الدولة العثمانية أن تضعف شوكة هؤلاء الأعيان ، وأن تسلبهم بعض مناطق نفوذهم ، وبعض مصادر ثرائهم وقوتهم، فعمدت إلى إصدار (قانون الأراضي) عام (١٨٥٨) بقصد تشجيع الفلاحين على تسجيل الأراضي باسمهم والاحتفاظ بها . وكانت الدولة تهدف إلى جانب إضعاف نفوذ أعيان المدن ، تأمين مصادر ثابتة لدخل الخزينة، ومنع أية وساطة بين الدولة والفلاحين وهي الوساطة التي كان يمارسها الوجهاء والأعيان والتي كانت تؤثر سلباً على مصالح كل من الدولة والفلاحين على حد سواء . كما أن

الدولـة هدفـت مـن إصـدار ذلـك القـانون إلى إعـادة ترجيـح كفـة السلطة المركزية على حساب السـلطة المحلية الـتي كـان يتمتـع بهـا الأعيان والوجهاء المدينيون ولكن ذلك القانون أخفق إخفاقـاً ذريعـاً في تحقيق أي هدف من الأهداف التي وضع من أجلها وكان إخفاقه سخرية من سخريات الأقدار ، إذا أن الطريقة التي فسر بها ، وطبق عبرها، أتاح الفرصة للوسـطاء الذيـن كـان الهـدف إضعـافهم ، لأن ينطلقوا في عملية اقتناء الأراضي بشكل واسع. . . . . .فقد كان (قانون الأراضي) لعام ١٨٥٨ مبنياً على مقدمتين خاطئتين :

- الأولى : أن الفلاحـين سـيكونون راغبـين في تسـجيل أراضيهـم، وسوف يستطيعون بعد ذلك الاحتفاظ بها .

- الثانيـة : هي أن إدارة (الدفتر خانة – سجل الأراضي) ستتم بصورة فعالة ونزيهة .

غير أن نظام تسجيل الأراضـي المبـني علـى سـندات الملكيـة ، ورسوم التسجيل ، والإحصاء ، أثار فزع الفلاحـين منـذ البدايـة . فقـد ظنـوا (الفلاحـون) أنـه أنشـئ لتسـهيل عمليـة جـني الضرائـب والخدمة العسكرية ، فـتركوا الفوائـد المرجـوة مـن النظـام وسـجلوا أراضيهـم بأسمـاء أفـراد أسـرهم المتوفـين ، وكبـار زعمـاء المدينـة ، والوجهاء الريفيين . فأستطاع عدد مـن الأسـر الدمشـقية القويـة ، من خلال تقديم الوعود للفلاحين بحمايتهم من تدخـل الدولـة ، أن يحصلوا على حقوق شرعية في مساحات كبيرة من الأرض . وحتى عندما كان الفلاحون يرغبون فعلاً بتسجيل أراضيهم بأسمائهم فقـد كانت رسوم التسجيل المطلوبة باهظـة لدرجـة تمنعهـم مـن ذلـك . فعندما كانوا لايستطيعون دفـع الرسـوم كـانت أراضيهـم تـدرج في المزاد العلني من قبل المجلس المحلي أو مجلس الولاية الذي كان بوسـع

أعضائه تدبير عمليات المزاودة . أو أنهم ببساطة يزاودون على جميع المشتركين الآخرين في المزاد فالوجهاء والأعيان المدينيون " قد استخدموا مراكزهم في (المجس المحلي) لتوسيع أراضيهم عن طريق بيع (المالكانات) لأنفسهم ولعائلاتهم عن طريق المزاد العلني . كذلك ظهرت فئة أخرى من التجار والمرابين الذين أثروا حديثاً من جراء قوى التتجير والذين أصبحوا يملكون الأراضي من خلال استغلال رؤوس الأموال الموظفة في أعمال الربا في تلك المناطق وفي حزام الحبوب في حوران " وقد كانت المزاودات على الأراضي صورية بكل معنى الكلمة ، وتنتهي دائماً لصالح العائلات المتنفذة في المدينة . " وقد استخدمت العائلات المالكة للأراضي الأرباح الزراعية لشراء المناصب ومن خلال مناصبها كانت تنعم على الناس أو تنفعهم من خلال الوظائف والعقود ، والوصول إلى الحكومة والحماية منها . وهكذا فقد امتدت شبكة المحسوبية ، وخيم نوع من الاستقرار على المدينة وضواحيها ، قائم على إمكانية الوصول إلى الأشخاص في السلطة (٦٢) .

وهكذا كانت المناصب والوظائف والوجود في بنية السلطة سبيلاً لالتقام المزيد من الأراضي ، كما كانت الأراضي وماتدره من أرباح سبيلاً لشراء المناصب والوظائف . وكان الفلاح هو الضحية دائماً ، إلى جانب ضحية أخرى تتمثل في بعض المحاولات الإصلاحية (العلمانية) التي كانت السلطة العثمانية المركزية تسعى إلى تطبيقها تحت تأثير ظروف مختلفة . فكانت العائلات المدينية تبذل قصارى جهدها لوأد تلك الإصلاحات في المهد .

وكان مما يسهل عملية خداع الفلاح ، ثقته المزعزعة أساساً بالسلطة المركزية إلى الدرجة التي تجعله لايتوقع أي خير يأتي من جهتها ، ووقوعه (الفلاح) تحت السطوة الكاملة لأعيان ووجهاء

المدينة إلى الدرجة التي تجعله يخشى أية مواجهة معهم . وليس قانون الأراضي لعام (١٨٥٨) هو المحاولة الإصلاحية الوحيدة التي استطاع الوسطاء من الأعيان المدينيين الالتفاف عليها ، وإجهاضها وعكس اتجاهها ، بل استطاع هؤلاء أن يلتفوا على كل قانون يمكن أن يحمل في طياته الخير للفلاحين فحين حرّمت الدولة كل أشكال الضرائب على الفلاحين خارج (الميري) الموحدة (أوجد الأعيان والوجهاء تسميات جديدة " السخرة ، المعايدات ، الهدايا ، ضرائب الزواج ، العونة ، بالإضافة إلى البلص ، والقروض ، أو التسليف بفوائد فاحشة وغيرها . وفي أسفل السلم الاجتماعي (الهرم المقاطعجي) يقبع الفلاخ المنتج الذي عليه أن يمول بوسائل بدائية جداً وأرض صخرية قاحلة وغير قابلة للاستصلاح ، سلسلة من المستغلين المقاطعجيين الذين يعيشون طفيليين على حساب القوى الفلاحية المنتجة " (٦٣) . فقد كان وقوع الفلاحين تحت رحمة التجار المرابين من أبشع مايمكن تصوره من الاستغلال ، فقد كان هؤلاء التجار يستغلون حاجة الفلاحين للأموال من أجل دفع الضرائب وغيرها ليفرضوا عليهم شروطاً مجحفة مقابل إقراضهم بعض المال " ففي وقت جمع الضرائب وهو الوقت الذي يكون فيه الفلاح بأمس الحاجة إلى النقد ، يتوجه جيش من التجار ووكلاء التجار الأجانب إلى القرى (ليساعدوا) الفلاح . بتقديم النقد الضروري له ، لقاء رهن محصوله القادم بفائدة قدرها (٣-٥٪) في الشهر ، أو لشراء محصوله كله لقاء ثلثي أو نصف ثمنه . وبهذا يستولي التجار على المحصول بأرخص الأثمان . . . وهكذا يجد الرسمال الأجنبي في القرية المسحوقة باضطهاد الاقطاعيين أفضل تربة لتطوير نشاطه الربوي " (٦٤) .

وقد استمرت هذه الحالة بل وتفاقمت حتى الهزيع الأخير من ليل الحكم العثماني بل إلى مابعد ذلك .

ومن ناحية أخرى كان الفلاحون واقعين تحت رحمة القبائل البدوية القريبة من قراهم ، وقد اضطروا إلى دفع الأتاوات لهؤلاء خوفاً على مزروعاتهم ومحاصيلهم وقد كانت تلك الأتاوات تصل إلى درجة كبيرة من الغبن . بل إن شيوخ القبائل تحولوا في كثير من الحالات إلى مالكين للأراضي الزراعية ، وكانوا يسخرون الفلاحين أو يستغلونهم " فقد ملك زعيم قبيلة (أمارات - عنزة) الشيخ (فهدبك) عقارات قرب كربلاء . وفي منطقة الموصل امتلك شيوخ قبائل (شمر) أراضيهم الخاصة ، التي اشتغل فيها فلاحون أجراء . وكذلك كان لزعماء (الرولا ، وبني صخر) في الولايات السورية . ولقبائل شبه الجزيرة العربية في واحات نجد وجبل شمر أطيان كثيرة"[٦٥] وبهذا شكل شيوخ القبائل وفروعها وزعماء السلالات الغنية المتنفذة طبقة من (الاقطاعيين) البدو تعيش بشكل رئيسي على استغلال السكان المستقرين والقبائل الموالية . وفي حالة خوض هؤلاء معارك ناجحة كان يحصل الشيوخ على نسبة (٢٠٪) من الغنائم . وبلغ من سطوة شيوخ بعض القبائل أن السلطة العثمانية اضطرت لتوقيع الاتفاقيات معهم والتي تعترف لهم من خلالها بالكثير من النفوذ وتهبهم الكثير من الامتيازات . . . مقابل أن تضمن عدم نهبهم للقوافل وعدم تعديهم على المدن والحاميات . . . ومن الجدير بالذكر هنا أن الكثير من ولاة دمشق قد احتفظوا بمناصبهم بسبب اثباتهم المقدرة على ردع القبائل الساكنة على طريق قوافل الحج إلى مكة المكرمة . بل إن بعض هؤلاء الولاة قد لجأ عند عزله من منصبه إلى إغراء تلك القبائل بالهجوم على موكب (الحج الشامي) وذلك لإضعاف هيبة خلفه أمام السلطة العثمانية مما يجبرها على إعادته لمنصب الوالي . . .

ثالثاً – الحياة الثقافية والفكرية

قلنا إن الدولة العثمانية هي ربيبة القوة والفتوحات العسكرية، لذا فقد انحصر همها في نهب خيرات ممتلكاتها ، وضخ ثرواتهـا إلى حيث تنفق على تعزيز القوة العسكرية للدولة ، باعتبارها أداة تسلط وقهر ، وعلى الترف ، والبذخ ، الذي بدأ يغوص فيـه حكـام تلـك الدولة إلى مافوق آذانهم . ولم تكن الدولة على استعداد لإنفاق أية مبالغ من واردات الخزينة علـى شـوون المعرفـة والعلـم ، ولم تحـاول أبداً مسايرة الدول المجاورة لها في أوربـا ، خاصـة في ميـادين التقـدم العلمي والصناعي ...

ولم يكن لدى الأتراك أية ثقافة أو حضارة صالحة لأن تنشـر على الناس ، بل على العكس تماماً أحـاطوا أنفسـهم بمناعـة شـديدة حجبتهم عن الأخذ بمعطيات المدنيـة الحديثـة . ففـي الوقـت الـذي كـانت تتسـابق فيـه الـدول الأوربيـة في مضمـار العلـوم والآداب والعمـران والصناعـات كـانت الدولـة العثمانيـة تبحـث عـن أكـثر الوسائل تعسفاً لنهب المال والغلال من بلاد العرب وسـواها ليتمتـع به غلمان الأتراك في القسطنطينية (٦٦) . وفي الوقـت الـذي كـانت فيه أوربا تصنع نهضتها العلمية والفكريـة ، وتخلّـص منـاهج التعليـم من كل أشكال التخلف ، وتحـرره مـن كـل مـاكـان يكبـل العقـول والنفوس من أفكار بالية ، وتضع المناهج المتمشية مـع روح النهضـة العلمية ، كانت المدارس في بلادنا تتراجع لتقبع على شكل كتـاتيب في الزوايا والتكايا والمساجد وبعض البيوت في أحيـاء المـدن الكبـيرة معتمدة على أريحية وكفاءة بعض (الشـيوخ) . ومـن الطبيعـي أن يكون (المستوى) الفكري في ظل هـذا الوضـع الكئيـب منخفضـاً جداً ، وأن يكـون التعليـم الـذي يقـدم في هـذه الكتـاتيب – سـواء أكانت إسلامية أم مسيحية – منحصراً في النواحـي الضيقـة للعلـوم

الدينية وكان تدريس هذه النواحي نفسها منحطاً في مستواه وضيقـاً في أفقه ... [٦٧] وكان يشرف على كل (كتاب) (شيخ) أو رجل دين يعلم الصبيان مبادئ القراءة والكتابة والأعمال الحسابية الأربعة ويحفّظهم القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبويـة الشريفة والسـنن والشرائع والعقائد الإسلامية (في المناطق الإسـلامية) أمّـا في المنـاطق المسيحية فإلى جـانب مبـادئ القـراءة والكتابـة والحســاب يتعلـم الأطفال بعض الصلوات والأدعيـة والأناشيد الدينيـة . وقـد ذكـر (مارون عبود) بالتفصيل ماكان يتعلمـه الأطفـال علـى يـد الخـوري (تحت السـنديانة) في قريتـه . ونجـد ذلـك في كتابـه (رواد النهضـة الحديثة) .

وقد كان التلاميذ في هذه الكتاتيب يدفعـون أجـوراً أسـبوعية بسيطة جداً (الخميسية) ، ومن الطبيعي أن يكون مستوى التعليم في كل كتـاب يتناسـب مـع المستوى العلمـي لصاحبـه . ففـي بعـض الحالات يكون حظ التلاميذ كبيراً حين يكون (شيخ الكتاب) أكـثر إطلاعاً وأوسع أفقاً وصدراً .

في حين كان الكثير من أصحاب تلك (الكتاتيب) شبه أميين ضيقي الأفق محدودي التفكير . ولم تكن الدراسة في هذه الكتــاتيب محدودة بمدة معينة ، بل كان البعض يتسربون من الكتاب ليسـاعدوا أسرهم في الأعمال الحرفية أو الزراعية بعد أن يتموا القراءة والكتابة أو حتى دون هذا الإلمام . في حين كان يستمر البعض ، وهم الأقل عدداً إلى أن يتموا حفظ القـرآن الكريـم ، حيـث كـانت تقـام لهـم حفلات التخرج (الختم) . وهـي حفـلات مشـهودة ، حيـث يسـير المتخرج في موكـب يشارك فيه شـيخ الكتـاب وإمـام الحـي وزمـلاء المتخرج وهم ينشدون الأناشيد التي تضفي على الاحتفال جـواً مـن البهجة ... وبعد ذلك يمكن أن يتتلمذ المتخرج على بعض علمـاء

(مشايخ) بلده ، ليأخذ من كل واحد منهم مابرع فيه من العلم " اللغة - الحديث - الفقه ... الخ " والتلميذ الذي يبدي موهبة ومقدرة على إتقان علم شيخه يأخذ منه (إجازة) تدل على تمكنه ، وتجيزه بأن يعلم غيره ... هذا بالنسبة للصبيان أمّا البنات فقد كانت لهن (كتاتيب) خاصة تعلّم فيها امرأة تسمى في دمشق (الخوجة) وإن كانت مدارس البنات أقل ، وعدد تلميذاتها أقل ولم يكن بإمكان من تختم القرآن - تحفظه - متابعة التعليم ، إلاّ في حالات نادرة جداً وبجهودها الخاصة . وبصورة عامة كان التعليم في المناطق العربية يتم بجهود فردية دون أي دعم من الدولة وظل الأمر كذلك إلى مابعد منتصف القرن التاسع عشر حين بدأت الحكومة تشعر بمدى ماأحدثته المدارس التبشيرية من آثار ، فافتتحت - كرد فعل عليها - المدارس الأبتدائية في دمشق وحلب وبيروت للبنين والبنات وهي ماكان يعرف بالمدارس الرشدية ، وكانت مدة الدراسة فيها (٦) سنوات والغاية منها تخريج الموظفين للدوائر الحكومية . وبتأثير المدارس التبشيرية والمدارس الرشدية طورت بعض الكتاتيب مناهجها ، وتحولت إلى مايشبه المدرسة ، ومن ذلك مدرسة (الشيخ عيد السفرجلاني بدمشق) وإن كانت مدة الدراسة فيها بقيت دون تحديد . هذا وقد تأسست مدارس أهلية مدة الدراسة فيها (٦) سنوات ومن أشهرها في دمشق مدرسة (الشيخ كامل القصاب) والكلية العلمية الوطنية .

وبعد إعلان الدستور أسست المدارس(السلطانية) وكانت تضم المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية ، وكانت لغة التدريس فيها هي التركية ، وإن افتتحت بعد ذلك مدارس (سلطانية) تدرس باللغة العربية تحت إلحاح النواب العرب في مجلس المبعوثان . ولكن المدارس الحكومية ظلت دون مستوى المدارس التبشيرية ، ولم تستطع استقطاب إلا أعداد قليلة جداً من الطامحين للحصول على

وظيفة ، واحتلال مكان في (البيروقراطية) المتنفذة ، وقد أشار (سليم أفندي سلام) مبعوث بيروت في خطبة له في مجلس المبعوثان بتاريخ (١٤تموز ١٩١٤) إلى الحالة المتردية للمدارس الحكومية خاصة إذا ماقيست بالمدارس التبشيرية : " تكتفي وزارة المعارف بأن تقول عندي مدارس سلطانية كذا ، ومدارس إعدادية كذا ، ولكنها لاتفكر في هذه المدارس .... إنها تعيّن لتدريس اللغة العربية الشريفة أناساً ليست معارفهم بها بأكثر من معارف العوام ، وهي تعين مديرين تبرأ الادارة إلى الله منهم .... كل هذه الأسباب جعلت مدارسنا الرسمية في الانحطاط الذي تعرفونه ، هذه مدرستنا السلطانية في بيروت ، تأسست منذ ثلاثين سنة ، ولايبلغ عدد طلابها مائتي طالب ، في حين أن عدد الطلبة في الكلية الأميريكية ألف طالب ، وفي كلية اليسوعيين في بيروت سبعمائة طالب ، ولعلكم تقولون أن الثقة بمدارس الأجانب هي التي سببت هذا الإقبال عليها ، نعم إنها الثقة ،

ولكن الثقة لاتكتسب من غير جد وعمل ، ولولا رغبة الأهلين في الانتظام بسلك الوظائف لما دخل أحد من أبنائنا مكاتب الدولة وذلك ظاهر للعيان ... أرأيتم إلى الآن متخرجاً من مدارس الحكومة يتعاطى التجارة أو الصناعة أو الزراعة ؟ كلا ثم كلا ، فإن جميع الذين يتعاطونها من خريجي المدارس الأجنبية أو الأهلية ، لا المدارس الرسمية ، يحزنني أن أبلغكم أن مدارسنا الرسمية باتت معامل لصنع الموظفين ، مع أن المدارس لم تنشأ الا لكي تخرّج للوطن رجالاً يعيشون بكدهم وجهدهم ، رجالاً يغنونه بثروة عقولهم ، تلك حال مدارس الصبيان في بلادنا العربية ، أمّا مدارس البنات فماذا تقول فيها ، ماذا تريدون مني أن أقول يانواب الأمة ؟ إنها لفي الدرك الأسفل ... إن مدرسة البنات العثمانية في بيروت، لم تتخرج فيها منذ إنشائها إلى الآن تلميذة واحدة جديرة

بالاحترام العلمي ، بخلاف مدارس البنات الأجنبية ... وإنه ليحزننا جداً أن تهمل وزارة المعارف واجباتها ولاسيما في سورية حيث المصلحة السياسية تقضي عليها بمزاحمة الأجانب ..." (٦٨) وقد أسهبت عن عمد في اقتطاف مقاطع كبيرة من هذا الخطاب الهام الذي يصور أبلغ تصوير حالة التعليم الرسمي حتى قبيل انهيار الدولة العثمانية .

هذا وإلى جانب التعليم الرسمي ، والتعليم الأهلي المحلي كان ثمة تعليم تمارسه الإرساليات الدينية التبشيرية وكان هذا التعليم يقوم على أسس أوربية بكامله تقريباً . (٦٩) وكان لهذا التعليم الفضل في إدخال التعليم العصري إلى المناطق العربية ، وإدخال تعليم اللغات والعلوم الطبيعية . كما أتاح المجال للاطلاع على الأفكار والآراء الأوربية والاطلاع على آخر منجزات الأوربيين في شتى المجالات(٧٠) مما جعل كل باحث لهذه الفترة يجعل من المدارس التبشيرية أحد أهم أسباب اليقظة العربية . وإذا كنا لانحب أن نبخس الناس أشياءهم ، ولانستطيع تطيين عين الشمس - كما يقولون - ولاأن ننكر الأفضال التي ربما يكون قد أسبغها هذا النوع من التعليم على بلادنا ، إلاّ أننا لاننوي أن نتغافل عن الوجه الآخر لهذا التعليم ، ولاأن نؤخذ بالمظاهر البراقة ، فنعطي هذا النشاط التبشيري فوق مايستحق كما فعل البعض حين قال : " لما كان لابد من توفير كل حق لأهله ، وجب أن نقول أن الأمريكيين هم الذين بدؤوا بتنوير آفاق سورية بالمعارف العصرية ، بتأسيس الكلية الشهيرة في بيروت (الجامعة الأمريكية) . وإنه في هذه المدرسة جلس للتعليم أساطين حكمة وأعلام إفادة ، لم تبرح سورية مدينة لهم إلى الأبد "(٧١) .

نقول إننا لاننوي أن نتجاهل الوجه الآخر للتعليم التبشيري فقد كان بمثابة غزو فكري ، مهد ورافق الغزو الاقتصادي

والعسكري الأوربي " فكما حدث غزو أوربي أثر في التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي فقد حدث غزو ثقافي أوربي كذلك " (٧٢) فقد كانت الإرساليات الدينية التي بدأت نشاطها في البلدان العربية الواقعة في آسيا الأمامية منذ نهاية القرن السادس عشر ،أداة هامة من أدوات التوسع السياسي والأيديولوجي للدول الأوربية " (٧٣) . وإذا كانت الإرساليات الدينية قد بدأت عملها منذ ذلك الوقت المبكر ، " إلاّ أنها قد نشطت بشكل ملحوظ بعد عام (١٨٢٠) حين تأسس في بيروت (مركز الإرساليات الكنيسة المشيخية البروتستانتية الأمريكية) ، وعام (١١٨٣٦) حين أعيد تشكيل الإرسالية اليسوعية مجدداً " (٧٤) وقد حدث نوع من التنافس بين البروتستانت ، والجزويت الكاثوليك في مجال افتتاح المدارس والمعاهد (الكليات) " حيث كان اليسوعيون والأمريكان قادة حركة التعليم إذ بلغ عدد مدارس الأمريكان عام /١٨٨٢/ نحواً من (١٣٠) مدرسة متفرقة في سوريا ولبنان ، وكانت مدارس اليسوعيين ضعف هذا العدد عام ١٩٠٠ " (٧٥) وفي هذه الأثناء ازدادت حركة الإرساليات ،ولم تعد مقتصرة على المؤسسات الأمريكية والفرنسية والبريطانية ، فقد فتحت الأبواب للبعثات الروسية والايطالية والالمانية ،وكانت كل فئة تخفي وراء عملها التبشيري والثقافي مطامع سياسية . وكانت النتيجة أن احتضنت كل مؤسسة طائفة معينة ، تشاركها مذهبها ، فنفر منها المسلمون لصفتها التبشيرية بصورة خاصة وكان ذلك من العوامل التي أثارت التعصب " (٧٦) . وقد حاولت تلك الارساليات أن تنفي عن نفسها الاتهام بأنها أداة بيد الدول الأوربية ، وحاولت أن تظهر بمظهر المستقل عن أية تبعية . ولكن كان لايخفى " أن الدول الحامية لهذه أو تلك من الارساليات الدينية تقدم لها الدعم المادي والسياسي الواسع . فقد تمتعت إرساليات كثيرة إلى جانب الأموال

التي تأتيها من مصادر خاصة تمولها كبريات الشركات الاحتكارية ، بإعانات من عدد من الحكومات " (٧٧) فكانت هذه الإرساليات المستقلة شكلاً ، مرتبطة إرتباطاً كلياً بالدول الحامية لها ، وتعمل بنشاط لتنفيذ توجيهات حكوماتها " (٧٨) . فقد كان للتعليم الذي مارسته البعثات التبشيرية ، إلى جانب الوجه الإيجابي الذي تمثل كما ذكرنا بالمناهج الحديثة والعلوم العصرية والاهتمام بتعليم الاناث ، وجهه السلبي المقيت حيث وضع في خدمة السياسات الاستعمارية الأوربية ، ومشاريعها التوسعية ؛كما أنه حاول أن يعمق الخلافات بين الطوائف فقد " كانت السياسة الرسمية للإرساليات الدينية في حقل التعليم موضوعة في خدمة المصالح السياسية للدول الأوربية فقد كانت المؤسسات التعليمية للإرساليات الدينية تغرس بإلحاح وعناد فكرة التزلف لدول أوربية معينة ،والتعاطف السياسي معها وقد أشار (أمين الريحاني) الذي تلقى تعليمه في إحدى المدارس اليسوعية إلى أن الأمة الفرنسية عبارة عن طاووس ذي ريش براق ،فردت مدارسها ذيلها الطاووسي في كل لبنان ،غارسة فينا فكرة أن فرنسا هي أعظم أمة على الأرض ، أنبل أمة ، أغنى أمة ، أكثر الأمم علماً ،وأنها قلعة الحضارة وعاصمة النور " (٧٩) . وهكذا فكثيراً ماكانت الإرساليات الدينية تصبح قناعاً (من أجل التجسس السياسي للدول الكبرى . وقد اشتهر في هذا الخصوص نشاط المبشر الكاثوليكي (بالغريف) الذي تفقد كعميل لنابليون الثالث أواسط وشرقي شبه الجزيرة العربية"(٨٠) ومن معالم الوجه السلبي المقيت لتعليم الارساليات ، غرس روح التعصب الطائفي ، مما جعل هذه المدارس حكراً على أبناء طوائف معينة ، مما أبعد المسلمين عن هذه المدارس . إذ " سادت مدارس الارساليات الدينية روح التعصب الديني . وإثارة البغضاء لأتباع الطوائف المغايرة " (٨١) وقد شكا (سليم البستاني)

في (مجلة الجنان) عدد ٣١ آب عام ١٨٧٦ من أن المدارس التبشيرية المختلفة ذات اتجاه استعماري ،وأن فائدتها انحصرت في المسيحيين دون المسلمين . وظل هذا الأمر سارياً حتى سنوات متأخرة ، فقد أوردت نشرة (الطهارة والمحبة) التي كانت تصادرها بشكل غير دوري الكلية الإنجيلية الوطنية خمص في أحد أعدادها في عام (١٩١٠) أسماء الطلاب الدارسين فيها في ذلك العام في كل الصفوف ، ولم يكن من بين هؤلاء جميعاً إلا(طالب واحد) من غير أتباع المسيحية ، وقلة من الطلاب من أتباع المذاهب المسيحية الأخرى غير المذهب البروتستانتي ، الذي كان منه غالبية الطلاب . وقد أثار هذا الوجه السلبي لتعليم الارساليات التبشيرية غضب كثير من متنوري الأمة فهذا (جبران خليل جبران) يقول : " كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل للتهم خبز الصدقة ، لأننا جياع – متضورون وقد أحياناً ذلك الخبز ، ولما أحيانا أماتنا ، أحيانا لأنه أيقظ جميع مداركنا ، ونبه عقولنا قليلا ، وأماتنا لأنه فرق كلمتنا ، وأضعف وحدتنا ، وقطع روابطنا ، وأبعد مابين طوائفنا ، حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة ، مختلفة الأذواق ، متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تشد في حبل إحدى الأمم الغربية ، وترفع لواءها ، وتترنم بمحاسنها وأمجادها " (٨٢) .

في ذلك الجو المحموم من الصراع الفكري والثقافي الذي كان يتنافس على عقول الناشئة ليشكلها وفق متطلبات المصالح الاستعمارية الأوربية ، ويجعلها نسخة مكررة ومشوهة ... كان لابد أن تهب الجماعات الوطنية لاسيما تلك التي أبعدت عن هذا التنظيم ، أو أبعدت نفسها عنه حفاظاً على قيمها ، وقوميتها وكنوع من الدفاع الفطري والغريزي عن الذات ، من أن تبحث عن أماكن لتعليم أبنائها ، خاصة وأنها يئست من جهود الدولة في

هذا المضمار . فافتتحت المدارس الأهلية في بيروت ودمشق وحلب وسواها ، ومن (المدارس الأهلية في لبنان ماأنشأته جمعية (المقاصد الخيرية) الإسلامية في بيروت وجمعية (زهرة الإحسان) لطائفة الروم الارثوذكس و (جمعية المعارف) الدرزية وجمعية (يقظة الفتاة العربية) . . . " (٨٣) .

وكان (الزهراوي) في خضم من هذا الصراع الثقافي والفكري ،يريد لأبناء وطنه أن يتزودوا بكل علم نافع ، أيا كان مصدره ، وإن كان لايخفي شكه في المطامع الأوربية التي تتخفى تحت ستائر ناعمة كما سبق وذكرنا . وهو في إحدى خطبه وموضوعها (الأفراد والجماعات) يحث خاصة على العناية بتعليم البنات لأن "الأم هي المربية الأولى فيجب أن يتعلمن (البنات) تدبير المنزل وأمور بيتهن ،ولست أدري لماذا لايعلمونهن قواعد اللغة العربية أيضاً ،وتاريخنا المجيد ،والسيرة النبوية كما يجب وكما ينبغي ،(ويتابع وكأنه يرد على المناهج التبشيرية) أمّا تعليمهن لغات الأجانب فلا أجد له معنى " (٨٤) .

هذا بالنسبة للتعليم أمّا مصادر الثقافة والفكر الأخرى فقد تمثلت في المطبوعات (الكتب والصحف) . والكتب إمّا أنها من كتب العلوم اللغوية والدينية ، أو أنها من الكتب التي حاول بعض أعلام النهضة إحياءها من أمهات كتب التراث ، أو من الكتب المترجمة ، إمّا إلى العربية ، وإما إلى التركية . وقد استطاع المتنورون من رجالات النهضة أن يطلعوا على الكثير من الكتب المترجمة ، وكان من أهم مالفت انتباههم التأكيد على الحرية الفردية ، وحقوق المواطن ، وضرورة تقييد سلطة الحكام . وكلها كما لايخفى من أفكار عصر الأنوار الأوربي لاسيما (مونتسكيو) خاصة في كتابه (روح القوانين) ولما كان من غير المعتاد ـ آنذاك ـ أن يشير

الكاتب إلى مصادر أفكاره ، ولما كان كل رجال النهضة قد اطلعوا - تقريباً - على نفس المصادر فإننا نجد هذا التشابه الكبير بين أفكارهم . . . وقد استطاع رجال من أمثال الطهطاوي والتونسي والأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والكواكبي والزهراوي أن يجمعوا بين العلوم والثقافة العربية وبين المهم من الأفكار السياسية والاجتماعية الأوربية ، وحاولوا أن يزيلوا من العقول أية أفكار تظن أن لا تلاقي بين ما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية ، وبين ما أنتجته الحضارة الغربية . وكان عملهم بمثابة التوليف الضروري لقيام نهضة فكرية عربية حديثة . والى جانب هؤلاء كان عدد من المتغربين الذين لم يرشفوا من التراث العربي ولاقطرة بل اقتصرت معرفتهم على ماتلقوه من أساتذتهم في المدارس التبشيرية ، وعلى ماكتبه المستشرقون حول الحضارة العربية ، لذلك فهم لايرون في التراث العربي الا الجهل والجمود والتعصب والتخلف . في حين كانت هناك فئة ثالثة اقتصر اطلاعها على بعض الكتب التراثية ذات الأفق الضيق،لذلك فهم لايرون في ثقافة الغرب وعلمه وأفكاره إلاّ المروق والزندقة والكفر . . .

أمّا بالنسبة للصحافة ، فعلى الرغم من بعض المبادرات الصحفية المبكرة والرائدة ، فإن هذه الوسيلة لتحصيل المعرفة والاطلاع هي مما اقتبسه العرب عن الأوربيين . وقد كانت في كثير من الحالات ساذجة، يمارسها أناس لاعلاقة لهم بالعلم والمعرفة ، فجاءت صحفهم هزيلة مضحكة ركيكة ، لاتستحق الاشارة إليها إلا لمجرد وجودها أو بالأحرى سبقها إلى الوجود . أمّا الصحف المهمة والجادة فقد تأخرت بالظهور إلى مابعد منتصف القرن التاسع عشر وأهمها (الجوائب) لأحمد فارس الشدياق و (نفير سورية) للمعلم بطرس البستاني و (ثمرات الفنون) لمجموعة من الأدباء المسلمين في بيروت و (لسان الحال) لخليل سركيس وأهم

المجلات (المقتطف) ليعقوب صروف وزملائه ، ومجلة (المشرق) للأب لويس شيخو ، وبعض الصحف والمجالات الأخرى في دمشق وحلب . وقد أدرك رجالات عصر النهضة أهمية الصحافة في بث روح الإصلاح وتنبيه المواطنين إلى ماأضاعوه من حقوق ، ومحاولة خلق (روح عمومية) واعية ، ورأي عام مستنير ، خاصة بعد أن لمسوا أهمية هذه الصحف وأهمية الدور الذي تلعبه على ساحة العمل السياسي في الدول الأوربية ، وكيف أنها قد تحولت إلى (سلطة ثالثة) ، وكيف أن حكام تلك الدول يحسبون لها كل حساب ، لذلك فقد سارع المتنورون من أبناء العروبة إلى تأسيس الصحف التيى تدرك أبعاد الدور الذي عليها أن تمارسه ، مع الارتفاع بمستواها التقني وأسلوب تحريرها عن تلك الرطانة والسذاجة . فكانت (النبراس والمفيد) في بيروت، وكانت (الاعتدال) في حلب ، وكانت (المقتبس) في دمشق، وكانت (الحضارة والمدنية) في الأستانة ،وكانت من قبل (العروة الوثقى) في باريس ...

وخلاصة القول :

أن تمسك كثير من المتنورين العرب بالعثمانية – ومنهم الزهراوي – لم يكن بدوافع دينية بل كان ذلك هو الملاذ والبديل المتاح في وجه الأطماع الأوربية التي بدأت تكشف عن أهدافها بشكل سافر . وقد بدا جلياً أن انهيار الدولة العثمانية لم يكن يعني شيئاً أكثر من سقوط الوطن العربي في براثن الاستعمار الأوربي فقد كان التمسك بالعثمانية اختياراً لأهون الشرين كما قال (مصطفى الشهابي) .

وقد كانت الأقاليم العربية تعاني من تخلف شديد اجتماعياً وإقتصادياً وثقافياً سببه تقصير الدولة – العثمانية – من جهة ،

وضغوط التغلغل الأوربي من جهة ثانية ،فقد انحدر الانتاج المحلي أمام المنافسة القوية وغير المتكافئة التي مارستها الصناعة الأوربية الناشئة ،عبر سماسرتها ووكلائها ،وعبر تمتعها بالتسهيلات التي وفرها لها نظام الامتيازات . وتراجعت الزراعة نتيجة الحالة المتردية للفلاح الذي عانى من ضغوط الدولة والأعيان والمرابين وملتزمي الضرائب والسماسرة لاسيما بعد تتجير الزراعة وربطها بالصناعة الأوربية .

■

هوامش الفصل الأول :

١ – د. فهمي جدعان ،أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث ، (بيروت، الموسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩) ، ص١٩.

٢ – مصطفى الشهابي ، محاضرات في الإستعمار ، (القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٧) ، الجزء الثاني ، ص١٨.

٣ – د. منير موسى ، "محب الدين الخطيب" ، بحث مقدم للسوتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، (دمشق ، وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٨) ، الجزء الثاني ، ص ١١٥ – ١١٦.

٤ – مصطفى الشهابي ، مصدر سابق ، ص٥٠.

٥ – انظر ، د. محمد عمارة ، فجر اليقظة العربية ، (بيروت ، دار الوحدة ، ١٩٨١)، ثلاثة أجزاء .

٦ – شكيب أرسلان ، تاريخ ابن خلدون ملحق الجزء الأول ، ص ٣٤١.

٧ – د. هاشم ياغي ، ملامح المجتمع اللبناني الحديث ، (بيروت ، دار بيروت ، ١٩٦٤) ص٤٤.

٨ – ل.ن. كوتلوف ، تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي ، ترجمة سعيد أحمد ، (دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٨١) ، ص١٧ – ١٨.

٩ – المصدر السابق ، ص١٨.

١٠ – المصدر السابق ، ص١٥.

١١ – المصدر السابق ، ص١٦٥.

١٢ – انظر أحمد حلمي العلاف ، دمشق في مطلع القرن العشرين ، (دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٧٦)، انظر ٢٠ ومابعدها.

١٣ – انظر ، المصدر السابق .

١٤ – انظر ، المصدر السابق .

١٥ – فيليب شكري خوري ، "طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق ١٨٦٠ – ١٩٠٨" ، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام .

١٦ – عبد الحميد الزهراوي ، "النظار" ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٦٧ ، ٢٠ تموز ١٩١١.

١٧ - د. وجيه كوثراني ، بلاد الشام السكان . الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، قراءة في الوثائق ، (بيروت ، معهد الانماء العربي ، ١٩٨٠) ، ص٦١.

١٨ - عبد الحميد الزهراوي ، "بعد اربع سنين ، سقوط استبداد ثان" ، جريدة الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١٢٠ ، ٢٥ تموز ١٩١٢.

١٩ - عبد الحميد الزهراوي ، "أخبار العالم أو السياسة الحاضرة" ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٩٣ ، ١٨ كانون الثاني ١٩١٢.

٢٠ - عبد الحميد الزهراوي ، "عهد جديد في الاتفاقيات" جريدة الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١١٩، ١٨ تموز ١٩١٢.

٢١ - عبد الحميد الزهراوي ، المصدر السابق .

٢٢ - عبد الحميد الزهراوي ، "حول الصلح" جريدة الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١١٥ ، ٢٠ حزيران ١٩١٢.

٢٣ - عبد الحميد الزهراوي ، "أخبار العالم أو السياسة الحاضرة" ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية العدد ٩٣ ، ١٨ كانون الثاني ١٩١٢.

٢٤ - د. بدر الدين السباعي ، أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية (١٨٥٠ - ١٩٥٨) ، (دمشق دار الجماهير ، ١٩٦٧) ، ص١٨.

٢٥ - د. هاشم باغي ، ملامح المجتمع اللبناني الحديث ، (بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٤) ،ص ٧٢.

٢٦ - د. بدر الدين السباعي ، مصدر سابق . ص٧-٨.

٢٧ - انظر ل.ن. كوتلوف ، مصدر سابق ، ص ١٩٤،١٩٥.

٢٨ - د. بدر الدين السباعي ، مصدر سابق ، ص ١٢ نقلاً عن آخرين .

٢٩ - ل.ن. كوتلوف ، مصدر سابق ، ص١٧٤.

٣٠ -د.بدر الدين السباعي ، مصدر سابق ، ص١٥.

٣١ - فيليب شكري خوري ، مصدر سابق ، الجزء الثاني ، ص٤٠٣.

٣٢ - فيليب شكري خوري ، مصدر سابق ، الجزء الثاني ، ص٤٥١.

٣٣ - فيليب شكري خوري ، مصدر سابق ، الجزء الثاني ، ص٤٧٥.

٣٤ - د. عبد الله حنا ، "الحركات العامة ...." بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، (دمشق ، وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٨) ، الجزء الثاني ، ص٥١٦.

٣٥ – د. عبد الله حنا ، مصدر سابق ، ص٥١٢ .
٣٦ – د. وجيه كوثراني ، وثائق المؤتمر العربي الأول ١٩١٣ ، ...(.بيروت ، دار الحداثة ، ١٩٨٠) ، ص٣٣ .
٣٧ – د. عبد الله حنا ، مصدر سابق ، ص٥١٢ .
٣٨ – د. وجيه كوثراني ، المصدر السابق ، ص ٣٤ .
٣٩ – د. وجيه كوثراني ، المصدر السابق ، ص٣٤ .
٤٠ – د. عبد الله حنا ، مصدر سابق ، ص٥٤١ .
٤١ – د. بدر الدين السباعي ، مصدر سابق ، ص٩ .
٤٢ – فيليب شكري خوري ، مصدر سابق ، ص٤٥١ .
٤٣ – ل.ن. كوتلوف ، مصدر سابق ، ص٢٩٠ .
٤٤ – انظر : د. هاشم ياغي ، مصدر سابق ، ص ٧٢ – ٧٥ .
٤٥ – انظر : محمد كرد علي ، خطط الشام ، (دمشق ، مكتبة النوري ، ١٩٨٣) ، خاصة الجزء الرابع .
٤٦ – د. بدر الدين السباعي ، مصدر سابق ...، ص١٣ .
٤٧ – عبد الحميد الزهراوي ، "اليوم وبعد اليوم" جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٨٥ ، ٢٣ تشرين الثاني ١٩١١ .
٤٨ – عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الحضارة ، السنة الأولى ، العدد ١٤ .
٤٩ – د. عبد الله حنا ، مصدر سابق ،
٥٠ – انظر : أحمد حلمي العلاّف ، دمشق في مطلع القرن العشرين .
٥١ – د. عبد الله حنا ، تحركات العامة ...، ص٥٢٧ .
٥٢ – د. عبد الله حنا ، جريدة الثـــورة ، العدد ٦٨٨١ ، تاريخ ٨/٩/١٩٨٥ .
٥٣ – د. هاشم ياغي ، ملامح المجتمع اللبناني الحديث ..، ص٤٣ .
٥٤ – انظر فيليب شكري خوري ، مصدر سابق .

٥٥ – انظر فيليب شكري خوري ، مصدر سابق ، ص٤٧٥ ومابعدها .
٥٦ – انظر فيليب شكري خوري ، مصدر سابق ، ص٤٤٥ .
٥٧ – ل.ن. كوتلوف ، مصدر سابق ، ص١٦٦–١٦٧ .
٥٨ – فيليب شكري خوري ، مصدر سابق ، ص٤٤٧ .
٥٩ – ل.ن. كوتلوف ، مصدر سابق ، ص١٦٩ .
٦٠ – ل.ن. كوتلوف ، مصدر سابق ، ص١٦٩ .

٦١ – انظر : فيليب شكري خوري ، مصدر سابق ، ص٤٤١ .

٦٢ – فيليب شكري خوري ، مصدر سابق ص٤٤٧ .

٦٣ – د . مسعود ضاهر " اشكاليات نظرية لدراسة التطور التاريخي للمسألة الطائفية في لبنان " بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، (دمشق ، وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٨) ، الجزء الثاني ، ص١٩١ .

٦٤ – د . بدر الدين السباعي ، مصدر سابق ، ص١٩–٢٠ .

٦٥ – ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص٩٤ .

٦٦ – انظر : مصطفى الشهابي ، محاضرات في الإستعمار ... ، الجزء الثاني .

٦٧ – انظر : علي حاج بكري ، العقلية العربية بين الحربين (دمشق ، دار الرواد ، دون تاريخ) .

٦٨ – سليم أفندي سلام ، من خطاب في مجلس المبعوثان ألقاه بتاريخ ١٩١٤/٧/٤ .

٦٩ – ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ،ص١٩٩ .

٧٠ – وقد تحفظ ل . ن . كوتلوف حول هذه الناحية فأوضح كيف أن تلك الإرساليات حجبت أعمال ومؤلفات وأفكار الكتاب التقدميين .

٧١ – الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسيني ، ص١٢٦ .

٧٢ – د . هاشم ياغي ، ملامح المجتمع اللبناني ... ، ص١٨ .

٧٣ – ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص١٩٦ .

٧٤ – ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص١٩٦ .

٧٥ – علي حاج بكري ، مصدر سابق ، ص٢٥ .

٧٦ – علي حاج بكري ، مصدر سابق ، ص٢٨ .

٧٧ – ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص١٩٨ .

٧٨ – ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص١٩٩ .

٧٩ – ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص٢٠٠ .

٨٠ – ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص٢٠٢ .

٨١ – ل . ن . كوتلوف ، مصدر سابق ، ص٢٠١ .

٨٢ – جبران خليل جبران ، المجموعة الكاملة ، (بيروت ، مكتبة صادر ، ١٩٥٥) ، المجلد الثالث ، ص٢٤٣ .

٨٣ – د . هاشم ياغي ، مصدر سابق ، ص٩٦ ومابعدها .

٨٤ – عبد الحميد الزهراوي ، "الأفراد والجماعات" ، مجلة الانسانية .

الفصل الثاني

الرجـــــــــل

في فترة عصيبة من أواخر القرن الماضي ، والبلاد مازالت تلملم جراحات الأحداث الأليمة التي عصفت هنا وهناك من أنحاء سورية ، وحيث الأطماع الأوربية لاتكاد تخفي أهدافها ، ورغبتها الجامحة في السيطرة على الوطن العربي ، واقتسام ماكانوا يسمونه (تركيا الأسيوية) وفي عام (١٢٨٨هـ - ١٨٧١م) ولد في مدينة ابن الوليد للسيد محمد شاكر بن ابراهيم الزهراوي ولد ذكر هو الرابع بين أخوته الذكور سماه عبد الحميد ، ربما تيمنا باسم أقوى رجل في الدولة آنذاك . مالبث أن استوى على عرش السلطنة باسم السلطان عبد الحميد الثاني : ولم يكن أحد يتوقع أن يكون الفتى الناشئ عبد الحميد من أعتى مناوئي ذلك السلطان المستبد ، ومن الذين يقوضون عرشه . فقد كان هذا السلطان الطاغية من أمكر وأعتى السلاطين العثمانيين ، وإن كان مكره وعتوه لم يستطيعا شيئاً أمام ثقل التركة التي ورثها ، فوجه مكره وعتوه في الاتجاه الخاطئ تماماً ، فسلط زبانيته على المواطنين ، فلم يرعوا في هؤلاء إلاّ ولاذمة ، وساموهم سوء العذاب ، وأذاقوهم من الظلم ألواناً ، فكان الناس على حد قول الزهراوي بعد ذلك يخشون من الجدران أن تنم عليهم ، ويشكّون في كل أحد قريباً كان أم غريباً .

وأسرة الزهراوي ، بنتهي نسبها إلى الإمام حسين بن علي ، وابن السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء ، وأغلب الظن ، أن نسبة (الزهراوي) مشتقة من اسمها (الزهراء) عليها رضوان ا لله تعالى ورحمته .

وعندما بلغ الزهراوي السادسة من عمره ، وضعه والده في كتّاب (الشيخ ترك) ، حيث تعلم القراءة والكتابة والحساب واللغة التركية على يد صاحب الكتاب الشيخ (مصطفى الترك) . وبعد ذلك نقله أبوه إلى المكتب الرشدي " فأتقن وبرع في دروسه حتى أتمها ، ففاق أقرانه وتقدم رفاقه وأترابه ، وكان في خلال تحصيله موضع الإعجاب بتؤدته وترويه ، وحسن خلقه وتحصيله " (١) .

وبعد أن حصل على شهادة التحصيل من المكتب الرشدي ، بدأ يدرس العلوم المختلفة على رجال العلم في حمص ، فقرأ العربية وعلومها وفنونها المختلفة على ثلة من شيوخ بلده ، وتلقى الفقه الحنفي على يد الشيخ (حسن الخوجه) . وتلقى الحديث والتفسير والعقائد على يد محدث زمانه الشيخ الشهير (عبد الساتر أفندي الأتاسي) ، وقد أجازه شيخه بقراءة الحديث وروايته . وقرأ الأصول والكلام والمعقول على الشيخ (عبد الباقي الأفغاني) .

وكان (عبد الحميد الزهراوي) معروفاً بالاجتهاد والدأب على المطالعة والدرس حتى وصل شأواً قصر عنه أقرانه وزملاؤه .

وفي أوائل العقد الثالث من عمره (١٣٠٨هـ - ١٨٩٠م) سافر إلى الأستانة بقصد السياحة فأقام فيها مدة وجيزة ، سافر منها إلى مصر، حيث نزل ضيفاً على نقيب الأشراف فيها (السيد توفيق البكري) ربما بحكم انتسابه إلى العترة الكريمة . وهناك أتيح له الاتصال بكثير من الأدباء والفضلاء والعلماء ، من رواد (دارة البكري) فكان موضع إعجابهم وتقديرهم وتشجيعهم .

وكان لرحلته هذه ، وما تخللها من مشاهدات ولقاءات ، أثر بالغ في توجهاته على الصعد المختلفة . فقد لمس حاجة البلاد إلى الإصلاح ، وأتيحت له فرصة الاتصال بدعاته ، لاسيما جمعية (حزب) (الاتحادوالترقي) ، وكانت تسمى (جمعية الشورى العثمانية) (*) فتبنى أفكارها ، وأيد توجهاتها ، بدليل أنه ما إن عاد إلى حمص مسقط رأسه حتى بدأ يصدر جريدة (المنير) " التي كان ينشر في كل عدد منها مقالات في الإمامة وشروطها ، وينتقد أعمال الحكومة الجائرة ، منبهاً لها على سوء العاقبة إن دام هذا الجوز والعسف " (٢) . وكان يطبع جريدته على مادة غروية (الجلاتين) على حسابه ،ويرسلها إلى البلدان المختلفة بواسطة البريد، وقد حاربتها السلطات ومنعت تداولها .

وفي عام (١٣١٣هـ) سافر مجدداً إلى الأستانة ، بقصد التجارة هذه المرة ، واتخذ لنفسه متجراً في منطقة (سلطان أوطه لر) . ولأن استعداده لايلائم التجارة ، ثقلت عليه أعباؤها ، فهجرها، وانصرف إلى البحث والتحصيل والاطلاع ، وصار من زوار المكتبات العمومية الدائمين ، حيث عكف على قراءة أغلب كتبها، لاسيما الكتب المترجمة ، التي تبحث في الاجتماع والسياسة والتربية، وقد بدت آثار هذه المطالعات فيما كتبه بعد ذلك ونرجح أنه قد قرأ (مونتسكيو) لاسيما (روح القوانين) و(جان جاك روسو) ، وأنه قد اطّلع على ماترجمه وكتبه كل من (خير الدين التونسي) ، و(رفاعة الطهطاوي) ، لأن روح هؤلاء وأفكارهم ، ماثلة في كتاباته ، وخطاباته ، وإن كان من عادة كتاب ذلك الزمان عدم الإشارة إلى المصادر التي استفادوا منها ، ولعل هذا ما يفسر التشابه الكبير في آراء معظمهم نظراً لوحدة المصادر التي

* وكان من أعضائها الزهراوي ورفيق العظم – حقي العظم –رشيد رضا – محب الدين الخطيب .

أخذوا عنها . وبذلك يكون الزهراوي قد أضاف إلى ماتلقاه في بلده علوماً ذات نكهة أخرى مختلفة . وفي أثناء وجوده بالأستانة ، اتصل به صاحب جريدة (معلومات) التي كانت تصدر هناك ، وكلفه بتحرير القسم العربي من الجريدة . وبذلك أتيحت له فرصة ذهبية للعمل حيث يحب ، إذ أنه كان قد تعلق بالسياسة والصحافة والإصلاح .

فبدأ يحرر المقالات في الأدب والسياسة والإصلاح ، وأهم مايميز كتاباته - كعادته دائماً - الجرأة والصراحة وتغليب العقل والمنطق . ثم حدث أن غضبت الحكومة عليه ، ولم تعد تحتمل انتقاداته فاستغلت حادثة معينة . فأوقفته ثم حاولت استمالته بتعيينه قاضيا لأحد الألوية فلم يقبل ، وبعد أن قضى حوالي الأربعة أشهر في التوقيف ، أرسلته السلطة (مأمور اقامة) (*) . إلى دمشق وأثناء وجوده في الإقامة الجبرية في دمشق الشام ، كتب رسالة في الإمامة ، وبيّن شروطها ، ونشرها في (المقطم) . ورسالة في الفقه والتصوف ، نشرها في (المنار) ثم جمعها في كتاب مستقل . وقد دعا في هذه الرسالة الأخيرة إلى الاجتهاد ،ومحاربة التقليد ،واعتبر الفقه قوانين تصلح لزمانها ومكانها ، وأن لكل قوم أن يوجدوا من القوانين مايناسب زمانهم ومكانهم ، وأنه ليس لهذه القوانين أية قداسة ، إنما هي من عمل الإنسان ، وضعها لتناسب مصالحه ورقيه. وهاجم الصوفية وبيّن خطرها على الدين والوطن ، بأسلوب حاد ، ملؤه التهكم والثورة والجرأة . " ولاشك أن حرارة اللهجة والنقد التي نلمسها في أقوال الزهراوي كانت شديدة الوقع على فقهاء الشام ، ومتصوفته ممن انتشروا انتشاراً واسعاً ، وكان لهم تأثير قوي في الجماهير . وهي إن كانت لاتخلو من بعض الحدة ،

* مأمور اقامة : تعني باصطلاح زماننا (التوقيف السياسي) والاقامة الجبرية .

الا إن هذه الحدة نفسها هي التي كـان ينبغـي أن يتسلـح بهـا رجـل يقوده مصيره نحـو العمـل والفعـل " [٣] . " وقـد كتـب الزهـراوي رسائله الإصلاحية الثلاث . في الفقه والتصوف - وهـو في دمشـق والشام تحت المراقبة السياسية ... وقد كانت هـذه الرسـائل أشـد مما كنا نكتبه في موضوعهـا نقـداً علـى سعة الحريـة هنـا (مصـر) ، وشدة الضغط هنالك . فهـاجت عليـه حملـة العمـائم في دمشـق . وأشد ما أنكروا عليه فيها ، القول بالاجتهاد وبطلان التقليد " [٤] . فقد هـاجت هـذه الرسـالة الجـامدين والحشـوية وكـادوا أن يوقعـوا بالزهراوي ، ويفتكوا به ، حيث أغرو العامة به ، وأثاروهم عليــه ، في خطـب أحــد أيـام الجمعـة في شـهر رمضـان ولم ينقـذه منهـم إلا التصرف السريع الذي قام به الـوالي (نـاظم باشـا) ، حيـث سـارع فجلب الزهراوي ، وأوقفه . أي حبسه حبساً سياسـياً . ثـم عقـد مناظرة بينــه وبـين مـن اتهمـوه بدينـه وإيمانـه ، كـانت حجتـه هـي الظاهرة والدامغة . ولما لم تفلح دعـوى اتهامـه بالزندقـة والارتـداد والمروق من الدين ، أثاروا عليه تهماً سياسية ، وتوجهوا بدعاويهم، إلى العاصمة مباشرة ، لإحراج (ناظم باشا) . وكان رجال السلطنة وزبانيتها ، وراء هذه الاتهامات ، فأرسـل إلى الأستانة ، ولم يكـن سـبب ذلـك التشـديد عليـه ، غـيرة مــن الحكومــة علــى الفقهــاء والصوفية، ولا إرضاء لعصبيــة الحشـوية الجـامدين في الشـام ، وإنمـا سببه الباطن ، أنه كـان قـد نشـر في (المقطـم) مقالـة عـن الخلافـة ، وهذا ماأشار اليه الأمام (محمد عبده) بقولـه " ... ألم يسـمع بـأن رجلاً في بلاد إسلامية غير البلاد المصرية ، كتب مقالاً في الاجتهـاد والتقليد ، وذهـب فيه إلى ماذهب اليه أئمة المسلمين كافـة ، ومقـالاً بيّن فيه رأيه في مذهـب الصوفية ، وقال أنه ليس مما انتفع به الإسلام بل قد يكون مما رزئ به أوما يقرب من هـذا ، وهـو قـول قـال بـه جمهور أهل السنة من قبله . فلمـا طبـع مقالـه في مصـر تحـت اسمـه

هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الأثواب العباعب ، وقالوا أنه مرق من الدين ، أو جاء بالأفك المبين ...... مع أنه لم يقل إلاّ ما يتفق مع أصول الدين ، ولاينكره القارئ أو الكاتب ، ولا الآكل والشارب " (٥) .

وبعد أن وضع في الإقامة الجبرية عدة أشهر ، كان خلالها تحت مراقبة جواسيس السلطة أرسل (مأمور اقامة) إلى بلده (حمص)، عن طريق الأسكندرونة – حلب – حماه – حمص . وخصص له راتب شهري قدره (٥٠٠) قرش بعملة ذلك الزمان .

و لم يستطع الزهراوي الصبر طويلاً على هذه الحال ، وأبت نفسه التواقة إلى الحرية أن تظل رهينة جواسيس أفظاظ جهلة ، ففر هارباً في عام (١٩٠٢م) إلى مصر ، عن طريق (طرابلس) عساه يجد هناك متنفساً لأفكاره وطموحه ، رغم نصيحة الإمام محمد عبده له بعدم المجيئ إلى مصر والبقاء في سورية كما يتبين من نص الرسالة التالية التي أرسلها الامام للزهراوي والتي يتبين منها وجود مراسلات بينهما : " ولدنا الفاضل ، تمنيت لو تمتعت بقربك ، كما قدر لي المتاع بأدبك ، ولكن أحمد الله الذي يرينا ما نختار ، في غير ما يقع عليه الاختيار فأنت حيث أنت ، أنفع ما تكون لقومك ، تجعل لهم حظاً من عمل يومك ، تزحزح عن أبصارهم حجب الغفلة ، وتعظهم بما أوتيت من الحكمة ، وتهيء نفوسهم لقبول الحق إذا أقبل ، وتعدّها لمدافعة الباطل إذا أظل . وأسأل الله أن يشد أزرك ، ويخفظ من ذلك وزرك ، ويرفع بعملك قدرك . وأما صلتنا فصلة آمال وأعمال ، وهي خير صلة ، وأوقفها عند الرحال ، بارك الله بك في أيامك ، ورزقك الخير والسعادة في أعوامك ، والسلام"(٦).

وفي مصر أتيحت له فرصة الاتصال برجالات النهضة والإصلاح من المصريين ، وممن هاجر إلى مصر من أقطار العروبة

هروباً من ظلم وتعسف الدولة العثمانية . ومن بينهم أصدقاء للزهراوي ، ورفاق كفاح سبق واشترك معهم في مواطن كثيرة مثل حلقة الشيخ (طاهر الجزائري) (*) ، وفي مصر ، اتصل به الشيخ (علي يوسف) ، وكلفه أن يكون محرراً في (المؤيد) . فنشر المقالات ذات المواضيع المختلفة ، إلى أن تأسس حزب (الأمة) ، فانتقل للعمل مع أستاذ الجيل (أحمد لطفي السيد) ، محرراً ومصححاً في (الجريدة) حيث تابع نشر المقالات ذات الاهتمامات المختلفة ، والهادفة أصلاً للإصلاح . وبقي في مصر علماً من أعلام الفكر والإصلاح حتى عام (١٩٠٨م) ، حيث أعلن الدستور " فطلبه أخوانه بحمص ليكون مندوباً عنهم في مجلس (المبعوثان) (**) ، فأجابهم حباً بخدمة الأمة والوطن ، فانتخب هو و (خالد أفندي البرازي) مبعوثين عن لواء حماة . فذهب إلى الأستانة ،فكان صوته في المجلس من أعلى الأصوات وأقواها في اقامة الحجة) (٧) .

وهكذا تبدأ صفحة جديدة في حياة الزهراوي وتنطوي صفحة وان كان مايميزه دائماً ثباته على المبدأ ومقاومته لكل أشكال الظلم أيا كان مصدرها .

وفي المجلس كانت له مواقف مشهودة ومشهورة ، تدل على كفاءته ووعيه وصدقه وشجاعته .

---

* كان من الرجال الأوَل في هذه الحلقة علماء مصلحون ومؤلفون معروفون : (جمال الدين القاسمي - عبد الرزاق البيطار - سليم البخاري ...) ثم إلتحق بها عدد كبير ممن كانوا دونهم في السن (رفيق العظم - محمد كرد علي - فارس الخوري - عبد الحميد الزهراوي - شكري العسلي - عبد الوهاب المليحي - عبد الرحمن شهبندر - سليم الجزائري) وقد اشتهروا كلهم فيما بعد .

** المبعوثان : سمي المجلس النيابي العثماني بهذا الاسم لأن كل لواء (محافظة) كان ينتخب مبعوثين اثنين إلى المجلس .

وبعد أن بدا للعيان نكوص جمعية (الاتحاد والترقي) عن المبادئ التي كانت تبشر بها ، حين كانت في المعارضة واستئثارها بكل السلطات ومصادرتها كل الآراء واستبدادها بالأمر من دون الآخرين وتأسيسها الجرائد ، لتكون أبواقاً لها ، لم يجد الزهراوي ، وهو المتمرس بالكفاح من أجل الحرية والعدالة ، بداً من معارضتها، والتصدي لها ، ومناقشتها الحساب فأسس مع أحد أصدقائه (شاكر الحنبلي) جريدة الحضارة الأسبوعية ثم لم يلبث أن استقل بها وحده. وشارك بتأسيس (الحزب الحر المعتدل) ، وحزب (الائتلاف) ، ثم اندمج الحزبان في حزب (الحرية والائتلاف) الذي كان يشغل فيه منصب وكيل الرئيس . وقد كان الزهراوي بحق ، بطل دور الحرية (مرحلة مابعد الدستور) " ولقد يمكن أن يذهب بنا الاعتقاد إلى أن (الروح العربية) الحديثة قد تجسدت في وعي هذا الرجل ،وأن التوتر الأقصى لحركة الفكر العربي الإسلامي الحديث قد وجدت فيه أقوى حامل ، وأصدق عامل ، لقد كان حياة متحفزة متوثبة ، وطاقة واعية متدفقة ، وطموحاً لايعرف الحدود ولا الكلل ، وأملاً يداعب النفس والعقل ، ويتحرق لإدراك الطلبة الكبرى ، التي سقط عندها حيث سقطت ولكن بعظمة ومجد "(٨).

وكان في مقالاته في جريدة الحضارة ، وفي خطبه في المجلس ، وفي المهرجانات والمناسبات المختلفة ، يعتمد على النقاش الهادئ ، والمنطق الرصين ، والتعقل الذي كان يسميه اعتدالاً . وكان زملاؤه يلومونه أحياناً على اعتداله وترويه ، في حين كان الاتحاديون يعجبون من اعتداله ، مع معرفتهم أنه من أشد معارضيهم وأثبتهم ، ولعل ماذكره (مكسيم رودنسون) في إحدى المناسبات ينطبق تمام الانطباق على الزهراوي وذلك حين يقول " فليأخذ على المؤلف بروده الظاهري ، أولئك الذين لايعرفون أن

البرود المقصود هو الدرجة القصوى ، لوجدان عارم الحماسة ، من أجل بلوغ هدفه " (٩) .

وفي فترة عضويته في مجلس (المبعوثان) ، حدث الهجوم الإيطالي على ليبيا ، وسقطت (طرابلس الغرب) بيد الإيطاليين ، فوقف الزهراوي على منبر المجلس ، وألقى خطبة رائعة ، " فهيج الخواطر ، وحرك السواكن ، ثم أجهش بالبكاء ، فقال له بعض الحاضرين من المبعوثين :

لاتبك فإننا سنستردها . فقال : أنا لاأبكي على (طرابلس الغرب) ولكنني أبكي على الروملي وسورية والحجاز والعراق" (١٠) . مما يدل على شفافية تفكيره ،وصدق حدسه ، وتفهمه لمنطق الأحداث التي كان الاتحاديون يوجهونها بتعصبهم ورعونتهم وغفلتهم وتقاعسهم عما كان يدبره الأوربيون وربما بالتآمر معهم . ومما يدل على تفهمه لمنطق الأحداث ، ماجاء في رسالة له إلى صديقه الإمام (محمد رشيد رضا) حيث يقول : " لقد كشفت أوربا آخر ستار من ستر السياسة في المسألة العثمانية وقررت التداخل في سائر شؤونها وانما لايزالون مختلفين بعض الاختلاف في كيفية هذا التداخل وكميته وصورة توزيعه فيما بينهم . . . " (١١) .

وسنجد عند بحثنا في الفكر السياسي عند الزهراوي ذلك المدى من الوعي الذي وصل إليه والذي كان يرغب أن يرتفع إليه كل أبناء وطنه .

---

* وهي مادة تتعلق بتنظيم العلاقة بين مجلس النواب (المبعوثان) ومجلس الوزراء (النظار) وكيفية حل الأمور في حال وقوع الاختلاف بينهما . . . .

** نجح منافسه وصفي الأتاسي .

وعندما تم حل مجلس (المبعوثان) إثر الخلاف الشديد حول المادة /٣٥/ من القانون الأساسي (الدستور)* .

عاد الزهراوي إلى بلده حمص استعداداً للانتخابات القادمة ولكن الحكومة كانت قد أوصت بعدم إعادة انتخابه وجرت الانتخابات في ظروف سيئة دفعت الكثيرين إلى عدم الادلاء بأصواتهم ولم ينجح الزهراوي بطبيعة الحال (**) .

فعاد إلى الأستانة لمتابعة عمله في جريدته ولما رأى شدة اعتماد الاتحاديين على مجلس (المبعوثان) أراد أن يحاربهم بأسلوبهم فشكل حزبه ائتلافاً مع حزب (الأهالي) ،واستطاعوا أن يضموا اليهم الكثير من الضباط والنواب ،وأن يظفروا بالحكومة، ويجبروها على الاستقالة وتشكلت وزارة (مختار باشا) ثم وزارة (كامل باشا) ، وكانتا وزارتين وإن لم تكونا من الاتحاديين إلا أنهما ليستا من الائتلافيين كذلك ،مع أنه كان بإمكانهم تشكيل الحكومة من حزبهم وحزب الأهالي حليفهم ،وربما يكون هذا أحد أخطائهم . ولكن الاتحاديين لم يكونوا ليرضوا عن إبعادهم عن السلطة بسهولة ،وكانوا على استعداد لفعل أي شيء في سبيل العودة إلى الحكم ،وكان كل شيء يدل على أنهم يدبرون أمراً ما ضد الوزارة الائتلافية ،وهذا ماقاله أصدقاء الزهراوي له عندما زارهم في القاهرة (وقد أثبتت الأيام صدق ماذهبوا اليه إذ تبين أن حرب البلقان وهزيمة الدولة فيها كان من فعل الاتحاديين لإحراج الحكومة وإسقاطها ومن ثم العودة إلى الحكم . ولكن الزهراوي اعتقد أن الأمة لن ترضى عن أي تصرف من قبل الاتحاديين ، وأنها ستسقط أي تحرك من قبلهم ،ولم ينزل عند رأي أصدقائه بالبقاء في القاهرة ريثما تمر العاصفة الابدافع الصداقة [١٤] . . ولولا ذلك لبطش به الاتحاديون كما فعلوا بناظر الحربية حين أسقطوا حكومة (كامل باشا) ، مستغلين حرب البلقان التي نشبت أيام وزارة (مختار باشا) ، والهزيمة التي لحقت بالدولة خلالها .

وأثناء حرب البلقان ،تشكل في القاهرة حزب (اللامركزية) ، ولم يدخل هو في هذا الحزب (رغم أن المشهور غير ذلك) ،وسبب عدم انتسابه للحزب أنه كان لا ينوي الإقامة في مصر ......

" إنما رشحه حزب (اللامركزية) لرئاسة المؤتمر العربي (الأول في باريس) لمكانته العلمية والاجتماعية ، وموافقته للحزب في مقاصده الإصلاحية (١٣) . (وسنعود لهذا المؤتمر في مكان آخر من البحث) وبعد مؤتمر باريس وصدور مقرراته حاولت الحكومة العثمانية الالتفات على هذه المقررات فأرسلت مندوبين من قبلها لباريس، ولكنهما عادا خائبين ،ثم عادا مرة أخرى إلى باريس حاملين وعوداً بتنفيذ الإصلاحيات ،وتعيين الزهراوي عضواً في مجلس (الأعيان)(*). وهو الأمر الذي أثار عليه الرأي العام ،مع أنه لم يقبل (المنصب) كما سوف نرى إلاّ إيماناً منه بأنه سيكون أقدر على متابعة تنفيذ القرارات من جهة، وإلا بعد أن تأكد من النوايا الأوربية عامة، والفرنسية خاصة ،تجاه بلده ،وإلا بعد أن خبر دخيلة الكثيرين من أعضاء المؤتمر ،لاسيما بعض أعضاء وفد بيروت كما سيتبين لنا خلال البحث ولم يكن الزهراوي " من أهل الأهواء الذين يجعلون مصلحة الأمة والدولة تبعا للأغراض، وعرضة للعواطف والأحقاد ،بل كان يحب العمل المبني على القواعد المعقولة ،والرغائب المأمولة "، (١٤) وقد كتب إلى صديقه (محمد رشيد رضا)، وإلى مكتب حزب اللامركزية في القاهرة مبرراً سبب قبوله للمنصب فأقره " لأن غرض الحزب الإصلاح لا المشاغبة ولا عداوة الدولة " (١٥) وقد أدى قبوله لمنصب (الأعيان) إلى بلبلة في الرأي العام سببها ظن بعض قصيري النظر ، وبعض المغرضين وبعض

---

* لم يكن الزهراوي الوحيد من رجال الإصلاح الذي عين في مجلس الأعيان بعد مؤتمر باريس كما قد يتبادر للذهن .

الانتهازيين أن الزهراوي ساروراء منافعه الشخصية ،وباع القضية العربية لجلاوزه الاتحاديين ". وكثر القول بأنه تحول عن سيرته التي كان عليها طول عمره ، فأثر منافعه الشخصية على مصلحة أمته العربية ، فتحول ذلك الجمهور الذي كان ينوه به ويصفق له ،إلى الخوض فيه .ولو كان عقل الجمهور يدرك كنه تلك الفضائل التي (وصفناه بها) بحق لما صدق أن مثله يتحول بعد هذه السن إلى ضد ماثبت عليه أول نشأته، وماالذنب على العامة في ذلك وانما الذنب ذنب خواص الأذكياء والمتعلمين الذين سارعوا إلى الخوض فيه فتبعتهم العامة . . . فإن أول نتائج الطعن في مثله – وقل أن يوجد مثله في طهارة سيرته الشخصية والسياسية . هي زوال ثقة الأمة من زعمائها بقياس أنزه الصادقين على أخس المنافقين .وما أولئك الطاعنون إلا حاسد يذم من الزهراوي مايتمنى مثله لنفسه ،أو نفعي ساء ظنه لسوء نيته وفعله ،أو غيور شديد العصبية قليل الروية يبادر إلى إرضاء حميته ولايحسب حساباً لعاقبة قوله وعمله " (١٦) . "ولو كان الزهراوي من طلاب المنافع الشخصية ،لأمكنه أن ينال منها في عهد (عبد الحميد) مananaله من كانوا دونه من أرباب الأفكار ، وحملة الأقلام ، الذين استمالهم السلطان (عبد الحميد) وأعوانه ، وغمروهم بالأموال والرتب وأوسمة الشرف . ولم يكن جهاده القانوني (الدستوري) للاستبداد الدي انقلبت إليه جمعية (الاتحاد والترقي) بعد الدستور ، بأضعف من جهاده للاستبداد الحميدي مع الجمعية في إبان صلاحها ، ومع غير الجمعية أيضاً . . . ولو كان من طلاب المنافع الشخصية ، لنال بمسايرة (الجمعية) منها ، ماكان يعلم أنه لايناله بمعارضتها . وجملة القول : أنه بدأ حياته بخدمة الأمة والدولة ، وثبت على ذلك طول حياته . وإن جل عمله كان مع جمعية (الاتحاد والترقي) فهو بعد تلك المعارضة في زمن المبعوثية، اعتقد أن الدولة صارت بيد الجمعية ، وأنه لايوجد في الأمة حزب

يرجى أن ينتزعها منها ، فلم يبق طريق لخدمة الدولة والأمة إلاّ طريقها .

وهذا الاعتقاد هو الذي حمله على قبول منصب مجلس الأعيان" (١٧) .

وقد كان الزهراوي على وعي تام بذلك طول حياته ، فقد كتب يرد على من يتهم المعارضة - وقد كتب عليه أن يكون دائماً كذلك - بأن معارضتهم ليست إلاوسيلة لنيل المناصب ، فقال : " نقول لهؤلاء أن المناصب والمساند إلى هذه الساعة انما تلتمس بمماشاة آباء المملكة لا بمعارضة أفكارهم ، ومقاومة رجالهم ومحاسيبهم " (١٨) . بل أنه ليسخر من أدعياء الإصلاح ، الذين يربطون بين الإصلاح وبين المناصب ، فإذا جاءت المناصب جاء الإصلاح كما سوف نتعرض لذلك في مكان آخر . ولايعقل أن يكون الذي كتب مثل هذا الكلام ، أثناء وجوده في باريس أو بعيد ذلك ، يكون هو نفسه ضحية له . خاصة وأن سيرته السياسية تكذّب مثل هذا التوجه . ثم إن من أهم أو أكثر الذين أثاروا الشغب حول قبول المنصب كان (حقي العظم) ، وقد أثبتت الأيام سبب شغبه ، إذ كان يعد نفسه ليحسن استقبال الفرنسيين في بلاد الشام ، وقد كافأه الفرنسيون على خدماته .

وقد نشرت مجلة (المنار) رسالة سرية من الزهراوي إلى صديقه (محمد رشيد رضا) ،فيها الكثير من المعلومات التي سنرجع اليها في أماكن أخرى من هذا البحث ، وفيها يحاول الزهراوي أن يبرهن على جدوى قبول المنصب ، لامن دوافع شخصية ، بل من دوافع نضالية - حسب اجتهاده - ويعلق الإمام (محمد رشيد رضا) على ذلك فيقول : " من هذا الكتاب وكتب أخرى ، يعلم رأي الرجل الذي بنى عليه اجتهاده ، ومنه أنه مؤمن بحسن نية الاتحاديين

وتمنيهم الاتفاق مع العرب ، وبهذا كان يحاول إقناعنا • ولم يكن يخفى هذا على الاتحاديين ، ولذلك نجزم بأنهم قتلوه ، لأنه من أنجب نجباء العرب ، لالذنب آخر " (١٩) .

وكلنا يعلم أن التهمة التي أدين بموجبها ، هي وجود برقية حزب اللامركزية ، وفيها إقرار الحزب للزهراوي على قبول منصب الأعيان ، من بين ماوجد من أوراق ووثائق في القنصلية الفرنسية فالذي يصر على اتهام الزهراوي لقبوله منصب الأعيان ، لابد أنه غير مطلع على أن حزب اللامركزية قد وافقه على ذلك ، وأقره بعد أن إقتنع بوجهة نظره ، ولو من باب فسح المجال لتجربة وجهة نظره ، وهو إقرار لم يتم عن طريق الرسائل الشخصية فقط كما ذهب إلى ذلك الدكتور (عبد الكريم غرايبة) في كتابه (العرب والعثمانيون) ، إنما حضر الزهراوي بنفسه إلى مصر ليدافع عن وجهة نظره ، حيث دارت مناقشات طويلة بينه وبين أركان حزب اللامركزية ، لاسيما (محمد رشيد رضا) ، الذي يقول : "إنني لم أكتف بما دار بيني وبينه - قدس الله روحه - من المعاتبات في هذه المسألة ، بل دعوته إلى زيارتنا في القاهرة بمصر ، فأجاب وكنت أعقد معه مجلسين للمناقشة في كل يوم وليلة ، فرأيته بعد ذلك كله معتقداً أن الاتحاديين عازمون على ارضاء العرب ، وأنه يجب مسايرة العقلاء منالهم على ذلك ، وأننا ننال منهم بهذا من الحقوق مالايرجى أن نناله بالسعي مع مجافاتهم • وقد وافقته على بقائه في منصب الأعيان " (٢٠) .

وإذا كان لابد من تعليق أخير حول هذه القضية ، نقول إن قبول الزهراوي للمنصب لم يكن بدافع شخصي ، ولايعتبر نكوصا عن النضال أو تخففاً من أعبائه ، إنما كان نتيجة اجتهاد بناه خاصة على مارآه ولمسه أثناء انعقاد المؤتمر العربي في باريس ، حيث اقتنع

بما لا يقبل الشك أن البعض يعمل باسم الإصلاح ، وبتوجيه من الأوربيين ، على تفكيك الدولة العثمانية وفتح سورية أمام المخططات الفرنسية " إن الدسائس الأجنبية رقيقة ناعمة ، تنفذ في كل منفذ ، وتسري في كل مسرى ، فهي قد تدخل تحت طيات لباس الحق ، وضمن ترقرقات شراب الصدق ، حتى إذا استحكمت في موقعها ، وتمكنت من نفث سمها ، فعلت فعلها ، وأنتجت نتيجتها " (٢١) . لذلك آمن أن أفضل الطرق للوقوف في مواجهة هذه المخططات ، يكمن في إعادة اللحمة بين شعوب الدولة العثمانية ، لاسيما بين الترك والعرب ، على أساس من الإصلاح والعدالة واللامركزية ، وقد ظن أن الاتحاديين يتخلون عن غطرستهم وتعصبهم ، بعد أن بدأت تتكشف المؤامرات الأوربية ، وتعلن عن أهدافها بوضوح . ولكن الزهراوي أخطأ بحسن ظنه بهؤلاء الاتحاديين ، الذين كانوا دائما يقدمون مصلحة حزبهم وجنسهم على كل مصلحة أخرى ، حتى لو كانت مصلحة الدولة نفسها . وكان من المفروض أن يعي الزهراوي هذا الدرس ، وهو السياسي المجرب والمحنك ، خاصة وأن هذا الدرس تكرر أكثر من مرة ، ليس آخرها حرب البلقان .

وفي خضم الحرب العالمية الأولى ، أرسل واحد من أشرس رجال جمعية (الاتحاد والترقي) ، وأكثرهم تعصباً وحقداً على العرب ، ليكون قائداً للجيش الرابع ، والذي مقره دمشق ، هذا الطاغية هو (أحمد جمال باشا) وزير الحربية ، والذي عرف فيما بعد باسم (جمال باشا السفاح) . وقد حاول هذا المتعصب في البداية أن يكسب العرب إلى صفه ، ويستميل رجالاتهم بالوعود البراقة الكاذبة ، فأعلن أنه مؤيد لمطالبهم ، ودعا (تمويها) لقيام تعاون وثيق بين العرب والترك باعتبارهما جناحي الدولة ، وصار يحضر

الاحتفالات ، ويلقي الخطب الحماسية الإصلاحية ، الأمر الذي يذكّر (بنابليون بونابرت) عشية دخوله القاهرة ، وإعلانه اعتناق الإسلام - خداعاً ومكراً - .

ولكن أمور الحرب لم تسر على مايرام بالنسبة لجيوش الدولة العثمانية عامة ، وللجيش الرابع خاصة، لاسيما مايتعلق بفشل حملة السويس (سفر برلك) . حيث جن جنون (أحمد جمال باشا) فراح يبحث عن ضحية يحملها أعباء الهزائم المرة التي مني بها ، ولم يجد أمامه غير العرب بطبيعة الحال . فعاد إلى (دفاتره القديمة) ، ووجد قضية ماكان قد تم اكتشافه عرضا من منشورات ورسائل في مبنى القنصلية الفرنسية بدمشق ، حيث أضمرها في نفسه يومها وادخرها ليوم موعود ، ولما جاء هذا اليوم، نصب المجلس العرفي في (عاليه) ، وقدم إليه رجالات العرب ليواجهوا محكمة صورية ، الحكم معروف فيها سلفاً . وحكم هذا المجلس الصوري على العديد من رجال الإصلاح بالاعدام .

أمّا بالنسبة للزهراوي فقد جلب من العاصمة ليواجه مصيره المحتوم ، وليس له من جريرة إلاّ حبه لأمته العربية ، وإخلاصه للدولة ، وحلمه بأن يصبح للعرب وغيرهم من شعوبها حقوق متساوية ، وهذا أمر لم يكن ليرضى به عتاة العنصريين الأتراك ، فشنق في السادس من أيار عام (١٩١٦م) مع شهداء القافلة الثانية ، بعد أن ألحق اسمه إلحاقاً بهذه القائمة ، ودون أن يقدم للمحاكمة ، وكل ذنبه وجود برقية حزب اللامركزية التي تقره على قبول منصب الأعيان ، ووجود رسالة من أمام اليمن يوصيه فيها بأحد الموظفين الأتراك خيراً ، ضمن ما وجد من أوراق في مقر القنصلية الفرنسية ، وهي كما لايخفى لاتدين ولاتشين الزهراوي من قريب أو من بعيد .

وبذلك يكون شهيدنا قد ختم نضاله بتقديم روحه الطاهرة على مذبح الحرية والكرامة . وقد كان في شنقه عبرة لكل من يعتبر، فلم يغن عنه اعتداله ، ولم يغن عنه أن كفاحه كان بالمنطق والرأي والعقل والحجة ، لأن شانقيه شأنهم شأن كل طاغ ومستبد لايتحمل النقد ولايرضى به . وإذا كان اتبع طريق العقل والمنطق ، فعن إيمان وثقة بعدالة القضية التي يدافع عنها ، وليس عن ضعف أو تراجع .

وقد عرفت الجماهير العربية قيمة الرجل مرة أخرى ، وكان لإعدامه أثر بالغ في النفوس في الشرق والغرب .

فإذا كان الامام (محمد رشيد رضا) يواسي النفس لفقده بأن الكثير من أترابه قد ضحوا معه ، فإن العرب في المهاجر ، قد أقاموا حفلات التأبين للإشادة بذكره وفضله وفكره وإخلاصه.. ولعل من الغريب والطريف أن نذكر هنا أن السيد (راشد نداف) المهاجر الحمصي ، والذي اشتهر باسم (جورج أطلس) ، وزوجه الخطيبة الأديبة (سلوى سلامة) ، وكانا متيني الصلة بالشهيد الفقيد ، عرفاه عن كثب ، واقتبسا من جذوة أفكاره الثائرة ، قد أصدرا بموازرة كبار الجالية في (سان باولو) ، جريدة أسبوعية باسم (الزهراوي) ، " أوقفاها على نشر مختارات من خطب الزهراوي الشهيد ، ومقالاته وآثاره وسواها ، وتراجم رفاقه في الاستشهاد ، إلى جانب مجموعة من آراء الأدباء والسياسيين في شهيد العروبة الكبير ، وقد عاشت هذه الجريدة عمراً مساوياً لجريدة الحضارة "[٢٢] . ولانعرف حفلة تأبينية امتدت على مساحة سنوات ، مثلما أبنت جريدة (الزهراوي) شهيدنا . وظلت سيرة الرجل ، وصورته حية في أذهان (الحمامصة) المغتربين ، وعندما تأسس النادي الحمصي في (سان باولو) عام (١٩٢١م) كانت صورة الشهيد العظيم

(الزهراوي) والى جانبه صورة تلميذه ورفيق كفاحه (رفيق رزق سلوم) تملآن بهو الاستقبال في مبنى النادي .

ومن نافلة القول بأن الأحكام التي صدرت عن ديوان (عاليه) العرفي باطلة شكلاً ومضموناً . باطلة شكلاً لأن (أحمد جمال باشا) نفذ أحكام الإعدام قبل أن ترسل إلى العاصمة لتصدر بشأنها إرادة سلطانية ، ولأن الأحكام صدرت بشأن أعمال تعود إلى ماقبل الاتفاق على الشؤون العربية بين الدولة والمتهمين بالذات .

وباطلة مضموناً لأنها جائرة ، ولاتستند إلى أسس قانونية مقنعة ، فهذا (علي فؤاد أردن) رئيس أركان حرب (أحمد جمال باشا) يكتب في مذكراته مانصه : " جاء في شهر نيسان المقدم (شكري بك) رئيس ديوان الحرب (بعاليه) وأخبرني أن محاكمة المتهمين قد انتهت ، وأن هيئة الديوان كونت فكرة صحيحة عن القضية ، وهي مقتنعة بأن عدد الذين يمكن الحكم عليهم بالإعدام لايتجاوز الثلاثة أو الأربعة على أكثر تقدير .

... ويكتب بعد ذلك كيف أن (أحمد جمال باشا) كتب على لائحة الحكم المقترحة إعدام إعدام ... ولما قال له رئيس أركانه ، ياباشا أرجوك فكر بالتاريخ صاح به : التاريخ .. فليتحطم التاريخ على رأسك " (٢٣) .

ثم إن ديوان الحرب (بعاليه) قد اعتمد على الوشايات والاعترافات والوثائق ،وأهم هذه الوثائق ، المنشورات وأوراق حزب اللامركزية ورسائل وأوراق أخرى صودرت من مبنى القنصلية الفرنسية بدمشق وليس في هذه الوثائق كما سبق وذكرنا مايتصل بالزهراوي (عضو مجلس الأعيان) إلا اثنتين : برقية أرسلها له حزب اللامركزية يفوضه فيها بقبول منصب الأعيان وهذا نصها: " قرر حزبنا باتفاق الآراء قبولكم لعضوية الأعيان واعتمد

الحزب عليكم بأن تكونوا واسطته لدى الحكومة لأجل المطالب العربية الأخرى " والبرقية موقعة باسم (رفيق العظم) .

والوثيقة الثانية كتاب توصية ورد من الإمام (يحيى حميد الدين) من أجل مساعدة أحد موظفي الترك .

بل لعل الأدهى والأمر فيما يتعلق بالزهراوي أن اسمه لم يرد في البلاغ الذي أذاعه (أحمد جمال باشا) عن محاكمة القافلة الثانية ، ولم يقدم للتحقيق ، ولم يحاكم ، وانما سيق مع الذين سيقوا مساء يوم الخامس من أيار عام (١٩١٦م) ، وأعدم في الصباح ، في ساحة المرجة بدمشق ، وبعد ذلك تداركوا البرقية والكتاب ، وأضافوا اسمه إلى لائحة المتهمين والمحكومين [٢٤] .

وهكذا فقد كانت المحاكمة الصورية التي نصبت في (عاليه) مجرد وسيلة دنيئة لاغتيال المثقفين والمستنيرين العرب ، وللقضاء على فكرة القومية العربية في المهد ، قبل أن يشتد عودها ، وتتمرس أكثر بأساليب الكفاح .

بل أن الظن ليذهب بالمرء إلى أن الاتحاديين كانوا بجهلهم أو تآمرهم ، تروساً في آلة الاستعمار الأوربي ، التي كانت تهدف إلى تحطيم وتفكيك الدولة ، واقتسام أرجائها .

وبعد " شتان بين رجل يكد لأمته ورجل لايكد إلا لنفسه ، فقد كان الشهيد الزهراوي طيب الله ثراه من أبرز العاملين المجدين في خير أمتنا " [٢٥] . وكان واحداً من أخلص زعماء الأمة أخذه النضال ، والعمل السياسي ، وشغله عن أن يكون أحد الحكماء الربانيين ، والفلاسفة الاجتماعيين . وقد عرف باستقلال الرأي ، وصدق القول ، وقوة الإرادة ، والإخلاص في العمل ، وإيثار الحق على الهوى ، وتوجيه الهم والهمة إلى المصالح العامة ، وترجيحها عند التعارض على المنافع الخاصة ، بل لانعلم عنه أنه اشتغل في طور من أطوار حياته لمنافعه الخاصة [٢٦] .

فالمتتبع لأطوار حياته ،يجده منهمكاً في العمل السياسي منذ شبابه المبكر ولآخر لحظة في حياته، ولا أدري كيف يمكن أن يكون المرء بعيداً عن السياسة وحبل المشنقة على بعد سنتيمترات قليلة من رقبته . والزهراوي في خضم عمله السياسي، كتب أبحاثاً فلسفية واجتماعية وتاريخية " من ذا الذي لايلاحظ تأملاته الفلسفية الجادة، التي كان يحرص على أن يدعم بها أفكاره السياسية والاجتماعية ، ولكنه أبى أن يسير في طريق الفلسفة النظرية ،ليس فقط لأن هذه الطريق كانت - كما خبر - عاجزة عن أن توصله بعيداً إلى حقائق النفس الجوهرية ،ومبادئ الوجود القصوى، التي أعجز البحث عنها الفلاسفة والحكماء ، ولكن أيضاً وبصورة أخص لأنه لاحظ أن لأمته هموماً جوهرية أصيلة ، وقضايا مصيرية عميقة ، وأنها في (بداءة إفاقه) تدعوه لأن يفدي في طلابها راحته . لهذا تحول سريعاً إلى حقل الفعل والعمل ، حيث رأى أن (انتباهة عين الحكمة) مع انتباهة (عين العزيمة) تستلزم فعلاً مباشراً في الأمة . . . ولم يكن للعمل أن يثمر عنده الا بالسياسة " (٢٧) . لذلك فقد أهمل الزهراوي الاستعداد الذي كان مؤهلاً له ،ووجه كل همه للعمل السياسي الذي له مساس بالمجتمع ، وقضايا الأمة ، وللعمل الاجتماعي الذي له مساس بالسياسة . والفكرة السياسية الإجتماعية التي شغلت الزهراوي ، وكانت عنوان كفاحه السياسي هي فكرة (التربية السياسية) وبث (الروح العمومية) في أفراد الأمة .وأراد أن ينهمك كل فرد من أفراد الأمة بالعمل السياسي وأن يكون على وعي بمجريات الأحداث ، وأن يخرج من دائرة اللامبالاة . وهي أفكار استقاها على الأرجح من قراءته (لمونتسكيو) خاصة . " وقد جرت عادة رجال الحكومات أن يدّعوا انحصار هذه الممارسة فيهم وحدهم ، وكان الناس يسلمون لهم بهذه الدعوى ، وإذا عابهم عائب بالاستسلام المطلق للحكام

يقولون : نحن لانفهم بالسياسة ، وهم غافلون على أنهم بقولهم هذا يدفعون صك الاعتراف بأن ليس لهم أن يناقشوا الحاكم في شيء ما، أمّا الغرب فقد تخلص من هذا العيب . . " (٢٨) .

وإذا كان هناك مايميز حياة هذا الرجل فهو الثبات على المبدأ، والصدق مع الذات ومع الآخرين " إذا كان بعض الناس يكتب للكسب أو للشهرة أو للتملق أو لمجرد تسجيل الوقائع ، فقد كان الزهراوي صاحب رسالة جليلة ، وهدف بين . وكانت شخصية الزعيم المصلح فيه تطالع القارئ قوية ظاهرة خلال الصفحات والسطور . . . وإذا كان من الكتاب في بعض الأحيان من يترك رأياً ويأخذ رأياً كما يخلع ثوباً ويلبس ثوباً على حسب الظروف وتقلب المصالح والأزياء فإننا نجد في الزهراوي الكاتب الذي ترتبط أفكاره به ارتباطاً عضوياً ، والمصلح الذي يقدم الرأي ثم يقدم بجانبه الحياة ، ألا ما أحوجنا إلى الكتاب الأحرار " (٢٩) .

وإذا كنا قلنا بأن الحكم بالإعدام على الزهراوي خاصةً باطل شكلاً ومضموناً فإن القارئ لكتابات الزهراوي سيلمح إصراره الثابت والمستمر على الوقوف بوجه مخططات جمعية (الاتحاد والترقي) ، وسيشعر بأن حتف هذا الرجل هو الذي يدفعه ويقوده ويوجهه ، فحكم الإعدام كان لإسكات هذا الصوت ، وتحطيم هذا القلم الذي ما انفك ينتقد ويفند ويهاجم دون كلل أو ملل .

وحين صعد الزهراوي إلى منصة الإعدام نظر نظرة إصرار وتحد إلى وجه ظالميه وقال " إن العناية ترعى وطننا الحبيب ، وإننا سوف نصل إلى الحصول على استقلالنا كاملا ، بعد أن ننتقم من الخونة الأتراك " (٣٠) وكانت هذه الكلمات المؤمنة الهادئة آخر عهده بالدنيا .

هوامش الفصل الثاني :

١ – أحمد النبهان ، " ترجمة عبد الحميد الزهراوي "* مجلة المنار ، الجزء الثالث ، الملزمة ٢١ (١٩١٦م) ص ١٥٠.
٢ – المصدر السابق ، ص ١٥٦.
٣ – د. فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ، (بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩) ، ص ٣١٠.
٤ – محمد رشيد رضا ، "عبد الحميد الزهراوي " ، مجلة المنار ، ج٣ ، م١٩ ، (١٩١٦م) ، ص ١٧٠.
٥ – محمد عبده ، الإسلام بين العلم والمدنية ، (القاهرة ، كتاب الهلال ، ١٩٦٠)
٦ – د. محمد عمارة ، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، الكتابات الاجتماعية ، (بيروت ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٢) ،
٧ – أحمد النبهان ، مصدر سابق ، ص ١٥٣.
٨ – د. فهمي جدعان ، مصدر سابق ص ٣٠٣.
٩ – مكسيم رودنسون ، مقدمة كتاب " الايديولوجية العربية المعاصرة " لمؤلفه عبد الله العروي ، ترجمة محمد عيتاني (بيروت ، دار الحقيقة ، ١٩٨١) ، ص٥.
١٠ – أحمد نبهان ، مصدر سابق ، الجزء الرابع ، ص٢٠٨.
١١ – انظر : مجلة المنار ، الجزء الثالث ، الملزمة ١٩....
١٢ – محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٧٣.
١٣ – محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٧٢.
١٤ – محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٧٣.
١٥ – محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٧٥.
١٦ – محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٧٢.
١٧ – محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٧١.
١٨ – عبد الحميد الزهراوي ، " النظار ، الوزارة الحقية لماذا مكثت أكثر من غيرها " ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٧٠ ، ٨ آب ١٩١١.
١٩ – محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٨١.
٢٠ – محمد رشيد رضا ، مصدر سابق ، ص ١٨٢.
٢١ – عبد الحميد الزهراوي، " لاخوف اليوم" ، جريدة الحضارة ، السنة الثالثة العدد ١٢١ ، أغستوس (آب) ١٩٢١.

---

* العنوان الكامل : " ترجمة السيد عبد الحميد بن السيد محمد شاكر بن السيد ابراهيم الزهراوي"

٢٢ – نظير زيتون ، " الشهيدان الزهراوي وسلوم " ، كلمة ألقاها في مهرجان (الفكر والعقيدة) المنعقد في حمص عام ١٩٦١ ، وقد نشرت مجريات المهرجان في كتاب : مهرجان الفكر والعقيدة لتكريم ذكرى عبد الحميد الزهراوي ، رفيق سلوم ، الدكتور عزة الجندي ، (دمشق – المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٣) ، ص١٤٦.

٢٣ – د. أحمد السمان ، " حول الشهداء " المصدر السابق ، ص٦٥ ، ٦٦.

٢٤ – انظر ، المصدر السابق.

٢٥ – مصطفى الشهابي ، " الزهراوي في قافلة الشهداء " مهرجان الفكر والعقيدة ، ص٢١.

٢٦ – انظر ، محمد رشيد رضا ، مصدر سابق.

٢٧ – د. فهمي جدعان ، مصدر سابق ، ص٣٠٤.

٢٨ – عبد الحميد الزهراوي ، من خطبة افتتاح المؤتمر العربي الأول ، وثائق المؤتمر العربي الأول ١٩١٣ ، كتاب المؤتمر والمراسلات الدبلوماسية الفرنسية المتعلقة به ، تقديم ودراسة د. وجيه كوثراني ، الدولة العثمانية وظروف نشأة الحركة العربية ، (بيروت – دار الحداثة ، ١٩٨٠) ، ص٣١.

٢٩ – د. نجاح العطار ، " الزهراوي في كتابه خديجة أم المؤمنين " ، مهرجان الفكر والعقيدة مصدر سابق ، ص٤٣.

٣٠ – د. جهاد مجيد محي الدين ، " المقاومة العربية في بلاد الشام وجمال باشا (١٩١٥ – ١٩١٦) ، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، دمشق ، وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٩ ، الجزء الثاني ، ص٣٨٦.

الفصل الثالث

الحريـــــة

إن الذي قدر له أن يعيش في اسار حكم مستبد ، يحصي على الناس حركاتهم وسكناتهم ، ويعد عليهم كلماتهم وخطواتهم ، أما أن يستكين ويلين ، كـأن الظلـم قـدر لامفـر منـه ، وماعليـه إلا أن يستعين عليه (بالصبر والصلاة) وترويض النفس على الذل والهوان ، وأولئـك لايعتـد بهـم بـين البشـر ، لأنهـم أقـرب الى العجمـاوات المربوطة الى الرحى أو العربات ،لاتتجاوز حياتهم المـأكل والمشـرب واشباع الغرائز . وأمـا أن يستغل الظـروف ، ويتـلاءم مـع القـوة المستبدة المتحكمة في المجتمع ، ويجعل نفسـه سـوطاً مـن أسـواطها ، ولعنة من لعناتها ، وأولئك هـم المتملقـون والانتهـازيون والزبانيـة ، الذيـن يجعلـون نفسـهم آلـة مـن آلات الاستعباد ، وترسـاً ملحقــاً (بماكينة) الاستبداد . وأما أن يضع روحه على كفه ، ويبـذل كـل مافي وسعه ، لإخراج نفسه وإخراج الناس من خضم الفساد والظلم والاستغلال ، وأولئك هـم المصلحـون والزعمـاء ، الذيـن تحسسـوا آلام النـاس ، فعـادوا اليهـم ليأخذوا بـأيديهم إلى معـارج الحريـة والعدالة ، وليعيدوا اليهم الثقة بأنفسهم وبإنسانيتهم ، ولـيزيلوا مـن أعناقهم الخشبية من أولئك الذين جعلوا من أنفسـهم آلهـة مـن دون

الله " ماذا تكون عاقبة الأقوام ، اذا ألهوا الحكام ، وتعبدو بدم الحسام ، ألا يستجير الضعاف ويجأرون ألا يسرّون بطلب الناس ويجهرون " (١) . فمهمة هؤلاء الرجال المصلحين الاطهار تتلخص بأنهم " يرشدون الأقوياء الى العدل الذي ينفعهم أنفسهم وغيرهم ويرشدون الضعاف الى أسباب القوة التي يدفعون بها ظلم الظالمين "(٢) .

تكمن مهمة المصلحين اذاً في التحرير من القهر والتسلط ، أيا كان مصدره وإعادة المجتمع الى نفسه ، والإنسان الى إنسانيته ، سواء أكان قاهراً أو مقهوراً . فالقاهر عندما يعود الى العدل ينتفع هو نفسه لأنه لاعاقبة للظالمين ، وينتفع المقهور ، فيعرف مكمن القوة التي فيه فيطلقها من عقالها ويدفع بها أذى وظلم الظالمين . وهذه القوة الكامنة في أعماق النفوس تحتاج لمن يساعد على كشفها وتعريف أصحابها بها ، ودفعهم للاستفادة منها ، وهذه هي مهمة القادة والرواد والمصلحين " عن قوة النفوس أسألكم لاعن قوة الأبدان التي لن تساووا الفيلة والسباع مهما بلغتم فيها . فإن كنتم تجدون هذه القوة فنعم الأحياء أنتم ، وحبذا ماترزقونه بسبب هذه الحياة من عزة وبقاء . وإن رأيتم أنفسكم بعيدين عنها فتساءلوا لماذا هذا الموت وأنتم أهل ذلك الكتاب (القرآن) الذي أحيى الموتى من قبل " (٣) . ومن واجب كل مواطن أن يبحث عن أسباب القوة التي تفيده هو ، وتفيد وطنه . وبرأيه أن التقصير في حب القوة مرض نفسي واجتماعي " فان امرؤ أتاكم معترفاً بمرضه مستشفياً من دائه فانظروا ماذا ينفعه من العمل ومروه أن يأخذ من العلم مايلزم لإصلاح العمل . وان كان مهملاً ولم يشأ أن يعمل عملاً صالحاً للنفس والمجتمع فانتظروا أن تبيده الأقوياء غير مشكور وإن أمة صدت عن النذر وكفرت بالسنن فالتمسوا منها ...

كنتم فيها وقوا أنفسكم البوار الهون " (٤) فكأن القوة المقصودة هنا مرادفة تماماً لحقيقة الانسان والإنسان عندما يجهل قوته ، ثم لايريد أن يهتدي اليها بل يخشى أن يهتدي اليها يتخلى - في الحقيقة - عن انسانيته ، ويخالف الفطرة " وان شئت أن تعرف مبغضي ذواتهم ، فأولئك هم مخالفوا الفطرة التي فطرت عليها النفوس ، وأذعنت لحكمتها العقول ، (الذين لايعملون في سبيل أن يكونوا أقوياء) أقول هذا ولاأزيدكم شرحاً لتقدحوا زناد ذكائكم ، وتعلموا من أشرنا اليهم بصفاتهم متى رأيتموها في انسان . . . وزيدوا عليهم طوائف المستعبدين " (٥) . وحتى لاييأس الأفراد الذين تعايشوا مع ضعفهم مدة طويلة ، حين يقارنون ضعفهم بالقوة التي يمتلكها غيرهم ، لابد من تعريفهم بأن في أعماق كل واحد منهم بذرة من القوة بحاجة الى الرعاية " في كل نفس حبة من القوة، وفي كل قوم بيدر منه عظيم ، وقد قضى الفاطر سبحانه بالتباين ، فليست الحبة التي في كل نفس من القوة بوزن التي في النفس الأخرى ، ولكن قد تكون البيادر التي في قوم متبايني الأفراد أيضاً ، اذا كانت أعدادهم متساوية أو متقاربة . ولأجل هذا كان الاجتماع والتمدن من أشد ضرورات الانسان لكيلا يكون الحكم المتوازن الذي بين فرد وفرد لأن النظام يفسد حينئذ " (٦) . وبعد أن يطمئن الأفراد الى القوة التي في أعماقهم ، والتي تتكامل مع القوة التي في أعماق الآخرين ، ويبدؤون في ممارسة حقوقهم ، في ظل نظام يحترم كل فرد من الأفراد ، ولايصادر رأيه لأي سبب من الأسباب وهذا مايخلق المجتمع المتكافل المتضامن الذي يؤمن بالحرية، ولايتأفف من اختلاف وجهات النظر ، لأنه يدرك أن الطبيعي أن يختلف الناس في تناول الأمور : " لوكان الحق شيئاً محسوساً ، لما كان للأفراد ولا للأقوام مناص من الاختلاف في رؤيته ، لتعدد المجالي التي يتجلى فيها ، ولاختلاف درجات أبصارهم ، وتباين

مواقع أشخاصهم بالنسبة إلى مواقع ظهوره ، فكيف والحق شيء غير محسوس ، وانما تحوم حوله المدارك ، مستعينة بالتجارب واستقراء النتائج ، التي تؤدي اليها الأحوال ، واختلاف المدارك ؟ ودرجات الاستقراء أمر واقع ، ماله من دافع . . . فالاختلاف أمر طبيعي ، لايحسن بنا أن نشمئز منه بل يجب علينا أن نسلك فيه أحسن السبل . . . يجب أن يكون لنا فيه أدوية من الآداب والسنن الاجتماعية . يجب أن نعرف أن له درجات ، وأن بعض درجاته ممكن ازالتها سريعاً ، بحسن التفاهم وتقارب الرغائب ، وهو الذي نسميه وفاقاً ووئاماً . وبعض درجاته يمكن تخفيفها بحسن التدبير وهو الذي نسميه سياسة " (٧) . فالحرية التي يجب أن يتمتع بها الانسان من حيث هو انسان لأنها جزء من كرامته الإنسانية وجزء من فطرته الطبيعية هي في الحقيقة تحرير لهذا الانسان من كل أشكال السيطرة والاستعباد وعلى كل المستويات . (فالزهراوي) يدعو لتحرير الانسان من كل سلطة تخنق تفكيره ، وتصادر عقله لمصلحة عقول الآخرين وتفكيرهم ، أيا كان هؤلاء الآخرون ، ومهما كانت المكانة التي يحتلونها . وأول مايجب تحريره منه هو الاستسلام شبه الكامل للاقدمين والذي أدى الى " تقييد الألباب واغلاق الأبواب وتقطيع الاسباب وقام مقام سلطة الأرباب وفينا راءٍ وسامع والكل خانع وخاشع " (٨) وهو يدرك أن الذين " فعلوا بعقولهم من تقييدها واسقامها قد أصبحوا لايرضون عنا الا أن نفعل بعقولنا كفعلهم أو أشد " (٩) .

واذا كان البعض يقدسون الازمنة بقدمها ويستسلمون لعقول من سبقهم وكأن لاعقول الا عقول الأقدمين يأخذون بأقوالهم (على العمياء) . وكان البعض الآخر يتدركون مابأقوال الأقدمين من الضعف والقصور إلا أنهم يصمتون ويسكتون خوف الملامة فإن واجب الانسان أن يجادل ويناقش ويقول الحق ويتحرر من

سطوة أناس استمدوا قوتهم من مجرد أنهم عاشوا في زمن سابق . فأول خطوة على طريق تحرير الانسان وتحرره ، اعماله العقل والتفكير ، فيشعر بذاته ، وبكرامته الانسانية ، ولايفعل فعل أولئك المستلبين الذين يرمون بعقولهم بين أقدام المتسلطين المستبدين ، أيا كان هؤلاء " وحاشا لامرىء أوتي ذرة من فهم الحكم في الوجود أن يسمح باهمال استعداد لم يمنحه الله للعباد سدى " (١٠) .

ومن الواجب أن تعطى الثقة لكل انسان وأن يساعد على تحرير نفسه من كل الأوثان حتى الطفل الصغير يجب أن يتحاشى الكبار صبه في قوالبهم الجاهزة ، لأن الأطفال الذين تحرروا من سطوة الأهل كانوا الأقدر على الشعور بكرامتهم وانسانيتهم " ومن المشاهد أن الذين خلصوا من هذا الأسر (أسر الأهل) قد بعدوا بأفكارهم عن أفكار والديهم بعداً شاسعاً ومن العجيب أن هؤلاء الخالصين من ذلك الأسر على قلتهم وانفرادهم في أممهم كانوا المغيرين لعادات البشر وأخلاقهم " (١١) وبعد أن يتحرر كل فرد من أوثان الماضي ، ومن ربقة وأسر العادات والتقاليد ، ويستعيد ثقته بنفسه وعقله ، يتحول من مجرد فرد في رعية حكومة مستبدة ، الى مواطن بكل معنى الكلمة ، وبكل مايترتب على ذلك من مسؤوليات وفعاليات ، وربما يأتي في مقدمتها المشاركة الايجابية في صنع القرار السياسي في الوطن ، وعدم ترك ذلك لأية فئة أيا كان الاسم الذي تنضوي تحته ، وربما يكون في مقدمة مايترتب على (المواطنة) مقاومة الكهانة السياسية التي يمارسها أفراد ، أو أحزاب أو طوائف ، من دون بقية المواطنين متذرعين بحجج متعددة . فيستبدون بالسلطة ، ويحتكرون العمل السياسي ، ولايسمحون بأي قدر من المحاسبة ، ولايشعرون بأية مسؤولية أمام الآخرين . و لم يستطع المقاومة هذه الا أناس تحررت نفوسهم وعقولهم من كل قيد الا قيد المنطق والحق والمصلحة العامة ، فعرفوا أنه " لامعنى عند

أهل العلم لتعصب (كل) قوم على آخرين بغير الحق الا الاثم والعدوان والبغي والطغيان " (١٢) الذي يجب مقاومته ومحاربته لأنه لايزول بأسلوب آخر غير أسلوب المقاومة والنضال " تا لله لو ظلت الأمم طول دهرها حليفة الشكوى مع عدم روح المقاومة لما زال عن رأسها المتغلبون الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ويكرهون أن يناقشوا بما يعملون " (١٣) ومناقشة الحاكم الحساب حجر الأساس في العمل السياسي وفي الحرية السياسية التي سعى (الزهراوي) لإيصال الوطن والمواطنين اليها " كان من أعظم ما أهملناه مسأله (نصب الحكومة) تلك المسألة التي اعتنى بها السلف كثيراً ووضعوا أصولها بالسيف والقلم أحسن وضع وخلف من بعدهم خلف أضاعوا كل مقومات الأمة حتى صاروا خولا وعبيدا " (١٤) و(الزهراوي) سياسي مطبوع يكره الاستبداد لأنه يخنق الفكر ويسد عليه المنافذ ويحول دون التقدم والاصلاح الذي هو غاية الغايات " إن الطموح الى الأحسن هو اللائق بالحي والأحسن لايأتي اذا بطل الانتقاد والانتقاد لايتيسر اذا صادف من يقدر على الاستبداد فالوقوف أمام منافذ الاستبداد أعظم الأعمال وتأييد الذين يقفون هذا الموقف أكرم الخلال " (١٥) وإقداماً منه على أعظم الأعمال بدأ حياته العامة مناضلاً ضد الاستبداد وراح يصدر جريدة (المنبر) ويوزعها على الناس أشبه بالمنشور الثوري الذي يفضح مساؤىء الحكم الحميدي المستبد ، يفعل ذلك في وقت كانت الكلمة فيه ربما كلفت صاحبها حياته " فكان الناس يخافون من الجدران أن تنم عليهم فراحوا يتسابقون في الرياء والسعيد عند نفسه من رأى أنه أجهر الناس وأفصحهم أو أبلغهم في مدح ذلك الحاكم المطلق " (١٦) أما هو فقد رأى في هذا الاستبداد مذلة للوطن والمواطنين ، فهب يكافح ، ويشارك في هدم صرح العبودية ، وهتك الحجب التي نسجت حول عقول وأفكار الناس ، ويحاول أن

يستنهض الهمم ، ويحذر الأمة من عاقبة الاعراض عن الأخذ بأسباب التقدم والترقي ، الذي هو سنة الحياة والوجود ، لئلا يصيبها ذلك السوط الرباني " الذي يصح أن نسميه عقوبة كونية ، وهو الخطب الذي تحمى به بعض القبائل لابائها الأخذ بأسباب الترقي والاصلاح وإصرارها على عيشة توجب الفساد " (١٧) .

وبعد أن يشارك (الزهراوي) مشاركة فعالة ومتميزة على أكثر من صعيد على اسقاط الحكم الحميدي المستبد يتابع مسيرته النضالية في مواجهة الانحراف وسرقة الثورة - إن صح التعبير - وحرفها عن مسارها على يد جماعة (الاتحاد والترقي) وكان من أهم ماسعى من أجله دفع المواطنين الى خضم العمل السياسي والوطني فهو في البداية يشجعهم " أن السيئة العظمى التي هي غلبة الاستعباد، ولا أقول الاستبداد - قد زالت بحول الله ، وأعظم ما علينا اليوم هو سد كل المنافذ التي يخشى أن تعود تلك السيئة من جهتها . نعم إن الروح الذي كان غالباً في ذلك العهد هو روح الاستعباد . . .

لقد أصبح من أبده الأشياء أن يقول الناس أجمعون نحن عبيد السلطان وعبيد الحكومة . وصار أحب الألقاب الى المقربين لقب العبد الخاص " (١٨) الى آخر ماهنالك من مظاهر الاستعباد مع أن الانسان يجب أن يتذكر دائماً بأنه " لايليق به أن يقدم على عزة نفسه ونفوس قومه شيئاً وبديهي أنه لاعزة مع الاستعباد " (١٩) والعزة ليست مسألة صورية أو شكلية ، وليست في المظاهر التي يحاول البعض الظهور بها . العزة الحقيقية هي الشعور بها ، وممارستها ، أما أولئك الذين " كانوا يظهرون أمام الناس بمظهر الأعزاء كانوا في الحقيقة يتحسرون على العزة أحياناً كثيرة ، وإن علت لهم القصور والشرفات ، لأنهم كانوا لايأمنون على النعيم

الذي فتنوا به حتى ينتموا على عظيم من آلات الاستعباد " [٢٠] فاذا كانت هذه حال كبراء العهد الحميدي فما بال المواطنين العاديين أنهم " أصبحوا مع الاستعباد يكرهون الحياة كلما أخذتهم هزة من حب الشرف وعزة النفس ، وهذا مايدعونا أن نسمي الاستعباد بالسيئة العظمى " [٢١] وقد لاحظ (الزهراوي) مع بقية المواطنين أن إعلان الدستور ، واسقاط السلطان المستبد لم يبدل شيئاً من واقع وجوهر الاستبداد . فعزا ذلك في البداية لثقل التركة التي خلفها النظام الحميدي ، وظن أنه لابد من مرور بعض الوقت ، قبل أن تزول ملامح الاستبداد والاستعباد " فمن كان حسب أن الدستور يعمر الدنيا ويصحح أخلاق الموظفين وغير الموظفين ويعطي قوة عظيمة أمام الأجانب ويشفي الاخاء الوطني من مرضه كل ذلك في يوم أو أسبوع أو عام أو عامين فإنه قد ظن خطأ وسها في الحساب" [٢٢] ولكن الحقيقة كانت غيرما تصوره في البداية فقد كان ثمة استئثار بالسلطة وبالدولة من قبل جمعية (الاتحاد والترقي) تحت ضغط دوافع عنصرية عمياء . وقد أدرك (الزهراوي) بعد لأي أن الاصلاح لايتأتى من مجرد اعلان الدستور بل لابد من وجود معارضة حقيقية وقادرة تقف في وجه الذين يحاولون شد البساط من تحت أقدام العهد الجديد ، وتوظيفه لمصالحهم العرقية والعنصرية الضيقة " يغلط من يظنون أن الدستور وحده يرفع كل صنوف الاستبداد وإن لم يجد للحق والحرية المشروعة أنصار يقولون ويعملون يجادلون وينازعون كلا بل لاغنى للشعوب في وقت من الأوقات عن أشخاص يقفون أمام مناف الاستبداد وما القوانين الأساسية إلا مساعدة لهم " [٢٣] ومن هنا كانت وقفته الحادة والجادة في وجه جلاوزة العهد الجديد " أن الذين كانوا يعلمون عبد الحميد دروس الاستبداد ، والذين كانوا يعملون بأمره كل

شيء مما جاز ومما لم يجز ، والذين كانوا من عبيده الصغار ومن عبيد عبيده ، والذين كانوا السعاة والوشاة له بحق الأبرياء ، والذين كانوا يتمنون أن يكونوا من مقبلي أعتابه وخدام أبوابه ، كل هؤلاء رأيناهم يتسنمون مقامات عالية متنوعة في هذا العهد أيضاً . رأينا الذين كانوا معروفين بالرشوة لايزالون في مراكزهم ، والموصوفين بالجهل مافتئوا في مواقعهم . أما العدد القليل الذين طردوا اذ ذاك، فقد تبين فيما بعد أنهم لم يطردوا لأنهم جهلاء أو مرتشون ، بل كان ذلك انتقاماً منهم لبعض الأشخاص . ثم تبين أنه من دخل حديثاً في الوظائف هم من قبيل أولئك الذين تقدموا . كان الناس قد سئموا من موظفين مغرورين منفوخين بمن ينتموا اليه من بعض كبار الرجال في العاصمة ، وقد رأينا عدد هؤلاء المنتمين زاد أضعافاً مضاعفة ، إذ فتح لهم باب جديد أوسع من الأبواب السابقة ، وهو باب الجمعية (حزب الاتحاد والترقي) " (٢٤) بهذه الحدة ، وبهذا الوضع الحاسم ، وبهذا الصدق مع الذات والمبدأ ، يستأنف (الزهراوي) رسالته ، التي هي في الحقيقة مهمة ورسالة كل مصلح وكاتب " واذا كان من الكتاب - في بعض الأحيان - من يترك رأياً ويأخذ رأياً كما يخلع ثوباً ويلبس ثوباً على حسب الظروف وتقلب المصالح والازياء فإننا نجد في (الزهراوي) الكاتب الذي ترتبط أفكاره به ارتباطاً عضوياً والمصلح الذي يقدم الرأي ثم يقدم بجانبه الحياة ألا ما أحوجنا الى الكتاب الأحرار " (٢٥) وقد كان (الزهراوي) يعي ذلك تماماً ، ويفعل ما يفعل عن بينة " اذا استثنينا من هذا النوع (الانسان) أولي الألباب من الأنبياء وذوي الأفكار من الحكماء والمخترعين والمعلمين فأية مزية تبقى في الباقين وأي شرف لهم أولئك مفاتح أبواب الخير ومصادر الشرف الأعلى لهذه النوع " (٢٦) وهم الذين أدركوا الحقيقة الساطعة وهي أن الانسان

من حيث شخصه لاشيء ، ظل زائل ، أما مـن أراد الخلـود والبقـاء فلن يكون ذلك الا من خلال خدمة أمته " أمـا الأمـم فـلا تتلاشى مادام فيها الصالحون الذين يخدمونها ٠ فمن كانت نفسه حبيبة اليـه وأحب بقاءها فليطلب بقاءهـا في غـير شـخصه الـذي يمحوه ذلـك اليوم (الموت) ، ليطلـب بقاءهـا في أعمـال يعملهـا وخدمـة يقدمهـا لأمته قبل حلول تلك السـاعة فيبقـى حينئـذ ببقـاء أمتـه ويرتفـع الى الحق (جل وعلا) طيب من نيته ، وصـورة جميلـة مـن عبودتـه لـه ، والحـق يتـولى عبـادة الصـالحين " [٢٧] ولقـد كـان (الزهـراوي) مـن هؤلاء " وشتان بين من يكدح لأمته ورجل لايكدح الا لنفسه فقـد كان الشهيد (الزهراوي) طيب ا لله ثراه من أبرز العاملين المجدين في خير أمتنا " [٢٨] وقد تعجب (الزهراوي) مـن سقوط بعـض الذيـن كانوا رموزاً للنضال أمام اغراءات المناصب " فاذا بهم الان أميل الى ماكانوا يقاومونه ويزهدون فيه وأكثر استعداداً لـه " [٢٩] ويعتـبرون ذلك ذكاء ورجحة عقل في الوقت الذي يعتبرون فيه أن الصدق مع الذات والثبات على المبدأ والاخلاص لمصالح الأمة حمـق وسـذاجة " تبقى الأمـم ماشاء ا لله تعـالى وببقائهـا يبقـى الأفـراد الذيـن يقومـون بالعبودة للحق فيها ويكونـون أحـراراً عمـا سـواهم بقـدر الامكـان هؤلاء قد يظنهم نفر من الناس حمقى لانهم يرونهـم غـير منهمكـين في بعض لذائذ قد فتنوا هم بها وانما يقدمون النفوس في سبيل إمـور الى الأمـم مرجعها لاالى أشـخاصهم ومـالحمقى الا أولئـك الظـانون هذا الظن فإن العمل والسعي بما به ارتقاء الأمة وخلاصها لم يكتـب معه الشقاء كما يتصورون " [٣٠] وقد أدهشـه أكثر ، عـدم تـورع هؤلاء الساقطين على إثارة الفتن والقلاقـل ، لأنهـا تخلـق لهـم الجـو المناسب للاستغلال " وليستعينوا بها على خدع المغفلين ٠٠٠ فهـم كلما كثرت القلاقل ازدادوا تمكنامن الايهام،واتهام من يخشونهم من

الرقباء والمناظرين ، وازدادوا تضليلاً للأفكار بأنه لايجوز والحالة هذه التهجم عليهم " (٣١) وهكذا يربطون بين مصالحهم الشخصية والمصلحة العامة (بديماغوجية) مقيتة ٠ ٠

ولم يرق للاتحاديين بطبيعة الحال ، عناد (الزهراوي) ولم يعجبهم دفاعه عن الحرية التي تنتج لكل جماعة (أمة) من جماعات الدولة الاعتزاز بنفسها وتراثها ولسانها بسبب ضيق أفقهم ونزعتهم العنصرية لذلك نصبوا أنفسهم أوصياء على الدولة ، وعلى شعوبها، ونظروا بعين المقت والشك لكل أحد ، ولكل حزب آخر ، سوى حزبهم متهمين تلك الأحزاب المعارضة بأنها ضد الدولة ٠ يريدون من وراء ذلك مصادرة الآراء والأفكار ، والاستبداد بالنفوس والعقول ٠ وقد أراد (الزهراوي) أن يفنّد دعاوي الاتحاديين ، وأن يحاورهم بالعقل والمنطق " التخالف لايزول ، ولكن له آداب ، والتنازع لايبطل ، ولكن له سنن ، والحق تختلف فيه الأفكار ، ولكن التفاهم ممكن ، لأن الأفكار قابلة للتحول ، وقبول النصح ٠ واذا تعذر التفاهم فكل حزب يصيررون في سبيل مايرونه الحق ، والحكيم هو الذي يبتعد عن تشديد اللوم في الأمور التي كأنها طبيعية " (٣٢) فاختلاف وجهات النظر ، وتباين الآراء ، أمر طبيعي، ودليل صحة وعافية في المجتمع ٠ أما من يدعو الى غير ذلك ، ويدعي بأنه وحده يملك الرأي السديد ، والمنطق السليم ، فانه انما يسير قدماً في طريق الاستبداد ٠ وهذا ماكانت (جمعية الاتحاد والترقي) تفعله حين كانت تحاول أن تستأثر بأمور الدولة العثمانية ٠ لذلك دعا (الزهراوي) الى قيام أحزاب معارضة لحزب (جمعية الاتحاد والترقي) " لابد من الوقوف أمام منافذ الاستبداد ، ومظان الأعوجاج ، وأنه اذا لم يقم بذلك بعض الأحزاب السياسية لسبب من الأسباب ، في زمن من الأزمان ، مست الحاجة الى غيره ٠ فانه

اذا ثبت أنه يوجد في الأمة من يريدون التغلب على كل أحد ، من غير أن يعترض عليهم أحد ، وكان لايوجد الا حزب واحد موافق، كان هناك أما الاتفاق التام على عصمة أولئك المتغلبين عن الخطأ ، والرضاء العام باستبدادهم ، وأما موت أوجب سكوت الكثيرين أمام تغلب الأقلين ...... ولاينفي علائم الموت الا شهادة عيانية بقيام حزب معترض ...... ، يقف أمام الكثرة والقلة ، ولاتثنيه الألقاب التي يخلعها عليه الحزب الآخر وأنصاره " (٣٣) .

وإذا كان الاتحاديون يصادرون الحريات والأفكار بحجة الحفاظ على الدولة ، وضمان بقاء وحدتها ، فإن (الزهراوي) يسخر من هذه الادعاءات . فالزهراوي مع الاتحاد المبني على اسس حضارية ، وليس على أسس أخرى ، سواء أكانت دينية أو عرقية : " نوضح كلامنا فنقول : نحن مسلمون ولكننا لانريد اتحاداً يكون خارجه أبناء وطننا من غير المسلمين ، ونحن عثمانيون ولكن لانريد اتحاداً يكون خارجه كل أبناء الوطن من غير الترك ... وتفسير هذا الكلام - بغاية الصراحة - أن الإتحاد النافع هو الذي يبقى فيه العربي مثلاً عربياً ، والرومي رومياً ، والألباني ألبانياً ، ولايسيء أحد بأحد الظن حين يريد خدمة لسانه ، ويسعى في ترقية أفكار قومه ، ويظهر تمنيه بأن يكثر فيهم العلماء والأدباء ... فالاتحاد اذا كان من أجل الوطن فالرجل الذي ينسى قومه وقوميته لايأمنه على الوطنية الا أحمق ، فإن من لاقوم له لاوطن له ، ومن ينسى أهله فهو ناس وطنه قبل ذلك " (٣٤) .

بهذه الكلمات الصريحة - غاية الصراحة - على حد تعبيره يرفض التنازل عن حرية أمته ، ويرفض الحاقها دون قيد أو شرط بالدولة العثمانية . ويدعو الى أن يكون لها - ولسواها من أمم

وشعوب الدولة العثمانية - كيانها المتميز . فهو وإن كان لايدعو الى الانفصال عن الدولة ، الا أنه يرفض وصاية أي شعب من شعوب الدولة على الشعوب الأخرى ويستخدم ربما للمرة الأولى في قاموس السياسة في المنطقة عبارة - القومية ، ..... ويهاجم بشدة الاتحاديين لغلوهم وعنجهيتهم وتعصبهم لجنسهم التركي ، ويسخر من دعواهم بأن كل من لاينضم لحزبهم ، ويعمل تحت أمرتهم ، خائن يعمل ضد الدولة ووحدتها ..ويرد عليهم بعنف وحدة ويدعو " لأن تخرج كلمة العنصر الحاكم من الأفكار وليس من قاموس السياسة فحسب " (٣٥) ويسخر بصراحته العنيفة معلناً بأنه لايقبل باتحاد " يراد به أن يتنازل التركي مثلاً عن تركيته أو الغربي مثلاً عن عربيته لأجل خاطر الاتحاد فهل فهم دلالو الاتحاد"(٣٦) وعندما يرى اصرار هؤلاء على موقفهم العنصري بسخر منهم المرة بعد المرة " ليس شيء في نظر العاقل بأسمج من صد رجل أتخمته الأنانية رجلاً آخر يحب أن يتغذى بقليل من حب نفسه وقومه " (٣٧) و(الزهراوي) إلى جانب دعوته الى حرية المواطن واعتبار ذلك جزءاً عضوياً من مقومات انسانيته وكرامته وحرصه على التحرر من كل أشكال القهر والتسلط ، ودله على طريق المقاومة ، طريق القوة ، لإنتزاع الحرية . فإنه دعا كذلك الى حرية الوطن وتحرره من كل أشكال التسلط والقهر والطمع الداخلي والخارجي ... فعلى الصعيد الداخلي دعا لأن يعمل كل مواطن على رفعة وحرية وعزة وطنه . والى الخروج من دائرة الاستكانة والخنوع ، والانتقال الى العمل الايجابي والمقاومة الفعالة وعدم الاكتفاء بالشكوى ...... " يشكوا الناس كما كانوا يشكون أمس ولكن ماذا تنفع الشكوى اذا لم تكن معها روح مقاومة"(٣٨) .

فهو يحاول استنهاض الهمم وتبصير المواطنين بمساوئ ماهم عليه " لقد تواترت النذر القوارع وتلاحقت الموقظات من الصوارع وما نحن بملتفتين ولانحن من الكوارث صادفين كأن قد استحكم الوقر في آذاننا أو استحوذت الغشاوة على ابصارنا أو كأن قد أخذنا النوام ... ولست أدري وقد تألبت الحوادث ، وتظاهرت الخطوب ، متى يكون التذكر ؟ الى الله المشتكى من عقول ونفوس نحسبها متضامنة مع صد عوادي الأيام ، وهي متشاكسة ، بعضها على بعض ألد الخصام ... قد استنذلها الانذال فضلاً عن الأقوياء واستنذلها الأذلاء فكيف الأجلاء ، وهي مع ذلك تفيض بالتفاخر وتبدي وتعيد في التعاظم " (٣٩) .

وبعد أن يشعر المواطنون بما عليه أوطانهم من ضعف وتخلف لابد أن يتساءلوا عن أسباب هذا الضعف ويعملوا على تحرير الوطن من براثنه . وربما يكون التحرر من الأمراض الاجتماعية المتفشية من أهم مايجب الانتباه له ، وأهم هذه الأمراض : ماابتليت به نفوس المواطنين من الملق والمداهنة ، ومسايرة المستبدين والمتنفذين هذا المرض الذي تفشى خاصة في الطبقة الغنية ، التي رهنت نفسها لدى الطغمة المستبدة ، تزين لها أعمالها ، وتصفق مهللة لكل تصرف من تصرفاتها ، أملاً في الحفاظ على مصالحها ومكاسبها ، واستدراراً لمزيد من الفتات الذي تلقيه اليها الطغمة المستبدة . واذا كان (الزهراوي) لايستغرب ارتهان الأغنياء لزبانية الاستبداد ، إلا أنه يستغرب وقوع الفقراء في مثل ذلك " لكن المعدمين لايجدون عذراً اذا جمعوا بين ذلة الاملاق وذلة الملق الباطل " (٤٠) ثم يعود ليذكر الأغنياء ، بأن الغنى في المال لايعوض عن الكرامة والعزة ، ويذكرهم بأن " الكثير من الأغنياء في الأمم الأخرى يتمنون له

كانوا فقراء ويتخلصون من حكم الأجنبي ... " (٤١) واذا كان هو يحمل في أعماقه نفساً حرة مقاومة مناضلة ، فإنه كان يؤمن بأن كل مواطن في بلده لايقل عنه اباء ومقاومة لذلك فهو يخاطب قومه " لو كنتم غير مؤمنين ، وغير كارهين حكم الأجنبي ، لو جدت لي قوماً آخرين غيركم . وأما وأنتم تحملون ما أحمله من الايمان ، والنفرة من سيطرة الأجنبي ، أنتم قومي الذين تجد روحي الأنس بهم وترغب العمل والتعاون معهم " (٤٢) .

وهو في سبيل ضمان الحرية السياسية للمواطنين يتبنى الأسلوب الأوربي (البرلماني) في ممارسة الديمقراطية ويسمي الأشياء بأسمائها فيتحدث عن المجالس النيابية ، وعن حرية الانتقاد ، وعن المشاركة في اتخاذ القرارات السياسية ، وعن تعدد الأحزاب ، وعن المؤسسات القانونية والدستورية . ولايجد حرجاً في ذلك ولايستعمل ما يستعمله غيره من رحالات النهضة من مصطلحات (الشورى - أهل الحل والعقد) وان كان لاينسى بأن يذكر بأن الديمقراطية أصيلة في تراثنا ، تحدث عنها في كتابه (خديجة أم المؤمنين) وبين ماكان للعرب قبل الاسلام من أخلاق تقوم على الحرية والمشاورة ... كما أنها الديمقراطية - الحرية) قد وجدت بعد الاسلام مايزيدها رسوخاً - وان ما نأخذه عن الأوربيين ليس سوى الشكل والترتيب وأن أوربا لم تكن سباقة في مجال سن (الدساتير) على الإطلاق " فمن عرف هذا يعرف أننا انما اقتبسنا عن أوربا طريقة من طرق ترتيب الاستشارة (الشورى) ولم نقتبس أساس الاستشارة على أننا لانعني بهذا أن الذي اقتبسناه من أوربا شيء هين وانما قصدنا به اثبات عراقتنا

.بما هو روح (*) القوانين الأساسية " (٤٣) فهو يدعو إلى الأخذ بالنظم الديمقراطية (الليبرالية) على النمط الأوربي ، لاسيما (الانكليزي) وما إرجاعها (في روحها) إلى أسس تراثية عربية وإسلامية إلا لإثبات أنها لاتتعارض مع هذا التراث من جهة ، وإلا لتسهيل عملية الأخذ بها من جهة ثانية . ومما لاخلاف فيه أن النظم (الليبرالية) الأوربية تقوم على تعدد الأحزاب وعلى حرية الانتخابات . . . وبالنسبة لحرية الانتخابات فإن (الزهراوي) يعطيها اهتماماً كبيراً لأنه يترتب على الانتخابات نتائج في غاية الأهمية والخطورة . لذلك فهو حين يدعو إلى نظام (برلماني) فإنما يدعو لأن ينبثق هذا المجلس عن انتخابات نزيهة . بعيدة عن كل تأثير أو توجيه ، يمارسها المواطن وهو يشعر بحرية كاملة ، ويدرك أنه يقوم بواجب قومي هام ، لأنه سيوصل إلى مجلس النواب أناساً يعرفون كيف يقودون وطنهم في وجه كل الأطماع ، ومحاولات التسلط الداخلية والخارجية : " إي لعمر الحق يجب أن تتقوا الله في أوطانكم إن كنتم مؤمنين ، وإن كنتم لتسلط الأجانب كارهين . فإنه ليس بينكم وبين ذلك التسلط إلا أن تخان الأمة في الانتخابات مرة أخرى والعياذ با لله " (٤٤) وهو يشير بذلك إلى تدخل السلطة للاتجاه بالانتخابات ونتائجها إلى حيث مصلحتها مما أدى إلى ابعاد الكثير من رجالات الوطن عن المجلس (مجلس المبعوثان) . .

والخلاصة أننا نستطيع الآن أن نذكر موجزين : بأن (الزهراوي) قد نظر إلى الحرية من زوايا متعددة ، فهو ينظر اليها أولاً على أنها حق لكل إنسان من حيث هو إنسان ، وأنها جزء من إنسانيته ، وأحد المقومات الأساسية لكرامته . وبرأيه أن من يتخلى عن حريته فإنما يتخلى عن إنسانيته ويصبح واحداً من

---

* في هذه العبارة مايذكر بقوة بمونتسكيو في كتابه روح القوانين .

(العجماوات). وحرية الإنسان تعني تحرره من كل أشكال القهر والتسلط أيا كان مصدرها . وتعني كذلك تحرره من ربقة ماتواضع الناس على تقديسه من العادات والأشخاص والفترات الزمنية المحددة، كما تعني أن يكون له الحق في الاعتقاد بما يريد ، والتفكير والتعبير بما يريد دون أن يخشى على نفسه وأهله شيئاً . . .

وهو ينظر إليها ثانياً على أنها حق للمواطن في الدولة يجب أن يمارسها لأنه بذلك يمارس حقه في المشاركة (في نصب الحكومة) و (مناقشتها الحساب) وخلعها إن لم تقم بواجبها . وحين تتاح الحرية للمواطن فإنه يشارك كذلك في العمل السياسي فيختار لنفسه حزبا يتفق مع طموحاته وأهدافه ، وطموحات وأهداف الوطن ، ويعمل من خلاله على تقدم الوطن ورفعته . وإذا لم تكن الحرية متاحة للمواطن فعليه أن يناضل في سبيل انتزاعها لنفسه ، وللآخرين من أبناء وطنه ، وعليه أن يقاوم الاستبداد والتسلط والقهر ، فإنه إن لم يفعل ذلك فإنما يهدر كرامته ، ويستحق الهوان الذي ينزله به قاهروه والمستبدون به .

وهو ينظر إليها ثالثاً على أنها تحرر من الأمراض الاجتماعية التي تستشري نتيجة التخلف والجهل . فهي تبتعد بالإنسان عن الملق والمداهنة والرياء ، وتضعه وجهاً لوجه أمام واجبه في مقاومة المتسلطين ، دون أن يعبأ بما يتلهى به ضعاف النفوس من المكاسب والمناصب .

وهو ينظر اليها أخيراً على أنها تحرر وتحرير للوطن من أنواع القهر والتسلط ، سواء أكان ذلك صادراً عن جهات داخلية تسيّرها أطماعها وأهواؤها ، أم عن جهات خارجية يدفعها حبها للاستغلال ولاستنزاف ثروات الشعوب والتحكم بمصائر الآخرين .

وحرية الوطن لاتتحق إلا إذا سادت روح المقاومة ، ولايمكن أن تسود روح المقاومة ما لم يتحقق في المجتمع نوع من العدل والتكافل الاجتماعي بحيث لاتستأثر فئة من المواطنين بكل المغانم في حين يقع على الفئات الأخرى كل أنواع المغارم والأعباء .

هوامش الفصل الثالث :

١ – عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مجلة المنار ، ص٨٦٦.
٢ – عبد الحميد الزهراوي ، المصدر السابق ، ص ٨٦٧.
٣ – عبد الحميد الزهراوي ، " اتقوا الله في أوطانكم " ،جريدة الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١٢٣ ، ١٥أغستوس (آب)١٩١٢.
٤ – عبد الحميد الزهراوي ، "نظام الحب والبغض "،ص٧٧٤ ، ٧٧٥.
٥ – انظر : عبد الحميد الزهراوي ، نظام الحب والبغض ،مصدر سابق .
٦ – عبد الحميد الزهراوي ، "القوة" ، مجلة الانسانية ، الجزء الثاني ، السنة الثانية ، ١٤|٥|١٩١١.
٧ – عبد الحميد الزهراوي ، "القوة" ، مجلة الانسانية ،مصدر سابق.
٨ – عبد الحميد الزهراوي ، الفقه والتصوف ، (القاهرة ، المطبعة العمومية ، ١٩٠١) ، ص ٣٧.
٩ – عبد الحميد الزهراوي ، المصدر السابق ، ص٢٤.
١٠ – عبد الحميد الزهراوي ، المصدر السابق ، ص٢٤.
١١ – عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض "،ص٧٩٧.
١٢ – عبد الحميد الزهراوي ، "نظام الحب والبغض "،ص٧٩٩.
١٣ – عبد الحميد الزهراوي ، "خواطر السياحة " ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ،العدد ٧٩، ١٢ تشرين الأول ١٩١١.
١٤ – عبد الحميد الزهراوي ، " اتقوا الله في أوطانكم " ، جريدة الحضارة، السنة الثالثة ، العدد ١٢٣،١٥أغستوس (آب) ١٩١٢.
١٥ – عبد الحميد الزهراوي ، "النظار" ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٦٨،٢٧ تموز ١٩١١.
١٦ – عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية –١– " ، جريدة الحضارة

، السنة٢ ، العدد ٥٣، ١٢ نيسان ١٩١١٠

١٧ – عبد الحميد الزهراوي ، "القوة" ، مجلة الانسانية ، الجزء الثاني ، السنة الثانية ، ١٤|٥|١٩١١٠

١٨ – عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية –١– " جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٥٣، ١٢ نيسان ١٩١١٠

١٩ – المصدر السابق ، ص٦٠

٢٠ – المصدر السابق ، ص٦٠

٢١ – المصدر السابق ، ص٧٠

٢٢ – المصدر السابق ، ص١١٠

٢٣ – عبد الحميد الزهراوي ، "النظار" ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٦٨، ٢٧ تموز ١٩١١٠

٢٤ – عبد الحميد الزهراوي ، " حروبنا الداخلية " ، جريدة الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١١٨ ، ١١ تموز ١٩١٢٠

٢٥ – د٠ نجاح العطار ، " الزهراوي في كتابه خديجة أم المؤمنين " مهرجان الفكر والعقيدة ، (دمشق ٠ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٣)٠

٢٦ – عبد الحميد الزهراوي ، "نظام الحب والبغض "، مجلة المنار ٠٠

٢٧ – عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الحضارة ، السنة الأولى ، العدد ١٤، ١٤ تموز ١٩١٠٠

٢٨ – مصطفى الشهابي ، " الشهيد الزهراوي " مهرجان الفكر والعقيدة ، مصدر سابق .

٢٩ – عبد الحميد الزهراوي ، " حروبنا الداخلية " ، جريدة الحضارة ، السنة الثالثة ، العدد ١١٨ ، ١١ تموز ١٩١٢٠

٣٠ – عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الحضارة ، السنة الأولى ، العدد ١٤، ١٤ تموز ١٩١٠٠

٣١ – عبد الحميد الزهراوي ، " حروبنا الداخلية " ، جريدة الحضارة ،

السنة الثالثة ، العدد ١١٨ ، ١١ تموز ١٩١٢ .

٣٢ – عبد الحميد الزهراوي ، " اليوم وبعد اليوم " ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٨٤، ١٧تشرين الثاني ١٩١١ .

٣٣ – عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية –٨– " ، جريدة الحضارة، السنة الثانية ، العدد ٦٢ ، حزيران ١٩١١ .

٣٤ – عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية –٢– " ، جريدة الحضارة، السنة الثانية ، العدد ٥٤ ، ٢٠ نيسان ١٩١١ .

٣٥ – المصدر السابق .

٣٦ – المصدر السابق .

٣٧ – عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية –٤– " ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٥٦ ، ٤ مايس ١٩١١ .

٣٨ – عبد الحميد الزهراوي ، " خواطر السياحة " ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٧٩، ١٢ تشرين أول ١٩١١ .

٣٩ – عبد الحميد الزهراوي ، " خواطر السياحة " ، جريدة الحضارة ، مصدر سابق .

٤٠ – عبد الحميد الزهراوي ، " اتقوا الله في أوطانكم –٢– " ، جريدة الحضارة،السنة الثالثة،العدد ١٢٤ ، ٢٢أغستوس ١٩١٢ .

٤١ – المصدر السابق .

٤٢ – المصدر السابق .

٤٣ – عبد الحميد الزهراوي ، "اتقوا الله في أوطانكم –١–" ، جريدة الحضارة ، السنة الثالثة،العدد ١٢٣ ، ١٥أغستوس ١٩١٢ .

٤٤ – المصدر السابق .

الفصل الرابع

العدالة

" اي وا لله إلى الذلة والبوار ينقلب المجتمع الذي لاعدل فيه . . . ومتى علم (الإنسان – المواطن) أن العزة والبقاء يرافقان العدل ، والذلة والبوار يصحبان الظلم ، كان أحب شيء إليه العدل . وأبغض شيء إليه الظلم . وحينئذ يكون تعصبه للعدل وبالعدل ومنتجاً للعدل " (١) فالعدل من مقومات العزة والبقاء ، للفرد والجماعة على حد سواء ، بل ومن بعض مقومات النفس . فالعدل مرتبط ارتباطاً عضوياً بالإنسان ، يطلبه لنفسه لأنه حاجة اجتماعية أساسية ، وجزء من تركيبه الحضاري والاجتماعي ويطلبه لغيره لئلا يتناقض مع نفسه " من أحب ذاته حق المحبة هيهات أن يظلمها ومن أراد أن لايظلم نفسه فليحارب من لايظلمون غيرهم وليحارب من يظلمون فلا جناح علينا أن نبيع الحياة – وهي أغلى شيء - في جهاد الذين يظلمون غيرهم لعلنا نحيا لانظلم ولانظلم أو يحيا أبناؤنا من بعدنا على هذه الشاكلة لعلنا نحيا عالمين أن ذوات غيرنا كذاتنا فنأخذ مالنا وندع مالهم . لعلنا نحيا متعاونين ، فنحن كلنا أخوة سواء بالحياة أو الممات " (٢) فهو مؤمن بالعدل كأساس لسعادة الإنسان وبناء الأمة وعزة الوطن ، ومستعد لأن يبذل روحه فداء لإيمانه الراسخ بأهمية العدل على مختلف الصعد الفردية

والاجتماعية .. والظلم برأيه لايكون من جهة السلطة فقط ، ومن جهة الحكومات أو الفئات المستبدة ، بل قد يكون من جهة الأفراد، يوقعه الأقوياء بالضعفاء . أو من جهة الدول توقعه الدول الكبيرة والقوية بالدول المستضعفة . أو من جهة طبقة متنفذة توقعه بالمستضعفين . أما بالنسبة للظلم الذي يوقعه فزد على فرد وذلك حين يجاوز الحد في الأنانية ، فيعتدي على حقوق غيره ، ويغتصبها لنفسه ، وهو أساس الشرور الاجتماعية " جميع مانسميها شرورا إنما منشؤها بمجاوزة الحدود في محبة الذات لأنه لامعنى للشر إلا الاعتداء على الحقوق . وهل هذا الاعتداء شيء غير مجاوزة الحدود. ولافرق بين أن تكون أنت المعتدي على غيرك لأجل ذاتك وأن تكون يعتدي عليك غيرك لأجل ذاته [٣] وأنت حين تدفع الظلم عن نفسك ، وتساهم في رفعه عن غيرك ، إنما تقوم بواجب تمليه عليك إنسانيتك . وأنت حين تمتنع عن ظلم غيرك فلأن هذا هو الشكل الطبيعي للعلاقة في المجتمع " فالأمر تكافؤ وتكافل لاتطول وتفضل " [٤] ولن يتحقق هذا التكافل إلا حين يقف كل فرد عند حدود حقوقه ولايحاول أن يمدها إلى مجال حقوق الآخرين، وحين يدرك هذا الفرد الحكمة من وجوده " ما أنت أيها الفرد إلا ظل مهما امتد يتقلص ، أو سحاب مهما تراكم يتفرق... ليس لك إلا بروق من الحياة سريعة الانطفاء ، قليلة البقاء ، يكاد يعدم الفرق فيها بين الهناء والعناء ...... فإذا تحققت أنك لاشيء من جهة شخصك تفكر هل خلقت عبثاً ... أظهرك المبدع الحكيم لأمور جليلة قد يعرفها الحريصون على التعرف بها . ويظهر لنا من جملتها تكوين الأمم المتباينة ... فكأنك أيها الفرد خلقت تابعاً لمعنى الأمة " [٥] .

لذلك فإن الإنسان حين يغرق في مطامعه الشخصية ، ولايهتم بمصالح المجتمع الذي يعيش فيه إنما يكون ظالماً لنفسه ،

وظالماً لغيره ، وبعيداً عن مفهوم العدل ، والتكافؤ والتكافل إذ يجعل سعيه قاصراً على مستقبله الشخصي مما يجعله قاصراً عن إدراك أن " المنافع الشخصية في هذا النوع (الإنسان) لايتوفر ولايظفر بها إلا ضمن المنافع العمومية . وإن رقي شخص في مجتمع منحط ، ورفاهه في موطن خشن ، وسعادته في بيئة شقية ، محال في نظر العقل وممتنع في حكم الواقع . . . " (٦) فمن الظلم أن يحصر الإنسان همه في مصلحته الشخصية ، ولايكترث بمصلحة غيره ، لأن ذلك سيؤدي إلى اختلال التوازن في بنية المجتمع ، وإلى تفكيك أواصر العلاقات بين أفراده ، وسينعكس ذلك على كل فرد من أفراده بما في ذلك الأنانيون أنفسهم . فهذا (الزهراوي) يعلن بأن مصلحة الأفراد لاتتحقق إلا ضمن مصلحة الأمة والمجتمع " فالأمة التي يشعر أفرادها بأن منافعهم منوطة بمنافع مجموع الأمة ، فيسعون في طريق ترقيتها وإعلاء شأنها لتعلو بذلك أقدارهم ، وتسمو منازلهم . . . ولو كان شعور المرء بحاجته إلى سعادة قومه يشبه شعوره بالحاجة إلى سعادة ذاته ، لكان سعيه لمستقبل الأمة ، مثل سعيه لمستقبل نفسه ، ولترتب على ذلك نهوض الأمم العاثرة . . . فإن من شأن هذه الغريزة (العمل للأمة والتخلص من الأنانية) أن ترتقي بالإنسان إلى أسمى ماستعد له وتصعد به إلى مستوى المدنية الصحيحة " (٧) فالزهراوي يعي تماماً خطورة العلاقة بين الفرد والمجتمع ، ومايترتب على هذه العلاقة من تأثير على مستقبل الأمم . وكان يرجح بتأثير الشريعة الإسلامية من جهة ،وشعوراً منه بأهمية العدالة من جهة ثانية وربما تأثراً ببعض الإصلاحيين الأوربيين جانب المصلحة العامة لذلك فهو " يشجب شجباً قوياً (ذاتية) أولئك الذين لايعرفون المصدر الحقيقي للسعادة ، ويظنونه في الدوران حول محور ذواتهم ، وفي المنافع الشخصية التي يراد لها أن تتحقق على حساب المنافع العمومية . ذلك أن مقام الأمم ومستقبلها في معركة الحياة

مرهون بشعور أفرادها بأن منافعهم منوطة بمنافع بمجموع الأمـة " (٨) وأن أي تصرف خلاف ذلك يعني الظلم وانتفـاء التكـافؤ والتكـافل والعدل ، والابتعاد عن روح الدين والحضـارة " إن معنى محبة ا لله اتباع الحدود ورعاية حقوق الغير وبذل وسع النفس في هـذا الشأن وكل فروعه " (٩) .

(فالزهراوي) يرى العدل على الصعيد الفـردي بتخلص كـل فرد من الأنانية البغيضة وبالعمل في سبيل المصلحة العامـة وبالسعي في سبيل رفعة بمجموع الأمة دون أن تلهيه مصلحته الشخصية ، الـتي لن تتحقق ، وستكون ناقصة حتماً ، في ظل بمجتمع ينعدم فيه العـدل والتكافل والتضامن . كما أنـه يـرى العـدل في أن يلـتزم كـل فـرد حدود حقوقه ولايحاول - تحت أي غطاء - مد هذه الحقوق بحيث تطمس حقوق الآخرين . ويسـخر مـن أولئـك الذيـن يحـاولون أن يرتبوا لأنفسهم حقوقاً ليست لغيرهم ، تحـت ستار دعـاوي مختلفـة منها مثلاً الادعاء بالانتساب إلى عترة معينة (وتخيـل الشـرف والمجد بالتولد من ذلك الوالد أو ذلك الجد) ويعد ذلك نوعاً من التعصـب (العنصري) البـاطل الـذي لايقـره عقـل ولاديـن " إن تلـك لأوهـام باطلة لا تروج إلا على العقول العاطلة " (١٠) .

فلا يجوز إذا هضم حقوق الغير لأي سبب كان ، وتحت أي شعار كان . فلا ظلم ولاتظالم . والإنسـان حـين يمتنـع عـن ظلـم غيره فإنه في الحقيقة يعبر عن حبـه لنفسـه ، لأنـه لايحـب أن يظلمـه غيره " فالإنسان لايحب غيره إلا لأجل ذاته فهو بهذا الحب لم يخرج من حب ذاته إلا بحسب الصورة فقط " (١١) .

أما علـى صعيـد العدالـة الاجتماعيـة ، فقـد أحـس بالتفـاوت الكبير بـين الطبقـات ، وعـد ذلـك مـن الفسـاد المؤدي إلى الدمـار والبوار ، إن لم يؤخذ بالمبادئ الإصلاحية الـتي يقدمهـا العقـلاء مـن أبنـاء الأمـة ، الذيـن أدركـوا أن لاعاقبـة للمفسـدين ، لأن العـدل

الطبيعي لايسمح باستمرار الفساد ، واستمرار الظلم . لذلك فهو مطمئن من هذه الناحية إلى أن العاقبة للصلاح والإصلاح . فإن بدت للبعض أن قوة المصلحين ضعيفة واهنة لاتستطيع شيئاً أمام جبروت المفسدين الذين يتحكمون بالبلاد والعباد " فقد تكون عظيمة (القوة المرافقة للإصلاح) ويطيف من الإصلاح بنفوس المفسدين خطرات موقظة ومزعجة ، فتجذب فريقاً منهم (المفسدين) وترجعهم عن غيهم . وقد تكون ضعيفة ويطيف بنفوس المفسدين طائف من الروح الخبيث ، فيهلك المفسدون دعاة الإصلاح ومتبعيهم . ولكن لايلبثون بعدهم إلا قليلاً ، حتى تبيدهم طبيعة الفساد ، لتقوم الحجة فيما بعد " (١٢) .

بهذا الإيمان المطمئن والراسخ بأن (البقاء للأصلح) لأن ذلك سنة من سنن الكون (لتقوم الحجة فيما بعد) يشق (الزهراوي) طريقه في الدعوة إلى الإصلاح ، وإلى إقرار العدل ، لأنه بعض مقومات المجتمع ، ويهوله هذا التفاوت بين الناس " فواحد على العرش لاتقع عينه إلا على مايشتهي من زخرف . . . حركة خفيفة من حركات شفتيه تدوي لها الأرضون ، وتخر لها الأعناق ، وتوقد بها الحروب . . . وآخر على الحضيض ، يأوي إلى مثل أوكار الوحوش ، ويغشي ظهره من الأثقال مثل مايغشي ظهور الزوامل ، يعدو النهار والليل تحتها لينال من القوت ماليس بأفضل من الأعشاب ، ومن اللباس ومالو عرض على الحيوانات لفضلت عليه جلودها " (١٣) .

بهذا الإحساس العميق ، وهذه العبارات العنيفة يعبر عن رفضه للواقع الظالم الذي تعلو فيه منزلة البعض وتهبط فيه منزلة الأكثرية الساحقة من أفراد المجتمع إلى مادون منزلة الحيوان الأعجم . وهو حين يرفض هذا الواقع لايستكين له وإنما يدعو إلى المقاومة لأنها وحدها هي التي تسقط الظلم وهي وحدها التي

تنصب حكومة العدل " إذا قمتم اليوم تلتمسون من تلومونه (بسبب فساد المجتمع) فإنكم ستجدون سر التقصير ساريا في الطبقات كلها ،وحينئذ لايخلص من اللوم أحد ،وإنما تختلف الدرجات ، فلا يستوي الذين صبروا وصابروا في مقاومة الباطل ، والذين كانوا بالباطل وللباطل قائمين ، والذين كانوا بالباطل وللباطل قاعدين " (١٤) فمقاومة الباطل والظلم من أقدس واجبات الإنسان ، وعليه أن ينخرط في هذه المقاومة ليحرر نفسه ومجتمعه ، دون أن ترهبه مظاهر القوة التي يتمتع بها الظالمون ، الذين استلبوا حقوق المواطنين ، لأن هذه القوة الظاهرة قوة مؤقتة كما سبق وذكرنا سرعان ماتزول تحت ضربات معاول المقاومة من جهة ، ولأنه لاعاقبة للظالمين من جهة ثانية " إن المحيط الذي لاعدل فيه لاينبغي أن يجزع القليلون فيه على أنفسهم فإن أولئك الكثيرين الذين فيه لاحقون بهم إلى الذلة ثم البوار وبئس القرار " (١٥) و(الزهراوي) لايتحدث عن الظلم وعن التفاوت الطبقي والاقتصادي بشكل عام فقط بل يحاول أن يعطي الأمثلة عن الظلم الذي تتردى فيه طبقات المجتمع كلها ويعد ذلك جزءاً من نتائج الاستبداد والاستعباد والفساد ، فبالنسبة لحالة الفلاحين يقول :

" فلا تسل عن حالة الفلاح المسكين فإن الاستعباد قد أناخ عليه بكلكله حتى تركه لايستفيد من متاعبه المتمادية إلا أخشن العيش مشوبا بالمذلة والمهانة " (١٦) فلا بد إذا من إنصافه ورفع الإصر عنه وجعله ينال حقه كاملاً وبشكل يتناسب مع أتعابه (المتمادية) وإذا كانت هذه حال الفلاح في العهد الحميدي فإنها ظلت كذلك في العهد الجديد " الفروق التي أحس بها الفلاحون بين الدور الماضي والدور الجديد تكاد لاتذكر لأن طريقة الأعشار لاتزال على حالها جامعة لأنواع الاعتساف ، وشؤون الضبط والربط لم تتغير ، وتغلب (الأفندية) لم يتحول ، ولم يجد شيء في

مجاري الأنهار ..." [١٧] أمـا بالنسـبة للحرفيـين والصنـاع " فهـم أسـوأ حـالاً مـن الفلاحـين لأنهـم إلى جـانب عيشـهم الضنـك قـد أنهكتهم تلـك العسـكرية (التجنيـد الاجبـاري) ... حتـى أصبـح الفلاح الموصوف آنفا أحسن حـالاً منهـم " [١٨] أمـا المثقفـون فـإن الظلم الذي يقع عليهم في مجتمع الفساد والاستبداد يكون بحرمـانهم من مصادر الثقافـة مـن جهـة ،وحرمـانهم مـن التعبـير عـن آرائهـم ومعارفهم من جهة ثانية . " والمغرمون بالمعـارف (مثـلا) قـد حيـل بينهم وبين المباحث والكتب الاجتماعية والسياسـية ،وحـرم عليهـم اقتناء شيء من تلك الكتب تحريماً يؤيده العقاب الشـديد إذا وقعـت المخالفة " [١٩] أما بالنسبة للجنـود " فـالأفراد مـن العسـكر كـانوا يخدمون تلك العسكرية ثماني سنين وتسع سنين في الغالب وأكثرهم لايفرحون بلباس جديد يناسب الإنسان طـول هـذه المـدة وبعضهـم تأتي عليهم ظـروف لايكفـون فيهـا ألم الجـوع " [٢٠] ويزيـد الأمـر سوءاً وظلماً فيما يتعلـق بالعسـكرية إذا انتبهنـا إلى مـاأورده مـن أن مدتها كانت تصل إلى تسع سنوات تقطع من عمـر الشـاب وتبـدد لإرضاء نزوات السلطة ، وللتسلط على الشعوب ، بـدل أن تكـون فترة إنتاج يستفيد منها الوطـن والمواطـن . بالإضافـة إلى أن عـبء هذه العسكرية لم يكـن يقـع علـى إلا علـى أبنـاء الطبقـات الفقـيرة والمستضعفة أما أبناء الأغنياء والأعيان والأشراف فإمـا أنهـم كـانوا معفيين بحكم القانون (الأشراف) ، أو أنهم كانوا قادرين على دفـع الرشاوي والتهرب من أدائها ، فكـان الذاهبـون لأداء العسـكرية في غالب الأحيان من المعيلين لأسرهم . فكانت هذه الأسر تقع تحـت عبء شديد من الفقر والعوز ، مما كان يحدو بالكثـيرين للفـرار مـن الخدمـة . وبمـا أن هـؤلاء كـانوا لايستطيعون الظهـور أمـام أزلام السـلطة فقـد تحولـوا إلى السـلب والنهـب وقطـع الطرقـات . وقـد كانت ظـاهرة (الفراريـة) شـائعة ومعروفـة ، ولازالـت في الذاكـرة

الشعبية في مختلف المناطق حكايات كثيرة من أعمال هؤلاء الفارين . أما بالنسبة للتجار ، الطبقة أو الفئة الأكثر غنى والأكثر ارتياحاً من الناحية المادية إذا ماقورنت حالتهم بحالة بقية المواطنين إلا أنهم مع ذلك يشعرون بالمذلة والظلم إذا ماقارنوا حالتهم بحالة من اتصلوا بهم من تجار الأمم الأخرى فهم يعرفون الفرق ، الكبير، " بين البلاد التي تتجلى فيها حقوق الإنسان من حيث هو إنسان وبين البلاد التي يقول أهلها نحن عبيد الحكومة " (٢١) .

وقد مر معنا من قبل كيف أن (الزهراوي) سخر من تملق الأغنياء وانتهازيتهم لإقتناص المزيد من فرص الكسب الحرام ، وذكرهم بأن المال لايمكن أن يكون بديلاً عن الكرامة والعزة وأن الكثير من الأغنياء في الأمم الأخرى يتمنون لو كانوا فقراء ويتخلصون من حكم الأجنبي .

وبرأي (الزهراوي) أن إقامة العدل هو أول واجبات الحكومة ، وهي ماوجدت إلا من أجله (*) فهي توحد الجميع " حتى يصير الكبير والبعيد على حد سواء في طلب العدل ، وحفظ الحقوق إلى

---

* يعتبر العدل أحد أسس المجتمع فهو يستنتج من استقراء مثل يضربه أن أسباب قيام المجتمعات (المدنية) :

١ - حب الذات -٢- حب الغير لأنه الأصل الأعظم في تحصيل مصالح الذات -٣- العدل في توزع الأعمال والنتائج -٤- الإحسان (مراعاة الضعاف) -٥- العلم لأن العمل لايكون صحيحاً ومجدياً إلا إذا بني على المعرفة -٦- التعليم -٧- اقتسام الأعمال (تكافل وتكامل) -٨- نظام العائلة -٩- نظام التساكن -١٠- نظام البيوع -١١- نظام الأجور (العمالة) -١٢- شريعة القسمة (تقسيم الدخل القومي) -١٣- شريعة القروض (الودائع والعواري) -١٤- شريعة الغصب والإتلاف -١٥- نظام المواريث -١٦- نظام الجزاء -١٧- حماية الضعفاء -١٨- نظام المعاهدات الخارجية -١٩- نظام إحداث القوة (نصب الرئيس ...) -٢٠- نظام النظامات (العقيدة والإيديولوجية) . انظر : الزهراوي : مبادئ الحـ [illegible] و [illegible]غض .

مرجع واحد (الحكومة والقانون الأساسي) وهذه نعمة لايستهان بها ، لأن الله سبحانه يقول : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لتهدمت بيع . . " يعني أن الله يدفع الناس عن بعضهم بواسطة بعض وبديهي أن الوازع الأعلى هو الحكومة فلولا الحكومات لتغلب الكبير على الصغير ولما رأينا علوما وبلدانا..."[٢٢] ولكن أية حكومة هذه ، إنها الحكومة التي نصبها الشعب ، والتي باستطاعته أن يخلعها حين تستبد ، أو حين تخفق في إقامة العدل : " ومتى كان الحاكم خاضعاً لشروط ، كان منصوبا بيد الأمة ، وليس ناصب نفسه بنفسه ، ومتى كان كل فرد من الأمة عضواً أساسياً فيها ، كان شريكاً بالطبع في نصب الحكومة . فإن حرست الحكومة الكيان ، وأقامت العدل ، في أمة من الأمم ، كان ثمة ربح لكل فرد من أفراد الأمة . وإن لم تفعل ذلك ، كان هناك خسر على كل أحد من آحادها . وبديهي أن الأمة التي لاتتقن الحساب ، ولاتتوسل لدفع أسباب الخسر ، ليس لها أن تشكو غير نفسها " [٢٣] فالعدل وإن كان من عمل الحكومة إلا أن الحكومة بحاجة لمن يعاضدها إن رغبت في إقامته ، ولمن يردعها ويردها إلى الصواب إن حاولت تجاوزه ، ولن يستطيع ذلك إلا شعب واع مؤمن بحقوقه ، مستعد للمقاومة والدفاع عنها: " أما الأمم الميتة المستسلمة للمتغلب ، فإنها جديرة إذا لم تر العدل أن تقول كما يقول العبد المظلوم والمهان : لم يشبعني سيدي ، لم يكسني ، لم يرحني ، لم يخفف عني التعب ، ولكن ماذا تفيد العبد الشكوى إذا كان لايملك حيلة سواها ؟ وما أشنعها من مهانة إذا ابتليت بها أمة من الأمم " [٢٤] فالعدل ليس منحة مجانية تعطى للأمة والأفراد ، إنه ثمرة كفاح ونضال مريرين ، إنه ينتزع من فم المستغلين ، ومن براثن المتسلطين . والظلم ماكان ليقع له أن [illegible] مواطن انبرى لمقاومته ، وخرج من سلبيته و[illegible] : " [illegible]

واجب من أول الواجبات ، والتقاعد عنه إثم وخطيئة من أول الآثام والخطيئات "[٢٥] فوجود الظلم ، وانعدام العدل ، يعود وبالدرجة الأولى إلى سلبية المواطنين ، وابتعادهم عن ابتدار حقوقهم كمواطنين ، وعدم مقاومتهم للظلم والطغيان والقهر ، والاكتفاء بالشكوى . وماكانت الشكوى يوماً لتعيد حقاً ، وتقيم عدلاً ، " يشكو الناس كما كانوا يشكون أمس ، ولكن ماذا تنفع الشكوى إذا لم تكن معها روح مقاومة "[٢٦] .

■

هوامش الفصل الرابع :

١ - عبد الحميد الزهراوي ، "المؤتمر "، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١١٢، ٢٠ مايس (أيار) ١٩١١.

٢ - عبد الحميد الزهراوي ، "اتقوا الله في أوطانكم "، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١٢٣ ، ١٥ اغستوس (آب) ١٩١٢.

٣ - عبد الحميد الزهراوي ، "حول الحرب أيضاً " جريدة الحضارة ، السنة ٣، العدد ١١٤ ، ١٣ حزيران ١٩١٢.

٤ - عبد الحميد الزهراوي ، "بعد أربع سنوات "، جريدة الحضارة ، السنة ٣، العدد ١٢٠، ٢٥ تموز ١٩١٢.

٥ - عبد الحميد الزهراوي ، "اتقوا الله في أوطانكم -٣-"، جريدة الحضارة، السنة الثالثة ، العدد ١٢٥ ، ٢٩ أغستوس ١٩١٢.

٦ - المصدر السابق .

٧ - عبد الحميد الزهراوي ، "المستقبل "، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد ٩٦ ، ٩ شباط ١٩١٢.

٨ - د. فهمي جدعان ، مصدر سابق ، ص٣١١.

٩ - عبد الحميد الزهراوي ، "نظام الحب والبغض " مجلة المنار ، مصدر سبق ذكره .

١٠ - المصدر السابق .

١١ - المصدر السابق .

١٢ - المصدر السابق .

١٣ - عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الحضارة ، السنة الأولى ، العدد ١٤ ، ١٤ تموز ١٩١٠.

١٤ - عبد الحميد الزهراوي ، "اتقوا الله في أوطانكم -٣-" جريدة الحضارة . السنة ٣ ، العدد ١٢٥ ، ٢٩أغستوس ١٩١٢.

١٥ – المصدر السابق .

١٦ – د. جودة الركابي والدكتور جميل سلطان ، الإرث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي ، (دمشق – المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ١٩٦٢) ، ص٦٠.

١٧ – عبد الحميد الزهراوي ، "النظار –٢– "، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٦٧، ٢٠ تموز ١٩١١.

١٨ – عبد الحميد الزهراوي ، "تربيتنا السياسية –١–" جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٥٣ ، ١٢ نيسان ١٩١١.

١٩ – المصدر السابق .

٢٠ – المصدر السابق .

٢١ – المصدر السابق .

٢٢ – عبد الحميد الزهراوي ، "الأفراد والجماعات "، مجلة الانسانية ، مصدر سبق ذكره .

٢٣ – عبد الحميد الزهراوي ، "اتقوا الله في أوطانكم –١–"، جريدة الحضارة، السنة الثالثة ، العدد ١٢٣، ١٥اغستوس ١٩١٢.

٢٤ – المصدر السابق .

٢٥ – المصدر السابق .

٢٦ – المصدر السابق .

■

الفصل الخامس

التربية السياسـية

إذا كان الإمام (محمد عبده) يتضجر من السياسة معتبراً إياها أسّ مصائب الشرق " فإن شئت أن تقول أن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين ، أعوذ بالله من السياسة ولفظ السياسة ... ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة "(١) فإن (الزهراوي) ينحو منحاً مختلفاً تماماً ، فهو يرى " أن النوع الإنساني لم يتيسر له قطع المزاحل في التكمل إلا على يد السياسة ، وإن المبتلين بعشق الإصلاح لابد لهم من مددها ، فإن مايطلبونه للإنسانية قلّ أن يكون ملقى على أبوابهم ، يربحونه لها وهم مستريحون "(٢) ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن رأي (محمد عبده) كان تعليقاً منه على حادث سجن (الزهراوي) والأذى الذي ناله بعد نشر كتاب (الفقه والتصوف) وجاء في ذلك التعليق : " أما ما نسمعه حولنا من سجن من قال بقول السلف (الاجتهاد) فليس الحامل عليه التمسك بالدين فإن حملة العمائم إنما حركهم الحسد لاالغيرة . وأما صدور الأمر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة ، والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد ، فتنتشر عدواه ،

فينتبه غافل آخر ، ويتبعه ثالث ، ثم ربما تسري العدوى من الدين إلى غير الدين ، إلى آخر مايكون من حرية الفكر " [٣] وحرية الفكر هذه كانت الهاجس الذي لازم (الزهراوي) طول عمره وعمل على الوصول إليها في كل ماكتب ، ابتداء من كتبه الدينية والاجتماعية والتاريخية ... .إلى مقالاته ودراساته السياسية بل إنه قد خصص سلسلة من المقالات في جريدته (الحضارة) ، أعطاها عنوان (التربية السياسية) ، هدف منها توعية المواطنين سياسياً ، ودفع كل مواطن إلى لجة العمل السياسي ، بعد أن يتسلح بالوعي ، وبكل مقومات المواطن الصالح ، من علم ومعرفة وفكر مرن متفتح بعيد عن الحقد والتعصب والكراهية . فهو يرى أن " تبنى (السياسة) على محبة الناس بعضهم بعضاً بقدر الإمكان ، وإن كان بعضهم أجنبياً عن بعض " [٤] . و(الزهراوي) يهدف من حملته لنشر الوعي السياسي والاجتماعي ، أن يخلص الناس من شعورهم بأنهم مجرد رعايا ، لادخل لهم بالعمل السياسي ، وأن يشعروا ويدركوا بأنهم مواطنين ، لهم حقوق لايجوز التنازل عنها .

وكان يعي تماماً بأنه وغيره من الذين يعملون على نشر الوعي السياسي ، وبذر بذور الإصلاح في ذلك الديجور المظلم ، الذي تردت إليه أحوال الدولة والشعوب الخاضعة لها ، إنما كانوا يؤدون رسالة مقدسة " بربكم قولوا لنا إذا استثنينا من هذا النوع (الإنسان) أولي الألباب من الأنبياء وذوي الأفكار من الحكماء والمخترعين والمعلمين فأية مزية تبقى في الباقين وأي شرف لهم ؟! أولئك مفاتح أبواب الخير ومصادر الشرف لهذا النوع " [٥] وكان على وعي كامل بما يواجه حملته من صعوبات وإشكالات ، أهمها " مشكلين عظيمين :

أولهما السبات الذي فيه الأمة ، والثاني الجشع الذي فيه أوربا" [٦] وقد ساءه أن يكون بعض الانتهازيين قد استغلوا ظروف

التخلف لمصالحهم ، فحولوا الإصلاح إلى تجارة يكسبون من ورائها: " إن في البيئة والمجتمع إفساداً لايستطاع انكاره ، وإن هذا هو الذي دعا لكثرة النداء بالإصلاح ، ورواج البضاعة المعروضة في سوقه ، وإن كان كثير منها يزيف لدى نقد المهرة " (٧) ولذلك كان يرغب من خلال حملته في (التربية السياسية) تكوين المواطن الواعي سياسياً ، والقادر على النقد ، حتى لاتروج البضاعات الفاسدة ، لأن المواطن حينئذ يكون قادراً على تمييز الغث من السمين ، والخبيث من الطيب ، والمصلح من المفسد ، ولايغتر بكثرة أتباع رأي ، وقلة أتباع رأي آخر ،لأنه سيدرك أن الكثرة والقلة في الأتباع ليست دليلاً على سلامة وصحة المبدأ ، بل ربما يكون أتباع المفسدين أكثر : " **لأن الفرق بين المفسد والمصلح كبير هو فرق بين الضدين وإن كانت درجة المصلح عالية كان الأقربون منها أقل من الأبعدين ...** "(٨) .

وحتى لاتخشى المواطن من كثرة أتباع المفسدين ، وحتى لايمنعه ذلك من مجاهدة الفساد ، يبين أن المبادئ الصحيحة ، والسياسات السليمة ، والآراء والأفكار الصادقة ، تملك في ذاتها قوة ذاتية ، تؤيدها وتقوم لها مقام الكثرة : " ولولا أن للإصلاحات قوة تؤيدها ، لتلاشى كل إصلاح قام به مصلح ولكن تلك القوة المؤيدة تقوم للمصلح ومن يقاربه مقام الكثرة " (٩) . وعلى هذا واعتماداً منه على هذه القوة يطمح إلى دفع كل مواطن إلى لجة العمل السياسي ، ليصبح سياسياً ، أو بالأحرى مناضلاً سياسياً . لأن السياسة عنده ، وعي ونضال ، وإيمان بالمبدأ ، واستعداد للتضحية في سبيله ، وبحث عن كل الروابط ، ووسائل إقامة التلاحم بين أفراد المجتمع ، وليس بمجرد تلاعب بالألفاظ ، وتصدراً للمجالس ، وتسنماً للمناصب . فالسياسي " وهو الباحث عن كل روابط الاجتماع ، لاأستكثر منه أن يحمل أوزار الوغى – إن

استطاع - في رد كيد المستبدين ، الذين وضعوا أعمالهم في كفة السيئة ، من حب التميز ، وبئس مااكتسبوا لأنفسهم من البغضاء ، وللمذعنون لهم ، شر مكاناً وأضل عن سبيل الحياة النوعية (الحضارية) وأقرب إلى الهوان من الأنعام وفي هذا بلاغ لعلهم يتذكرون " (١٠) .

لمثل هذا المواطن الذي يضع روحه على كفه ويخرج لمقاومة المستبدين والطغاة دون أن ييأس أو يستسلم ، كانت دعوة (الزهراوي) للتربية السياسية . ولن نصل إلى تكوين مثل هذا المواطن إلا عن طريق تربية استعداداته وقدراته ، لأن الاستعداد الذي عند الفرد " هو الذي يعمر وهو الذي يدمر هو الذي يثمر العز وهو الذي يثمر الذل " (١١) وهذا الاستعداد ليس فطرياً - فقط - كما يحلو للبعض أن يشيعوا بل هو " بإذن الله وتدبيره يقبل الامتزاج ، وتجري عليه أحكام التربية . لذلك فإن رسالات المرسلين ودعوات المصلحين والمرشدين ، إنما جاءت لتنمية هذا الاستعداد وتوجيهه ، وإلا كان إرسالهم عبثاً " (١٢).ولذا أطلق على حملة التوعية السياسية التي كان يقودها اسم (التربية السياسية) التي هي تنمية لاستعدادات الأفراد والمجتمعات على حد سواء . فالتربية إذاً تعني تغيير الواقع السيء : " وهكذا زال الاستعباد لما حدث في الأمة استعداد جديد لمقاومته ، وسرت روح مقاومته من رأس إلى رأس " (١٣) فالتربية السياسية إلى جانب كونها قادرة على شحن الإنسان بروح الكرامة والمقاومة والنضال والتمسك بالمبدأ ، تعلمه التعاون والتكامل مع الآخرين لأن السياسة " من أعظم مااحتاج إليه هؤلاء البشر في أدوار أطوارهم ، وأطوار أدوارهم ، فإننا كما نرى للتآلف أسباباً وآثاراً طبيعية ، نرى للتنافر أسباباً وآثاراً طبيعية أيضاً . فالإنسان مضطر بين هذه وتلك إلى مدافعة أسباب التنافر وآثاره بين المتنافرين ، والأخذ بيد التآلف بين المتنافرين وهذا هو

أصل السياسة ... فالسياسة تعلم أسباب التعاون ووسائله إذا جهلت ، وهي التي تذكر بها إذا نسيت ، وهي التي تنير طريقها إذا عميت ، وهي التي تنعش الآمال ، وهي التي تطبب الضعيف ، وتتعهد مغارس القوة " (١٤) . ويمكن أن نلاحظ بسهولة أن (الزهراوي) يربط السياسة بالاجتماع ربطاً عضوياً ، ففكره في هذا المجال أقرب إلى مانسميه (السوسيولوجيا السياسية) فالسياسة عنده ظاهرة فاعلة من الظواهر الاجتماعية ، وجزء من مقومات الفرد والجماعة على حد سواء . فعلى الصعيد الاجتماعي هي التي تخلق ماكان يسميه (الروح العمومية) أي الرأي العام المستنير ، وهي التي تخلق كذلك العقيدة السياسية (الايديولوجية) للمجتمع أو ماكان يسميه (سياسة السياسات) .

ولقيادة العمل السياسي لابد من وجود رجال أكفاء يمتلكون صفات خاصة ، أولئك هم زعماء الشعب ..." ومتى دبت (الروح العمومية) ولو دبيباً خفيفاً ألفيتها تلتمس الزعماء وتتلمسهم . والزعماء هم نبات الأسباب والسنن الكونية " (١٥) .

وهؤلاء الزعماء هم الذين يقودون شعوبهم ، ويتحكمون بمفاصل القرار فيها ، ويعملون على خلق (الروح العمومية) ، وتوحيد فعاليات وطاقات وجهود الأفراد والفئات المختلفة ، وخلق الكيان المتماسك والقوي . ذلك لأن " الجماعات (الأمم) لاتكون جماعات على وجه التمام ، ولاتكون لها سياسة مخصوصة ، إلا إذا كان لها زعماء . والزعماء هم الذين يديرون سياستها وإدارتهم هي إدارتها " (١٦) .

ومن الطبيعي أن تكون العلاقة بين الزعماء وشعوبهم علاقة جدلية تفاعلية ، فلنجاح الزعيم في مساعيه لابد أن يكون الشعب قد وصل إلى درجة من الاستعداد تؤهله للتفاعل مع زعيمه ، والسير معاً إلى معارج التقدم والفلاح . فكأن هناك علاقة دقيقة

جداً بين وجود الزعيم ، وبين تهيؤ الناس لذلك ، واستعدادهم لاستقباله " فبين وجودهم (الزعماء) ووجود الروح العمومية علاقة دقيقة ، لذلك يقول فريق من المفكرين : هي تظهرهم ، ويقول آخرون : هم يظهرونها " (١٧) . وبرأي (الزهراوي) أن للزعيم صفات وإمكانات واستعدادت تجعل من المستحيل على من لايملكها أن يغدو زعيماً ، كما لاتستطيع الظروف مهما كانت صعبة أن تمنع من يمتلكها من أن يكون زعيماً .

ولذلك فان وسائل الإعلام تخطئ كثيراً حين تحاول خلق زعماء وهميين ، لاتساعدهم استعداداتهم على تحمل أعباء الزعامة، ولايملكون مقوماتها . . . " قد يذهل أحدنا من مقدار مايرفع الأمة من رفع شخص في نظرها هو أهل للرفعة ، أو خفض شخص هو أهل للخفض . وعن مقدار مايضر الأمة إذا انعكس لها الأمر ، فيرفع في نظرها من هو أهل للخفض ، ويخفض من هو أهل للرفعة . فليتق الصحافي (وسائل الاعلام) منقلب الجماعة التي يريد خيرها ، فإن بين براعته ومدارك الناس علاقة بينة " (١٨) .

" فالصحافي الماهر يستطيع أن ينصر الزعيم وأن يخذله ، ولذلك أوصي نفسي ، وأخواني الصحافيين بشيء من الإخلاص في المهارة ، لنضع نصرنا وخذلنا في مواضعها ، مما هو أنفع للأمة ، بعد أن نبذل الوسع بالاستطلاع والتفحص ، لاعلى حسب مايبدو لأحدنا " (١٩) .

ويعتقد بأن للزعامة شروطاً واستعدادات وإمكانات ، وأن هذه الاستعدادات من القوة والطاقة والقدرة بحيث تستطيع أن تقاوم الظروف ، وأن تنتصر على الإحباطات . ذلك أنه " إذا كانت الاستعدادات الشخصية هي المساعد الأعظم على صيرورة الشخص زعيماً ، وعلى نجاحه في الزعامة ، ولكم أرانا التاريخ ويرينا الحاضر أيضاً كثيراً من الأشخاص الذين طاروا إلى الزعامات على كثرة

ماقص الدهر أجنحتهم ، وعلى كثرة ماأقصاهم منبتهم عن مثل ذلك الطيران " (٢٠) . فهذه الاستعدادات الشخصية لاتعرف اليأس، ولاتعترف بالفوارق الاجتماعية (المنبت) ، فقد يخرج الزعيم من أي فئة كانت . بل إنه يرى أن لكل فئة زعماؤها من جهة ، وكل فئة قادرة على إنبات الزعماء من جهة ثانية .

وببحثه عن صفات الزعيم ومقومات وجوده ، يدلل على فهم عميق لهذه القضية ، ويريد من كل أبناء وطنه أن يشاركوه فهمه لها، حتى لايحسبون من الزعماء كل من تصدر المجالس ، أو احتفلت به وسائل الإعلام ، أو أوصلته (الانتخابات) إلى المناصب . لأن الانتخابات قد توصل إلى تلك المناصب من لاكفاءة لهم ، ولا استعداد لديهم : " فقد تكون الاستعدادات سبباً للانتخابات ، وقد تأتي الانتخابات من غير طرقها . فالمنتخبون الذين فقدوا أجنحة من تلك الاستعدادات ، تكون سقطاتهم كثيرة ، ولاخير في زعامتهم غالباً ... لذلك فإن هذه الاستعدادات الشخصية قد تكون بحيث يراها أكثر الناس ، وقد تسترها بعض الحوادث وبنات الحوادث ، فتصبح لايراها إلا القليل . ولهذا ولأسباب أخرى تكثر الاختلافات والاضطرابات في الانتخابات .... فقد توصل الانتخابات الزعماء إلى المناصب ، وقد توصل بعضهم ، وقد توصل سواهم ... لأن زعماء الجماعة ليسوا هم المنتخبين وحدهم (من جهة) ، بل قد يكون المنتخب غير زعيم (من جهة ثانية) ، إذا كان محروماً من الاستعدادات الشخصية كثيراً " (٢١) .بمثل هذا البحث المفصل تناول (الزهراوي) موضوع العمل السياسي ، والتوعية السياسية ، ودور الزعماء ، ودور وسائل الإعلام . (وكانت تتمثل أكثر ماتتمثل في الصحافة) . وهو في عمله السياسي ، وفي مهمته الصحفية ، يعتمد على النقاش الهادئ ، والمنطق العقلي الواضح ، ويحاول أن يبتعد عن المهاترات ، وأن يفضح الأساليب

(الديماغوجية) التي كان يلجأ إليها البعض للإيهام والتدجيل ٠ وكان هدوءه ورصانته في مناقشة خصومه ، وفي عرض آرائه ، أهم سمة من سمات شخصيته الفذة ٠ وإن كان هذا لايعني أبداً أنه كان يرضى بأنصاف الحلول ، إنما الذي نريد قوله بأنه كان إنساناً مؤمناً بفكره ، متمسكاً بآرائه ، لايتراجع عنها قيد أنملة مهما كانت الظروف ، وإن كان من الملاحظ أن آراءه وأفكاره مبنية على أسس عقلية ، وحجج منطقية ، ولم يكن يطلقها على عواهنها ٠ ونادرا ماتجد له كتابات أو خطابات تغلب عليها الأساليب الخطابية والعاطفية ، وإن اضطر لذلك أحياناً فانه سرعان مايعتذر لقرائه ويوضح لهم أن الظروف العامة أملت عليه مثل هذا الأسلوب كما حدث قبيل حرب (البلقان) مثلاً : " وكأين من قارئ يقول : مابالك قد جعلتنا بأساليب خطابية فأجيبه : ذلك لأن من جملة حقوق القراء علينا أن نوافيهم بمثل هذا في بعض الأحيان " (٢٢) ٠

ومن خلال معارضته للسلطة الاتحادية التي استبدت بالأمر ، أراد أن يكشف الزيف الذي تحاول أن تختبئ وراءه ٠ وبين أن هؤلاء قد استمروا في سياسة الاستبداد ٠ وأن إعلان الدستور لم يكن سوى تغيير صوري في شكل السلطة ٠ وأراد أن يدرك المواطنون بعض أسباب الاستبداد الذي كان يوقعه الأتراك بأبناء الشعوب الأخرى ٠ هذه الأسباب التي تعود برأيه لعوامل عنصرية موروثة لدى هؤلاء الأتراك ، ولعوامل بيئية ٠ لذلك فهو لايستغرب أن يتواتر الاستبداد بعد سقوط العهد الحميدي : " لقد نسينا ناموس الإرث ، وغفلنا عن تأثير المحيط ، وذهلنا عن أن جمهور العاملين لذلك الاستبداد (الحميدي) سيظلون عاملين لاستبداد جديد " (٢٣) ٠

وقد أزعج عناد (الزهراوي) الاتحاديين ، فأوعزوا إلى الصحف الناطقة باسمهم في العاصمة وفي سواها من ولايات الدولة

وأمروها بالتصدي للحملة (الزهراوية) ، التي لم تكن تعرف الكلل أو الملل . ولم يكن يرد على مهاترات تلك الصحف إلا بأسلوبه الهادئ الرصين ، وإن كان لايخلو من حدة أحياناً . ولم تكتف السلطة الاتحادية بحملات الصحف في العاصمة والأقاليم ، بل أوعزت إلى بعض الصحف التي كانت تمولها في (القاهرة) (*) ، وقد هاجمت بعض صحف القاهرة (الزهراوي) هجوماً عنيفاً ، شاتمة إياه، ومطلقة عليه النعوت المختلفة ، وقد كان بعض هؤلاء ومنهم (عبد العزيز الجاويش) ينطلقون في هجومهم من معاداتهم للاحتلال الإنكليزي واعتقادهم بأن الدولة العثمانية هي عدو الإنكليز ، وأن كل من يعاديها إنما ينتصر للإنكليز . فكانوا يؤيدون الدولة (العلية)، متناسين أو جاهلين الأخطاء الفادحة ، والسيئات العظيمة، والظلم الغاشم ، الذي يوقعه الاتحاديون بالعرب خاصة . وقد رد (الزهراوي) على هؤلاء الذين يريدون تسويد سمعته وتبييض وجوه (آباء المملكة) كما كان يحب الاتحاديون أن يسموا أنفسهم قائلاً : " واعتقادي بأن أكثر مصائبنا الحاضرة ، هي نتيجة التدجيل في السياسة والصحافة . وهو الذي أوجب أن أقول هذه الكلمات المرة ، فإن استباحوا أن يشتموني لقاء هذه الكلمات، فإني بما أرجوه فيها من حسن ثواب الحق ، وحسن تأثيرها في يقظة أخواني المصريين وغيرهم ، سأستعذب ذلك الشتم، إن هم ثابوا إلى الرشد، وعلموا من نحن في هذه الدولة ؟ وماهي القلوب التي نحملها ؟ وينبع منها كلامنا ؟ وماهي عواقب الإيهام ؟

---

* كانت القاهرة في ذلك الحين مركزاً مهماً للصحافة ومنبراً يعبر فيه كل مهتم بأمور المنطقة عن وجهة نظره وكان من بين هؤلاء بطبيعة الحال الاتحاديون الذين استبدوا بالسلطة في الدولة العلية .

ومايرجى من الإعتصام بالحقائق ؟ والسعي على نواميسها ؟ وماحقائق أولئك الذين يجدوهم ؟ ومانتائج سياستهم ؟ " (٢٤) .

وهو في سعيه الدائم لتوعية المواطنين بالحقائق ، لايكتفي بانتقاد الاتحاديين ، وسياستهم العنصرية الخرقاء ، ولايكتفي كذلك بالرد على أساليب الدجل السياسي الذي كانوا يتبعونه ، ويدفعون إليه أدواتهم وعملاءهم في القاهرة وغير القاهرة ، بل إنه يهاجم كذلك أولئك الذين يريدون أن يخدموا مصالح الدول الأوربية ، تحت ستائر الوطنية ، وبدعوى المطالبة بالحقوق ، فيتبعون أيضاً بما ينشرونه في الصحف التي تصدر في أوربا أساليب الإيهام والدجل . خاصة حين ينصبون أنفسهم ممثلين للأمة ، ويدعون التعبير عن آمالها ومطالبها ، فيسخر من أساليبهم ، ويفند ادعاءاتهم : " معرفة رأي الفرد في كل مسألة من المسائل سهل .... أما معرفة رأي الجماعات (الشعوب) فانها متعسرة بل متعذرة ... ولذلك نعد من الكذبة الجناة من كل أمة أولئك الذين يكثرون أن ينسبوا إلى أممهم فكراً ، أو رأياً في كل مسألة ، فيقولون مثلاً : تريد الأمة هذا، والأمة لاتريد ذاك ، والشعب يود ذلك ، والشعب يكره ماهنالك .... فالذين يسمعون بعض أقوال الخادعين أو المخدوعين في أوربا وغيرها ، أن للعرب مقصد كذا وكذا يجدر بهم أن يعرفوا أنه من خرق الرأي تصديق غار أو مغرور..."(٢٥) ولمعرفة رأي الأمة فلابد من الرجوع إلى التنظيمات والأحزاب والجمعيات التي تمثل رأي الأمة ، وتقود نضالها إذ لايكفي أن تعتمدعلى آراء الأفراد ، أيا كان هؤلاء الأفراد . فالعمل السياسي يحتاج حتماً إلى الجهود المنظمة ، وللابتعاد عن الجهود الفردية ، لأنها تبقى جهوداً ضائعة لافائدة ترجى منها . فقيام الأحزاب والجمعيات هو الذي يبشر بالخير ، ذلك أن " التعاضد من غير نظام يبقى أبتر وأنه لابد لتكامل التعاضد من تأليف حزب نظامي"(٢٦) .

ونحن حين نود مناقشة الفكر السياسي للزهراوي ، والذي أراد نشره بين مواطنيه ، فإننا سنجده متتلمذاً على الفكر السياسي الأوربي عموماً ، وأراد أن ينقله بحذافيره تقريباً لو استطاع . لذلك سنرى كيف أنه يأخذ بمقولات ذلك الفكر في مجالات العمل السياسي كافة ويمكننا أن نلخص معالم الفكر السياسي عنده وفق مايلي :

١ – الحرص على أن تكون الحكومة (منصوبة) من قبل الأمة ، مقيدة بدستور محدد ، مما يسد منافذ الاستبداد . إذ يصبح كل شخص مهما علا شأنه خاضعاً للمحاسبة وللمساءلة عن سلوكه وتصرفاته " فالوقوف أمام منافذ الاستبداد أعظم الأعمال وتأييد الذين يقفون هذا الموقف أكرم الخلال " (٢٧) وبالنسبة لنصب الحكومة فإن (الزهراوي) يعتبر اللامبالاة من قبل الأمة تجاه هذه الناحية ، من جملة عوامل الضعف والتفكك في الأمة . ويعتبر هذه اللامبالاة نكوصاً وتراجعاً عن أمر وضع السلف " أصوله بالسيف والقلم أحسن موضع، فخلف من بعدهم خلف أضاعوا كل مقومات الأمة حتى صاروا خولا وعبيداً " (٢٨) وهو يعني بذلك أن أمر تقييد الحكومة بدستور ليس جديداً على العرب ، وليس بضاعة مستوردة من الغرب إلا من حيث الصورة والشكل والترتيب، " فمن عرف هذا يعرف أننا إنما اقتبسنا من أوربا طريقة من طرق ترتيب الاستشارة (الشورى) و لم نقتبس أساس الاستشارة على أننا لانعني بهذا أن الذي اقتبسناه من أوربة شيء هين وإنما قصدنا به إثبات عراقتنا بما هو روح القوانين الأساسية (الدساتير) " (٢٩) .

٢ – الايمان بالديمقراطية البرلمانية ، وضرورة وجود (برلمان) منتخب

من قبل الأمـة ، دون أي ضغـط أو إكـراه ، مـع إعطـاء هـذا المجلس السلطة الكاملـة لمحاسبة ومسـاءلة الحكومـة ، وإعطـاء الثقة (للنظـار) أو حجبهـا عنهـم ، وفـق مقتضيـات المصلحـة العامة والعمل على توعية الشعب لخلق رأي عام مستنير قـادر على انتخاب الأشخاص الأكفـاء لتمثيـل الأمـة والدفـاع عـن مصالحها وإذا كان لاحظ التلاعـب في الانتخابـات بأسـاليب مختلفة فإنه يحذر من تكـرار ذلـك " إي لعمـر الحـق يجب أن تتقـوا الله في أوطـانكم إن كنتـم مؤمنـين وإن كنتـم لتسـلط الأجانب كارهين فإنه ليس بينكم وبين ذلـك التسـلط إلا أن تخان الأمة في الانتخابات مرة أخرى والعياذ بـالله " ، وربمـا يكون من المناسب أن نشير هنا إلى كيفية مناقشته للانتخابات التي لم ينل فيهـا العضويـة لمنصـب الأعيـان وفي هـذه المناقشـة تبدو مرة أخرى السمة الموضوعية والمنطقية الهادئة في معالجتـه للقضايا : " فمن كان عارفاً كيف كانت حكاية الانتخابـات في البلاد كلها فحسبنا وحسبه مايعرفه ، ومن كـان لايعـرف فليـس بمهـم لدينـا إن ظـن ماشـاء : فمـن يظـن أن النـاس (المواطنين) كان لهم الخيرة واختاروا من هو خير منا فان ظنـه يسرنا ... ومن يظن أن الناس (المواطنين) هناك غلبـوا علـى أمرهـم ، أو أخطؤوا فانـا نقـول بـأن لهـم مالسـائر النـاس مـن المعاذير " [٣٠] وهـو يدعـو لأن تحمـل الانتخابـات إلى مجلـس (المبعوثـان) الأشـخاص ذوي الاستعدادات والكفـاءات مـن (الزعماء) الذين يستطيعون القيام بأعباء النيابة خير قيام .

٣ – الايمان بضرورة وجود الأحـزاب السياسية ويبـدو واضحـاً أن ذلـك يتمشـى مـع الإيمـان بالديمقراطيـة البرلمانيـة وبرأيـه أن " الأعمال الخيرية لاتقوم إلا بالجمعيـات (الأحـزاب) والأعمـال الأدبية لا تقوم إلا بالجمعيات والأعمال السياسية لاتقـوم إلا

بالجمعيات . . . " (٣١) . لأن التنظيم الحزبي يجعل أعمال الشعوب أكثر فعالية وأكثر تأثيراً " إن التعاضد من غير نظام يبقى أبتر وأنه لابد لتكامل التعاضد من تأليف حزب نظامي " (٣٢) . وهو يرى أن من واجب الأحزاب محاولة استقطاب جهود الجماهير وعدم اقتصارها على أفراد قليلين من المنتفعين: " ماذا تأمل الجامعة (الأمة) العثمانية من أفراد قليلين يدخلون في غمار الجمعيات التي تنادي وتدعو للاتحاد إذا كان أكثر الأفراد في أممهم يغلب عليهم الإهمال وعدم المبالاة" (٣٣) . وحين يحاول حزب (الاتحاد والترقي) الادعاء بأنه يستقطب الملايين في صفوفه يسخر (الزهراوي) من هذا الادعاء مبيناً أنه لاقيمة لحشد الجموع غير الواعية وغير الفعالة : " إننا إنما نعتد في هذا المقام بأنصار الأحزاب الذين هم من الأمة ، أي من عقلائها المفكرين ، ومن أولي العلم ، وذوي التجارات والزراعات . فهؤلاء هم الذين نقول أن عددهم في كل حزب ليس بكثير كثرة تذكر في يومنا هذا"(٣٤) أي أنه يعطي للفعاليات المؤثرة والنشيطة أهمية خاصة دون بقية المواطنين ؟ و (الزهراوي) يدعو إلى تعدد الأحزاب ، ويرفض رفضاً مطلقاً استبداد حزب واحد بالأمر، مهما كانت الشعارات التي يرفعها : " لايقتضي هذا الاتحاد (الجميل) --- وهو الشعار الذي حاول من خلاله حزب الاتحاد والترقي مصادرة الآراء - أن يكون أعضاء مجلس المبعوثان كلهم على فكر واحد تديرهم سياسة حزب واحد"(٣٥) . وقد مرت معنا مناقشة هذه المقولة عند (الزهراوي) هذه عند بحث الحرية في فكره السياسي .

٤ - إيمانه الراسخ بحرية الصحافة ، وحقها في ممارسة النقد ، ومحاسبة المقصرين ، أو بالأحرى كشف المقصرين . . كان

يرفض أن تكون هناك أية رقابة على الصحفي سوى رقابة وجدانه ، لذلك فهو يدعو زملاءه الصحفيين لوضع نصرهم وخذلهم في الموضع المناسب ، حتى لايرفعوا في أعين الأمة من هو أهل للخفض ، ولايخفضوا من هو أحق بالرفعة . وقد مرت معنا مناقشة ذلك عند بحث دور وسائل الإعلام في صنع الزعماء . . . ومن الطبيعي أن فكرة (الزهراوي) عن حرية وسائل الإعلام تتمشى مع منطق فكره السياسي (الليبرالي) .

د - وهو وتمشياً مع فكره السياسي المشتق أصلاً من الفكر (الليبرالي) الأوربي يرفض انخراط الجيش في العمل السياسي ، لذلك فهو يعتقد أن مهمة الجيش الأساسية هي الدفاع عن الأمة ، وحماية الوطن ، والخضوع لتوجيهات السلطة السياسية . أي أنه مع فكرة الجيش (المحترف) . وهو يدافع عن وجهة نظره هذه في أماكن كثيرة من كتاباته فهو يقول مثلاً : " الظواهر مخيفة ، لأن الضباط لايمكن أن يكون اتفاقهم في السياسة إلا مؤقتاً ، فإذا ظلوا على عملهم في هذه المهنة التي لاتناسب روح الوظيفة الواجبة عليهم فإنهم سيختلفون ، وعواقب اختلافهم أسوأ من عواقب اختلاف غيرهم من أفراد الأمة . . . " (٣٦) ويقول في مكان آخر : " فأما الضباط فلا تجربة لهم في هذه المسالك (السياسة) البتة والأولى عدم دخولهم فيها . . . . " (٣٧) .

٦ - يدعو (الزهراوي) لإقامة علاقات وثيقة مع الدول الأوربية للاستفادة من تقدمها وخبرتها في كافة المجالات . وهو يرفض فكرة مقاطعة الدول الأوربية : " قد يظن بعض الناس أنه لو تركتنا أوربا وشأننا لكانت حالنا أحسن وكنا نصلح أنفسنا بأنفسنا أما من يتحقق ويدقق فهو يعلم جيداً أن أوربا

كما ضرتنا كثيراً قد نفعتنا كثيراً ايضاً " [٣٨] و (الزهراوي) حين يدعو لإقامة علاقات مع أوربا فهذا لايعني أنه كان غير واع بمطامع الأوربيين ببلادنا ولكن لإدراكه بأنه لابد من وجود تحالفات وبرأيه أن على شعوب الدولة العثمانية لاسيما العرب اتباع سياسة (تكتيكية) تقوم على :

أ – أن لانجعل بيدنا كل شعوب أوربا خصوماً لنا دفعة واحدة ،

ب – أن يشتغل كل شعب منا بتقوية نفسه ولايتلهى أحد منا بتأميل غيره ،

جـ – أن نبقى متذكرين خير أوربا وشرها ومتيقظين لهما ، ومتذكرين وجوب التعاطف الحقيقي فيما بيننا ، وعاملين له بالحكمة ، من غير أن نزعج الدنيا بكلام أكثره فارغ ،

د – على المسيحيين (منا) رد دعوى (الحماية) الأوربية [٣٩] ،

وإذا كان يؤمن بضرورة الاستفادة من علوم وتقدم الأوربيين، فانه يدعو إلى التعاون مع (الإنكليز) خاصة ويظهر ذلك من تأييده لمطالب (ناظر الداخلية) بأن يكون الخبراء الذين تستعين بهم الدولة من الإنكليز ... " ليقل غيرنا ماشاء أن يقول ، أما نحن فلم يتبدل رأينا منذ سنين في أمرين يقترن أحدهما بالآخر : الأول : أن دولتنا لاتستغني عن دولة تأخذ بيدها ، وتكون ذائدة عنها شيئاً من طغيان تلك السياسات (الأوربية) المعهودة .

والثاني : أنه عند التأمل بالمنافع (المصالح) المتقابلة التي هي أساس السياسات كلها نجد أن انكلترة أجدر الدول أن تصدقها دولتنا بصداقتها ، وربما اعترض على هذا الرأي بعض إخواننا

المشتغلين بالسياسة وقالوا : إن تمكين الصداقة بيننا وبين انكلترة قد يخشى منه أن تندرج انكلترة بتمكين قدمها في مصر والكويت . والجواب على هذا في غاية السهولة وهو أن إمعان النظر في مجموع الأحوال الحاضرة يرشد إلى أن عدم تمكين الصداقة لايرجى منه أن يدفع المحذور ، بل قد يرجى بتمكين هذه الصداقة دفع ذلك الأمر المخوف " (٤٠) .

ومن الجدير بالتنويه أن موقف (الزهراوي) هذا كان في الحقيقة يمثل موقف أقطاب حركة التحرر الوطني في بلاد الشام من المسلمين أمثال (الزهراوي ورفيق العظم ورشيد رضا) وسواهم وقد كان موقفهم هذا يمثل سياسة (تكتيكية) واجهوا بها السياسة الفرنسية التي كانت لاتكاد تخفي مطامعها في سورية وموقف هؤلاء من (الإنكليز) هو الذي أثار عليهم غضب وحنق رجال الحركة الوطنية في مصر ، على اعتبار أن مصر كانت واقعة تحت حكم الإنكليز .

لذلك فقد سعى الوطنيون المصريون إلى مقاومة السياسة الإنكليزية ، بتكتيك آخر يقوم على الدعوة إلى إعادة مصر إلى حظيرة الدولة (العلية) بالتعاون مع (فرنسا) . وصلات (مصطفى كامل) مع الفرنسيين معروفة على اعتبار أن (فرنسا) هي العدو اللدود لانكلترة . فموقف كل من الحركة الوطنية في مصر وفي سورية وإن كان يبدو مناقضاً للآخر ، إلا أنهما في الحقيقة ينطلقان من سياسة (تكتيكية) واحدة . وقد وقعت مشادات صحفية عنيفة من جراء اتباع السياسات المتناقضة تجاه (الانكليز) وقد رد (الزهراوي) أكثر من مرة على بعض تلك الحملات ، وقد أشرنا من قبل إلى رده على إحدى الحملات ومن المناسب أن نشير هنا إلى رده على مقال نشر في مجلة (الهلال العثماني) حول العلاقة مع الإنكليز حيث يقول : " مع احترامنا لرأي الرصفاء كما هو معلوم

من مشربنا نود أن يتذكر رصيفنا أن السياسة المخوفة ليست في إنكلترة وحدها ، بل في أوربا كلها . وأن التفكير لمصلحة الدولة من حيث هي من مقتضاه النظر في كل مسألة من مسائلها من جهات متعددة لامن جهة واحدة " [٤١] وإذا كنا قد فهمنا دوافع (الزهراوي) وزملائه لاتباع السياسة (التكتيكية) المرحلية التي تدعو للتعاون مع الإنكليز ، وذلك بسبب التنافس بين فرنسا الطامعة في سورية وبين (انكلترة) ، فاننا نظن بأن ذلك التعاون كان باهظ النتائج ، لأنه كان يقوم بين طرفين غير متكافئين . مما أدى إلى وقوع الحركة العربية في نهاية المطاف تحت رحمة المطامع المشتركة لأعداء الأمس حلفاء اليوم . والحركة العربية وإن كانت مضطرة للتحالف مع قوة خارجية ، إلا أن ضعفها ، والجشع الرأسمالي في أملاك الدولة (العلية) ، جعلها (الحركة العربية) كمن (يجعل الضرغام في الصيد بازه) ويجب إلا يخطر ببالنا ولو للحظة أن رجالات الحركة الوطنية العربية كانوا عملاء للإنكليز أوسواهم فقد كان (الزهراوي) مثلاً يقول عند ذكر مطمع دولة من الدول في أملاك الدولة العثمانية : إن هذا ينال منا بعد أن تزهق أرواحنا"[٤٢] .

هوامش الفصل الخامس :

١ - محمد عبده ؛ الإسلام بين العلم والمدينة ، (القاهرة ، كتاب الهلال ، ١٩٦٠) ، ص١٦٥٠

٢ - عبد الحميد الزهراوي ؛ " تربيتنا السياسية -٩-" ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ؛ العدد٦٣ ، ٢٢ حزيران ١٩١١٠

٣ - محمد عبده ، المصدر السابق ؛ ص١٦٥٠

٤ - عبد الحميد الزهراوي ، المصدر السابق .

٥ - عبد الحميد الزهراوي ؛ " نظام الحب والبغض " ، بمجلة المنار ، مصدر سبق ذكره .

٦ - عبد الحميد الزهراوي ، "رسالة سرية مرسلة من الزهراوي لمحمد رشيد رضا ، نشرت بمجلة المنار ؛ بعيد استشهاد الزهراوي كما نشرت في مجلة الحرب العظمى .

٧ - عبد الحميد الزهراوي ، "الأفراد والجماعات " ، بمجلة الانسانية ، الجزء الثاني ؛ السنة ٢ ،١٤|٥|١٩١٤،ص٤١ .

٨ - عبد الحميد الزهراوي ؛ " نظام الحب والبغض "مصدر سابق .

٩ - المصدر السابق .

١٠ - المصدر السابق .

١١ - عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية ١ " ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٥٣ ، ١٢ نيسان ١٩١١ .

١٢ - المصدر السابق .

١٣ - المصدر السابق .

١٤ - عبد الحميد الزهراوي ؛ " تربيتنا السياسية -٩-" ، جريدة الحضارة ، السنة٢ ، العدد٦٣، ٢١حزيران ١٩١١٠

١٥ – عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية -٧-" ، جريدة الحضارة ، السنة٢ ، العدد٥٩، ٢٥ مايس ١٩١١ .

١٦ – المصدر السابق .

١٧ – المصدر السابق .

١٨ – المصدر السابق .

١٩ – المصدر السابق .

٢٠ – المصدر السابق .

٢١ – المصدر السابق .

٢٢ – المصدر السابق .

٢٣ – عبد الحميد الزهراوي ، " حروبنا الداخلية " ، جريدة الحضارة ، السنة٣، العدد ١١٨، ١١ تموز ١٩١٢ .

٢٤ – عبد الحميد الزهراوي ، " اليوم وبعد اليوم " ، جريدة الحضارة ، السنة٢، العدد ٨٠، ١٩تشرين الأول ١٩١١ .

٢٥ – عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية -٢-" ، جريدة الحضارة ، السنة٢ ، العدد٥٤ ، ٢٠نيسان ١٩١١ .

٢٦ – عبد الحميد الزهراوي ، " خواطر السياحة -٥-" ، جريدة الحضارة ، السنة٢ ، العدد ٧٩ ، ١٢ تشرين الأول ١٩١١ .

٢٧ – عبد الحميد الزهراوي ، " النظار -٣-" ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٦٨، ٢٧تموز ١٩١١ .

٢٨ – عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية -٢-" ، جريدة الحضارة ، السنة٢ ، العدد ٥٤، ٢٠نيسان ١٩١١ .

٢٩ – عبد الحميد الزهراوي ، " اتقوا الله في أوطانكم " ، جريدة الحضارة ، السنة٣ العدد ١٢٣، ١٥أغستوس ١٩١٢ .

٣٠ – عبد الحميد الزهراوي ، " إلى قرائنا الأعزاء " جريدة الحضارة ، السنة٣ ، العدد١١١، ٢٣مايس ١٩١٢ .

٣١ - عبد الحميد الزهراوي ، "الأفراد والجماعات "، مجلة الانسانية ، مصدر سبق ذكره .

٣٢ - عبد الحميد الزهراوي ، "خواطر السياحة -٥-"، جريدة الحضارة ، السنة٢ ، العدد٧٩، ١٢تشرين أول ١٩١١.

٣٣ - عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية -٣-"، جريدة الحضارة ، السنة٢ ، العدد٥٥، ٢٧ نيسان ١٩١١.

٣٤ - عبد الحميد الزهراوي ، "النظار -٣-". جريدة الحضارة ، مصدر سبق ذكره .

٣٥ - عبد الحميد الزهراوي ، "تربيتنا السياسية "، جريدة الحضارة ، مصدر سبق ذكره .

٣٦ عبد الحميد الزهراوي ، "لاخوف اليوم "، جريدة الحضارة ، السنة٣ ، العدد ١٢١ ، ٢ اغستوس ١٩١٢.

٣٧ - عبد الحميد الزهراوي ، الرسالة السرية لمحمد رشيد رضا ، مصدر سبق ذكره .

٣٨ - عبد الحميد الزهراوي ، "بعض أحوالنا الحاضرة ، لانيأس وان كانت دواعي اليأس كثيرة "، جريدة الحضارة ، السنة٣ ، العدد ١١٧ ، ٤ تموز ١٩١٢.

٣٩ - عبد الحميد الزهراوي ، "بعد أربع سنين ، سقوط استبداد ثان -"، جريدة الحضارة ، السنة٣ ، العدد ١٢٠ ، ٢٥ تموز ١٩١٢.

٤٠ - عبد الحميد الزهراوي ، "أشياء جديدة - تزييد التكاليف - المفتشون الأجانب - التقرب من الانكليز - "، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١١٦ ، ٢٧ حزيران ١٩١٢.

٤١ - المصدر السابق .

٤٢ - انظر ، محمد رشيد رضا ، "مصابنا بالزهراوي "، مجلة المنار ، ج٣ ، م١٩ ، ص١٨٦.

الفصل السادس

مقاومة التعصب

التعصب فرع شيطاني من شجرة العنصرية المقيتة ، وتعبير فج عن فكر متخلف وبدائي ، وبقية من الجاهلية الأولى ، أيا كان الوثن الذي يطوف حوله ، أو يتعلق بأستاره . وقد عرفت الإنسانية ومازال ، نوبات من (هيستريا) التعصب ، هذه الظاهرة التي تشكل حاجزاً يعوق التواصل بين أركان البناء الاجتماعي ، ويمنع الاتصال الفعال والمنتج بين أعضاء المجتمع الواحد .

والتعصب ، وكما هو واضح ، نوع من الحيل النفسية والاجتماعية الفاشلة ، التي لاتستند إلى مبادئ إنسانية من العدالة والحرية والمحبة ....

و (الزهراوي) بما عرف عنه من حرص على العدل في التعامل مع الآخرين ، ومن تقديمه للعقل والمنطق في تناوله لكل الأمور ، لايمكن إلا أن يكون في الطرف المناقض للتعصب ، طالما أن التعصب يدفع صاحبه إلى اقتراف أعمال هي أبعد ماتكون عن المنطق والعدل والعقل والصواب ، وطالما أن التعصب نوع من التطول على حقوق الآخرين ، وعدوان على حريتهم ، واستلاب

لكرامتهم الإنسانية . و (الزهراوي) عاش حياته مناضلاً في سبيل العدالة والكرامة ، ومات شهيداً فداء لها .

والتعصب الذي كان يحاربه يشمل :

١ - التعصب الجنسي (العنصرية العرقية) .
٢ - التعصب الفكري (الجمود على أفكار معينة) .
٣ - التعصب الديني (النعرات الطائفية) .

أولاً - محاربة العنصرية العرقية :

لعل التعصب العرقي ، والعنصرية العرقية ، من أقبح أنواع التعصب " وأقبح من تلك التعصبات الباطلة الفخر بالأنساب ، وتخيل الشرف والمجد بالتولد من ذلك الوالد ، وذلك الجد ، وإن تلك لأوهام باطلة لاتروج إلا على العقول العاطلة " (١) .

ويتمثل هذا النوع من التعصب بظن قوم أنهم يمتلكون من الصفات والمزايا والقدرات مالايملكه غيرهم فيرتبون لأنفسهم من دون الآخرين حقوقاً ، ويعتقدون بأنهم الأحق بالقيادة والزعامة . وقد كان الأتراك عموماً ، وجماعة الاتحاد والترقي خصوصاً ، من هذا الصنف من الناس ، حين جعلوا من جنسهم الطوراني جنساً متميزاً ، يمتلك - برأيهم . أنبل الفضائل ، وأزكى الخصال . وقد كان لاتجاههم العنصري هذا ، أكبر الأثر في إنزال الكوارث بالشعوب التي كانت منضوية تحت لواء الدولة العثمانية . وكان للعنصرية الطورانية البغيضة أكبر الأثر كذلك في التعجيل بتفكيك الدولة العثمانية ، وفصم عرى الترابط - الضعيفة أصلاً - بين شعوبها .

وقد حاول (الاتحاديون) في سبيل تزيين دعواهم العنصرية ، وترويجها ، أن يزوروا التاريخ ، وينسبوا للأتراك ماليس لهم من المفاخر ، ويضموا إلى صفوفهم علماء وقادة ومشهورين لم تجر في عروقهم الدماء التركية من جهة ، ولم تكن ثقافتهم . إن كانوا أتراكاً . ثقافة تمت إلى الأتراك بصلة من جهة ثانية . وقد نعى (الزهراوي) على هؤلاء تدليسهم ، وتزويرهم للتاريخ ، وادعاء ماليس لهم بحق . ودعا قومه العرب للانتباه واليقظة " لايؤخذ على من يحتفظ بآثار قومه ، وينشر محاسنهم ، ويستنهض همم أبنائهم للاقتداء بهم واقتفاء آثارهم ، ولاينكر عليه أن يبذل أقصى مافي وسعه لتخليد ذكرهم ، لأن ذلك من مقتضى طبيعة النوع ، ومن أشد عوامل الإرشاد تأثيراً كما قلنا . وإنما يؤخذ عليه إسرافه في ذلك ، وتبجحه بالباطل ، وتزينه بماليس عنده . ثم يتضاعف عليه النكير ، إذا انتحل حق الغير ، وأغار على مفاخر الأقوام (إذا أعوزته المفاخر) ، فنسبها إلى قومه ، وعدى على آثارهم فحاول طمسها ، ليتسنى له إضافتها إلى ذويه " (٢) .

فالزهراوي إذاً ضد الادعاء ، وضد المبالغة في المباهاة الباطلة بأمجاد الأجداد ، لأنه يعتبر ذلك عدواناً وظلماً لأنه : " من العدوان المبين الذي مضى على إنكاره الشرع والعقل ، ونبت عنه طبائع الناس وتقاليدهم ، واشمأزت منه نفوس الذين يتذوقون معنى المناقب الموروثة والمفاخر المأثورة " (٣) وقد كان الزهراوي بكلماته السابقة يعلق على محاولة الاتحاديين تزوير التاريخ ، ونسبة الكثير من المفاخر والأمجاد للأتراك بالباطل ، وذلك حين أقاموا مهرجاناً خطابياً في أحد مسارح (استانبول) خصصوه للتأكيد على أن التتار والأتراك جنس واحد ، وأنهم من أصحاب الحضارات والمدنيات . بل وقد ذهب بأحدهم الخيال إلى حد الادعاء بأن الأتراك هم مؤسسو مدينة بابل ، وأن الأتراك والمصريين - بالتالي - هم أساتذة الدنيا .

وقد تهكم الزهراوي على الكثير من الدعاوي التي قيلت في هذا المهرجان ، وسخر من سعي الاتحاديين الجنوني لصنع ماض مجيد للأتراك ، بأي ثمن كان . وتهكم على زعم أحد الخطباء بأن الأتراك سعوا في ترقية المدنية الإسلامية ، وادعائه بأن الكثير من أعلام الفكر العربي الإسلامي هم من أصل تركي ، من أمثال (الفارابي وابن سينا والبخاري ... والخوارزمي ... وسواهم . وزعم أن هؤلاء لم يعدوا عرباً إلا أنهم كانوا يكتبون ويتكلمون العربية ، وكأن الإنسان يحتاج إلى شيء آخر حتى يكون عربياً سوى المشاعر والإرادة ، ومانظن أولئك الأعلام الأفذاذ كانت لديهم الرغبة في أن يكونوا اتحاديين طورانيين .

والاتحاديون ، إلى جانب دعواهم بأن الطورانيين جنس متفوق ، له أن يقود ، وماعلى الآخرين إلا السمع والطاعة ، حاولوا طمس مقومات القوميات الأخرى في الدولة ، وهدم حقوقها ، وإرجاعها كلها إلى إرادة ورغبة الاتحاديين ، الذين جعلوا من الخوف من وقوع الفرقة بين عناصر الدولة " ذريعة لهدم حقوق العناصر (القوميات) والقضاء على مميزاتها ، ومقومات حياتها ، وتحويلها إلى عنصر مخصوص (الترك) ، تفنى إرادتها في إرادته ، وتخفى أشخاصها في شخصه ، وتسخر قواها لخدمة منافعه . هذا إلى ماأهرقته من الدماء البريئة ، واجترمته من الإرهاق والتعذيب والحرمان والتذليل لمن خالف مبدأها واستنكف عن خدمة غاياتها"(٤) بل لقد ذهبت العنجهية بالاتحاديين إلى حد ترويج أفكار خاطئة في أذهان بسطاء الأتراك ، بغية نفخ أوداجهم بروح التعصب المقيت ، حتى أصبح الأتراك " يظنون أن كل هذه الملايين (العرب) تعيش تحت الخيام ، ولاقوت لها سوى لحوم الإبل وألبانها ، ولالباس لهم إلا النسيج من أوبارها " ... وكلمة (عرب) ترادف في لغتهم الدارجة (الأسود) وليس هذا من أصل لغتهم وإنما هذا مما طرأ على الدارجة عندهم ... " (٥) .

والزهراوي ، مع كل ماكان يعرفه ويلمسه ويعانيه من العنصرية التركية على يد جماعة (الاتحاد والترقي) ، ومع اشمئزازه من دعاويهم ، وتهكمه من مقولاتهم ، لم يكن ليسمح لنفسه بارتكاب الخطيئة نفسها ، واللجوء من ثم إلى ردود الفعل ، ليعلن مثلاً بأن العرب من أزكى الشعوب وأعرقها وأكفئها ، فهو مع اعتزازه بالعرب ، وفخره بانتسابه إليهم ، إلا أنه ينطلق دائماً من منطلقات العقل والمنطق والعلم : " فإنه لامعنى عند أهل العلم (علم النفس وما يصلحها وعلم الأخلاق) لتعصب كل قوم على آخرين بغير الحق إلا الإثم والعدوان والبغض والطغيان " [٦] . وهو حين يدعو قومه العرب إلى الاهتمام بتاريخهم وأمجادهم وحين يبث فيهم روح التجدد ليعملوا على النهوض ، وتكثير العلماء بينهم ، فإنه يدعو لمثل ذلك لكل شعوب الدولة العثمانية ، ويرفض أن تصادر أمجاد أي شعب ، وحقه في الاهتمام بخصوصيته ، بدعوى الحفاظ على الاتحاد (العثماني) " فمن لاقومية له لايأمنه على الوطن إلا خائن " .

ثانياً – مقاومة الجمود ورفض التعصب الفكري :

ونعني بالجمود الفكري الاقتناع الأعمى بما نقل عن المشهورين الأقدمين والمحدثين من الآراء والأفكار . فالجامدون أولئك الذين تخلوا عن عقولهم لحساب عقول الآخرين ... " أما استحسان كل المعقولات ، فمن أهل الفكر نتيجة نظر وتأمل ، ومن أهل التقليد نتيجة ثقة بالمقلدين ، والأولى أن لايعد استحسان هؤلاء استحساناً ، لأننا إذا أدخلناهم في صف من لافكر لهم من المخلوقات لم يكن عملنا غير الصواب ، لأنه هو المطابق لروح الواقع ... " [٧] وهذا التقليد الأعمى للمشهورين من القدماء ، هو

الذي جمد العقول ، وأدى إلى تراجع الأمة " ولأنظر ماذا يقول الذين غلوا في حسن الظن بعقول من تقدمهم ولو بنزر قليل من السنين ، ذلك الظن هو الذي عظم شأن تلك السيطرة التي قيدت الألباب ، وأغلقت الأبواب ، وقطعت الأسباب ، وقام مقام سلطة الأرباب " (٨) فهو يعتبر الجمود عند أقوال الآخرين ، خاصة المشهورين من القدماء ، نوعاً من العبودية التي يجب التحرر منها ، لذلك نجده يقسو كثيراً على المقلدين ، ويثور عليهم ، ويدعو إلى تحطيم كل القيود التي تكبل العقل دون أن يعبأ بما يجره عليه ذلك . " ولعل فريقاً من الذين يقدسون الأزمنة بقدمها يلوموننا على هذا الكلام " (٩) وقرر أن يمضي بهذه الطريق حتى النهاية ، لأنه اعتقد أن الكثير من المشكلات التي تواجهها الأمة ، إنما نجمت عن تمسك الجامدين بأقوال مشهورة ، والوقوف عند ظاهرها ، دون محاولة عرضها على محك العقل والمنطق . وسوف نعود للتفصيل في قضية التجديد والتقليد ووجهة نظر الزهراوي في الموضوع في مكان آخر من البحث .

ثالثاً – مقاومة التعصب الديني :

اللعب على الوتر الديني والطائفي ، نشاط أتقنه الاستعمار، إذ وجد فيه الفرصة التي نفذ منها إلى الدولة العثمانية ، المشكلة أساساً من فسيفساء كبير من الملل والنحل والطوائف والأديان . وكم كان الأمر محزناً وفظيعاً ، حين نجح الاستعمار في لعبته الدنيئة، ووجد من يتفاعل معها إلى درجة القطع التام مع أبناء وطنه وجيرانه . فشهدت المنطقة العربية لأول مرة ، ماصار يعرف بالطائفية . وصدق بعض المخدوعين والمضللين ، ماأوحاه لهم الاستعمار ، فتحولوا دون أن يدروا ، إلى وقود لهذه الطائفية ، التي

كانت بمثابة حصان طروادة الذي حمل الاستعمار إلى عمق الوطن. وقد ذكرنا من قبل كيف أدى التجار والسماسرة والمبشرون هذا الدور بإتقان.

وقد حاول قناصل الدول الأوربية غرس الفتنة، ليس بين المسلمين والمسيحيين فقط، إنما بين الطوائف المسيحية المتعددة. إذ احتضنت كل دولة فئة من المواطنين وأغدقت عليهم، أو بالأحرى على زعمائها النعم والمزايا المختلفة. والمخدوعون فقط هم الذين صدقوا ومازالوا، أن الاستعمار كان مخلصاً في احتضانه لفئات من المواطنين وادعائه أنه حاميها ومنقذها... والمضللون فقط، هم الذين انطلت عليهم هذه الحيلة، فاندفعوا وراء المخططات الخبيثة للدول الأوربية، وأقدموا على اجتراح أعمال كانت السبب في إحداث شرخ هائل في البنيان الاجتماعي الذي ظل متماسكاً قروناً عديدة.

وقد تفنن المبشرون والقناصل في إثارة الروح الطائفية، وروح العداوة والكراهية، بين أبناء الوطن الواحد، والأمة الواحدة. كما تفننوا في إغراء شعوبهم الأوربية لتأييد مخططاتهم ومشاريعهم، تحت ستائر الدين تارة، والمصالح الاقتصادية تارة أخرى. فكانت رسائلهم وخطاباتهم إلى دولهم، والى الجهات المهتمة بنشاطاتهم، تضج بالتحريض. ففي الرسالة التي بعث بها القنصل الفرنسي بدمشق إلى المكلف بأعمال القنصلية الفرنسية في (استانبول) بتاريخ ١٩/٢/١٩١٤ نستطيع أن نجد هذه الروح العدائية تجاه العرب وتجاه الحضارات الأخرى. فهو يدعي بهذه الرسالة بأن الدين هو المحرك الرئيسي للأحداث في الشرق ويشير إلى أن الرجعي المتخلف، والتقدمي الثوري، والذي درس في معاهد أوربا، كل من هؤلاء يعمل في النهاية وفق معتقده الديني، ووفق الكتب المنزلة. لذلك فهو (القنصل الفرنسي في دمشق)

ينصح برعاية الطوائف الصغيرة ؟ وتشجيع الطوائف غير الإسلامية ضد الحركة الإسلامية . وهو يفسر الحركة الوطنية العربية التي كانت تسعى للتحرر من العثمانيين ، وبناء النهضة العربية ، تفسيراً دينياً ، حين يدعي بأن الأحزاب التي شكلت في دمشق (المحمدي – الائتلافي – الإصلاحي) لم توجد إلا لنصرة الدين العربي ؟ وإن المشاعر التي سعت لتحريكها هي مشاعر تجديد الخلافة العربية ، ونصرة دين محمد والعرق العربي . ويؤكد على وجهة نظره القائلة بأن الدين هو المحرك الأول والفعال لكل الأنشطة السياسية والاجتماعية والوطنية مسقطاً كل الأسباب الموضوعية : " لاتجد أحداً أكثر لامبالاة من شعوب هذه البلدان عندما لايكون الدين معنياً ، وعندما لايوقظ تعصبهم الديني من قبل القادة الذين يوجهونهم ويضبطونهم حسب الرغبة " . ويمضي في التهجم على الشعب العربي فيصف السوريين بأنهم " قشة تجمعهم والعصا تفرقهم ... والقادة لايخضعون إلا للمصلحة الشخصية وإلا للمشاعر غير المستوحاة طبعاً من الحب . وهنا لايعتبر وطنياً ونشيطاً ذلك الذي يحب بلده أكثر ، إنما ذاك الذي يتقن بغض المسيحيين ؟ .... والتسامح فضيلة قليلة الشيوع في سورية ؟ والإخلاص الصادق للصالح العام أكثر ندرة " (١٠) إن مثل هذه الدعاوي التي كانت تشغل القناصل الأوربيين (الفرنسيين – الانكليز – الألمان) لم تكن بطبيعة الحال غيرة على الدين المسيحي ، أو حرصاً على مصلحة المسيحيين ، الذين هم في الحقيقة أولاً وآخراً مواطنين عرب ، في منطقة عربية ، بغض النظر عن معتقدهم . إنما كان بقصد خلق التربة الصالحة لنمو الجرثومة الاستعمارية ، وبقصد خلق البلبلة في الصفوف ، وبقصد خلق نقاط ارتكاز للوثوب منها على المنطقة ، باتباع سياسة فرّق تسد . فاحتضنت كل دولة أوربية طامعة في المنطقة فئة من دون الآخرين ؛ وحاولت أن توحي

اليها بأنها حاميتها ، وبأن بينهما من العلائق التي تقوم بينهم وبين مواطنيهم وجيرانهم الأقربين . وقد نجحت هذه السياسة الشيطانية إلى الدرجة التي دفعت بعض المغرورين للادعاء بأنهم جزء من أوربا، وأن حضارتهم (كفئة متميزة) جزء من الحضارة الأوربية . أو لقلب هذه المقولة ، في محاولة لدغدغة المشاعر ، والقول : بأن حضارة أوربا جزء من صنيع أجدادهم .

وبدأ زعماء كل فئة يوجهون البسطاء والعامة باتجاه الجهة التي تمولهم (الزعماء) . لذلك كان حرص القنصليات على اصطياد بعض الأفراد المتنفذين بطوائفهم واحتضانهم والإغداق عليهم بسخاء ، نشيطاً وقوياً .

فإلى جانب إتاحة فرص التعليم لأبنائهم وأقاربهم ، جعلت منهم وكلاء لمصالحها المختلفة ثم عمدت إلى تسريبهم لصفوف الحركة العربية في محاولة لإحتوائها وتوجيهها . وقد كتب القنصل الفرنسي في دمشق إلى وزير خارجية بلاده " ... وصرح المسيحيون الذين اتصلت بهم أنهم لايرجون نفعاً من انضمامهم لجمعيات الإصلاح مع المسلمين سوى تدخل فرنسا وهم يعتقدون أن سورية لاتستطيع أن تحكم نفسها بنفسها وإن كانوا لايصرحون للمسلمين بذلك " (١١) .والمسيحيون الذين يعنيهم (سعادة القنصل) هنا لايشملون بطبيعة الحال المخلصين لعروبتهم ، إنما يشملون أفراداً رباهم المبشرون والقناصل والجواسيس . فهذا (خليل زينية) صاحب جريدة (الثبات) البيروتية ينضم إلى حركة الإصلاح وهو يحمل بين جنبيه فكراً مشبعاً بما كانت البعثات الفرنسية - على أنواعها - تحقنه في العقول وفي النفوس . نقول هذا (خليل زينية) يحمل رسالة إلى القنصل الفرنسي في بيروت يضمنها مطالب المسيحيين ـ على زعمه - وقد جاء في هذه الرسالة" .... وتصل عقلية المسلمين في الواقع إلى اعتبار

المسيحيين المسؤولين الفعليين عن المصائب التي تحل بالامبراطورية إلى حد اعتبارهم الأعداء الحقيقيين وسيكون المسيحيون موضوعاً لكل أنواع الابتزاز ولكل أنواع الاستبداد ... (وبعد أن يبين رأيه بأن لاأمل في الإصلاحات يتابع) ... وحتى في حال الافتراض بأن الإصلاحات ممكنة التطبيق - مع أو بدون مؤازرة أوربا - فان هذا الحل لايمكن أبداً أن يستجيب لأماني مسيحي سورية الحقيقية ؟ فهؤلاء مرتبطون بفرنسا ارتباطاً نهائياً .. إن الأمنية الكبرى لمسيحيي سورية هي بسط الحماية الفرنسية على سورية " (١٢) .

وتجدر الإشارة هنا أن (خليل زينية) هذا وأمثاله كانوا مكشوفين من قبل حركة الإصلاح (البيروتية) ومن قبل (الزهراوي). لذلك نؤكد مرة أخرى أن كلام (د. وجيه كوثراني) ليس دقيقاً فيما يتعلق (بالزهراوي) وأعمال المؤتمر العربي في باريس حيث نجد في الرسالة السرية التي أرسلها (الزهراوي) (لمحمد رشيد رضا) شيئاً يتعلق (بخليل زينية) ومن لف لفه فبعد أن يصف كيف كانت أعمال المؤتمر ملفقة وكيف بذل الوسع لإخراجه (مرونقا) يقول : " وبقيت - ياعزيزي - وحدي أمثل الفكرة (العربية من وجهة نظر اللامركزيين " وبقي (خليل زينية وأيوب ثابت) وهما لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية (الأمة العربية) ولاقطرة واحدة حتى ولامن الجامعة السورية وإنما همهما بيروت وحدها لاشريك لها ولكن لأنهما متعلمان سايراني وسايرتهما .... ولم يكن مثل هذا التواد ولاربعه بينهما وبين رفقتهم من البيروتيين المسلمين " (١٣) .

وهذا (شكري غانم) يقول في رسالة له إلى (مسيو بيشون) وزير خارجية فرنسا آنذاك " إننا نعمل من أجلها (فرنسا) ومن أجل بلدنا "*(١٤) .

ودفعاً لأي التباس لابد أن نذكر هنا بأن الذين ساروا في طريق العمالة للمخططات الأوربية عامة ، والفرنسية خاصة ، هم أفراد وليسوا طوائف ، إذ كان من بين المسيحيين زعماء للحركة العربية ، وسيظل هؤلاء أعلام نضال تزدهي بأعمالهم صفحات التاريخ العربي الحديث ، كما إن بعض أفراد من طوائف أخرى (غير مسيحية) كانوا من جملة العملاء دخلوا صفوف الحركة العربية سعياً وراء المكاسب الشخصية .

ونود أن نؤكد مرة أخرى أن بذور الطائفية الخبيثة إنما تعود إلى السياسات والأطماع الأوربية في الوطن العربي ، ولاتعود لأي سبب عقائدي – عند كل الأطراف المحليين – والدليل على ذلك أن الوطن العربي لم يعرف مثل هذه الاصطدامات . وإن حدث وجرت بعض الأحداث المتفرقة ، فهي حوادث فردية منعزلة ولايستطيع أحد أن يربط بينها بسلك (ايديولوجي) مهما حاول . أما ماسمعنا عنه من فتن طائفية في القرن الماضي ومازلنا نتوجس من شبحه المخيف فان أسبابه الحقيقية أسباب خارجية استفادت منها بعض الفئات المرتبطة بالمخططات الأوربية . وعندما نقول فئات فلا نقصد أتباع دين معين ، إنما نقصد أفراداً استفادوا من الصيد في هذه البركة الآسنة ، فجروا وجرّوا وراءهم بعض المضللين من أبناء طائفتهم ، أياً كانت هذه الطائفة . وإلا كيف نستطيع فهم

* نجد في كتاب د. ذوقان قرقوط – المشرق العربي في مواجهة الاستعمار ، قراءة في تاريخ سورية المعاصر - عدة رسائل أرسلها (شكري غانم) بعد الانتداب إلى المسؤولين الفرنسيين يبارك خطواتهم ومخططاتهم تجاه سورية.

الأحداث الرهيبة التي أنزلتها بعض الطوائف بالطوائف الأخرى " فالاصطدامات مع النصارى لم تكن في الغالب إلا للاحتجاج على تعاون المتنفذين من هؤلاء مع أعداء العامة ومهددي مصالحها وإلا للاحتجاج كذلك على المزايا التي حصل هؤلاء عليها من دون الآخرين والدليل على ذلك أن النصارى لم يكونوا ليؤذوا حتى في أحلك الظروف عندماكانوا بعيدين عن جو الامتيازات... وعلى الرغم من انعدام السلطة الرسمية ، واستفحال أمر الفوضى في أحداث أيلول عام ١٨٣١ فان العامة الثائرة لم يبد منها أي أثر للتعصب ضد النصارى .... " [١٥] فالأحداث والفتن التي حدثت تعود إذاً لأسباب اقتصادية والاستعمار هو الذي وضع مصالحه وجعل وكلاءه من أفراد فئات معينة - عن قصد بالطبع - وهذه الفئات التي صارت وكيلة للشركات الأوروبية الراسمالية هددت بالتالي مصالح شرائح واسعة من الحرفيين والعامة وسببت الكثير من الأزمات ، فكان لابد من معاداتها ، انطلاقاً من المصلحة الاقتصادية ، والدفاع عن الذات وعن الوجود ، وليس انطلاقاً من أسباب دينية أو طائفية . وإذا كان " المسيحيون قد ربطوا أنفسهم بعملاء القوى الغربية الذين كان نفوذهم يتزايد في المنطقة ، ومن الواضح أن المسيحيين قد دفعوا إلى هذا التصرف بأنانيتهم الطائفية دون أدنى اهتمام بمشاعر جيرانهم المسلمين ولم يكن من المحتمل أن ييسر مثل هذا السلوك الطريق إلى نظام اجتماعي يتجاوز الطوائف الدينية بل على العكس خلق توتراً داخلياً بين الطوائف وكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى القلاقل عام ١٨٦٠ بيد أنه كان هناك مسيحيون آخرون استطاعوا أن يروا الأخطار التي ينطوي عليها مثل هذا السلوك " [١٦] .

فجرثومة الطائفية ، والتعصب الديني ، مستوردة وغريبة عن مشرقنا الذي عرف دائماً التعددية المذهبية ، والذي تعايشت على

أرضه الآراء والعقائد المختلفة . فلم يشهد الشرق حتى في أحلك أيامه الفتن الطائفية والدينية . حتى عصر الشهداء ، الذي لاقى فيه المسيحيون المؤمنون مالاقوه من الأذى والعذاب والتنكيل مما اضطرهم إلى الالتجاء إلى رؤوس الجبال ، وإلى أعماق الصحراء حيث كان المؤمن منهم يحمل صليبه ، ويتوقع أن يقوده إيمانه إلى حتفه في كل لحظة ، فان ماكان يلاقيه هؤلاء المؤمنون لم يكن على يد جيرانهم ومواطنيهم ، إنما كان على يد الرومانيين (الأوربيين) الذين لم يكن أفقهم يتسع لاحتمال مثل هذه (الهرطقة) ....

والذي قصدنا إليه من كل ماذكرناه أن المنطقة كانت مسرحا للعبة استعمارية كريهة ، تهدف إلى فصم عرى الجوار والمصلحة والمحبة بين أفراد المجتمع الواحد ، وذلك بقصد خلق الظروف المواتية لتسلل البضائع والمصالح والمخططات الأوربية . ولم يكن يهم مدبري تلك اللعبة مدى قذارة الوسائل التي استخدموها . وإن كان ليحزننا أن يقع البعض ـ من كل الفئات والجهات – ضحايا لهذه الوسائل الخبيثة . ويحزننا أكثر أن هذه السياسة قد أدت إلى وقوع الكثير من المآسي والفظائع التي ارتكبت – ظلماً – باسم الدين . ويحزننا ويخيفنا أكثر أن تجد هذه السياسة القذرة من يتبناها ويتخذها عقيدة ومنهاجاً ، ويعمل بهديها ، فيعزل نفسه عن محيطه، ويلتحق بفكره وتفكيره ، بالمشروع (الامبريالي) وينطلق بخطابه السياسي والأيديولوجي من منطلقاته .

ولكن كيف حاول المتنورون من مفكري عصر النهضة مواجهة هذا المخطط الرهيب ؟ إننا سندرك ذلك من خلال مافعله (الزهراوي) في مواجهة هذه المؤامرة الخسيسة ، والتي كانت قد بدأت تأخذ أبعاداً وأنماطاً متعددة المظاهر تهدف إلى تفكيك الدولة العثمانية واقتسامها أكثر من أي شيء آخر ... وقد انطلق (الزهراوي) في تصديه لهذا المخطط من منطلقات عقلية ومنطقية

كعادته دائماً ، فهو في البداية حاول أن يؤكد على أن الدين كله لله ، وإن اختلفت الأساليب والشرائع في عبادته والتقرب إليه « دين الرسل كلهم واحد في الحقيقة ، وإنما تختلف نشأة الأديان ، وفروع تعاليمها ، وسرعة نشرها ، ومنهاج إقامتها ، باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص . لذلك ترى الذين سلمت فهومهم من غوائل التقليد ، لايفرقون بين أحد من رسل الحق " [١٧] فالأديان " تختلف صورها ، وجوهرها واحد » [١٨] ويؤيد مذهبه في وحدة الدين – في جوهره ـ بأدلة من القرآن الكريم ومن الإنجيل فمن القرآن " قل ياأهل الكتاب (علم على اليهود والنصارى) تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم (هي) أن لانعبد (أي لانرجوا ولانخاف شيئاً من الأشياء رجاء يقارنه حب واحترام وشوق وهيام وخوفاً يقارنه هيبة وإعظام وخنوع واهتمام) إلا ا لله (الصانع المدبر من به قوام الكوائن وإليه يعود نظامها) ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً (أي بمقام الأرباب من السلطة المطلقة) من دون ا لله (بل لله وحده السلطة المطلقة والكمال المطلق والقدس المطلق) ، أفلم تروا أن قوله (سواء بيننا وبينكم) يفيد مانحن بصدده من وحدة جوهر الدين" [١٩] وقد أورد بعد ذلك جملة من الآيات لتأييد مايذهب إليه ثم أورد شواهد من الإنجيل منها : " سئل السيد المسيح : يامعلم أي وصية هي العظمى في الناموس فقال له يسوع : تحب الرب من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ، هذه هي الوصية الأولى والعظمى والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء " * .

ألم تروا كمال المطابقة بين ماعبرنا عنه هنالك وبين ماعبرنا عنه هنا " [٢٠] وبعد ذلك يحاول أن يبرهن على وحدة جوهر

---

* إنجيل متى ـ سفر الأنبياء . ص٦٢.

الأديان بطريق العقل والمنطق " إن فروع كل قانون من قوانين العالم في الأخلاق وفي نظام الاجتماع تكون بحسب الجيل والقبيل ، وقد يحدث في فهم المخاطبين بها تفاوت فيكون البون بين قانون وقانون، وهذه أمثلة من ذلك :

١ - في بعض الأجيال سن عمل شيء لتأليف القلوب وفي أجيال أخري كان ذلك العمل من مفرقاتها ،

٢ - في بعض الأجيال شرع عمل لضرورة وفي أخرى لم تكن الضرورة تلك ،

٣ - خوطب قوم برموز فأخذها آخرون على ظاهرها وخوطب قوم بصريح فقالوا هذه رموز ،

٤ - رغب قوم بسعادة الحس وأرهبوا من شقائه ، وآخرون رغبوا بسعادة الغيب وأرهبوا من شقائه ، وشوق آخرون للأمرين ، فهام الأولون بوسائل الملك والغلبة على الأمم ، وهام التالون برفض النعيم في هذا العالم وعدم المبالاة بجحيمه ، واعتدل الآخرون فطلبوا نصيباً من ههنا و ههنا ، واشتغلوا بكلتا الوسيلتين ،فكيف تتساوى الفروع ههنا فأنتم ترون من هذه الأمثلة وماستقيسون عليها أن الوسائل ضروري فيها التغيير وما كان التغيير فهل يكون الروح واللهب"(٢١) ،

وبعد أن يؤكد أن الدين واحد ،وأن المناهج والشرائع هي التي تختلف وتتبدل بتبدل الأقوام والأزمان ، وبعد أن يؤكد على الفرق الكبير بين الدين (الجوهر) وبين الشرعة (المنهاج والوسيلة) يقول بصراحة مدهشة :" وإنا لسائلوهم هل لب الدين تلك المسائل التاريخية، التي وقعت كما وقعت ثم اختلف التعبير عن كيفية وقوعها ...وسائلوهم هل منتهى الدين أمور تتعلق بالعادات البشرية ،من قيام وقعود ؟ وسهر وهجوع ؟وشبع وجوع ؟وذهاب

ورجوع ؟وإقامة ورحيل ؟وإعلاء وتنزيل ؟وأمور أخرى تتعلق بالأبدان ؟ من لحم وشعر وظفر وأسنان .أوهذا هو الدين ؟ أوهذا كل الدين ؟. .وسائلوهم هل مبلغ زلف المتدينين أن يفني بعضهم بعضاً إن استطاعوا ؟ أو يقبل ما قبل الغالب ؟ إذن أين حرية التفكير ؟ إذن أين الفضيلة للمكره فيما يأتيه بظاهره وينكره بباطنه؟"(٢٢) . وبعد أن يفطن إلى أن كلامه قد يفهم منه أنه متحرر من تلك العادات والأعمال البشرية (العبادات)يسارع إلى الإجابة عن ذلك بأنه يباشر العبادات الإسلامية لكن دون أن ينسى أن دافعه لذلك ليس بمجرد التقليد وإنما يرجع لأسباب عقلية : " أمّا نحن فيسألنا سائل من أهل الملل قائلاً : هل أنت تنكر الوسائل مطلقاً ؟ وهل الوصول إلى دينك الركنين يكون بلا وسائل ؟ وهل أنت غير معتبر لوسائل دين من الأديان ؟ وبهذا الاعتبار ألا ترد غيرها ؟ وحينئذ فما ثمرة تطويلك هذا الذي لايغنيك مثل غيرك عن تفنيد الذاهبين إلى وسائل شرعة أخرى ؟ فنقول لهؤلاء : إنه من المؤكد أننا نقبل الوسائل التي في دين محمد (عليه السلام) لأنها قسمان:

١ – قواعد عامة شرعية يمكن البناء عليها في كل زمان ومكان .

٢ – قواعد عامة أدبية معينة ومساعدة للقواعد الشرعية .

ومن شاء أن يسألنا من قاعدة منها لايقبلها العقل فليفعل .

ولكن قولنا ذلك هل يمنعنا من تذكر القاعدة العظمى التي ينبى عليها الإخاء الكبير ؟ . . . . وإني لما رأيت الناس (منهم) من نسوا الجوهر الذي منه وإليه كل الأديان ، ومنه وإليه صلاح الإنسان ، وظنوا أن الخير كله والدين في مخالفة غيرهم في كل شيء. ومنهم من فهم وسائلهم فانقسموا على أنفسهم ، ومنهم من أقاموا ناسا منهم مقام المرشدين الذين يعتقدون عصمتهم ،

فعبثوا بالمقاصد والوسائل عمدا أو خطأ ، ومنهم من ليس له من الأديان إلا النسبة التي أصبحت بمقام النسبة للقوم " (٢٣) . وبعد أن يرد قول من يقول بأن الأديان كانت دائماً سبباً للتقاتل والتذابح يقول : " فيا لله العجب ، هل حدث هذا التذابح يوم حدثت الديانات ؟ أم هي سنة البشر من قبل ؟ ألم يكن من ثمرات الأديان تخفيف ذلك التذابح القديم ؟ ألم تحشر الشعوب الكثيرة المتغايرة . . . تحت رايات قليلة هي رايات الأديان ؟ " (٢٤) .

وبعد هذا الحديث المدهش عن وحدة الأديان ، وكيف أنها انطلقت من منبع واحد وأن الاختلاف بينها في التفاصيل والوسائل لا بالجوهر نجده يستغرب أن يكون الدين سبباً من أسباب الفرقة والاختلاف بين أبناء الوطن الواحد . ويشمئز من استغلال الدين لإثارة النعرات " ماأسبق الناس كلما حدثت حادثة لتحريك سلاسل الدين ، ومـاأكثر نسيان الناس للتجارب . ينسى الناس سيئات أنفسهم ، وخطيئات حكوماتهم ، ويعمدون إلى ادعاء أن عدوهم لم يتهجم عليهم إلا لأنهم مخالفوه في الدين . . . . وينسى الناس أن وطننا مؤلف من أقوام دياناتهم متخالفة ، وأنه ليس من الحكمة ولامن اللباقة الفزع إلى النعرة الدينية " (٢٥) .

وقد كان (الزهراوي) واعياً تماماً لمخاطر إثارة النعرات الدينية والطائفية ، ومايترتب عليها من تفتيت الوطن الواحد . وبرأيه وكما يبدو واضحاً من كلامه السابق ومما سيلي بأن الوطنية أقوى الروابط وأسماها ، لأنها رابطة توحد وتصهر كل الطوائف . وهو مع انتباهه لدسائس الأوربيين ، وإثارتهم للنعرات الدينية ، فإنه يرفض القول بأن أوربا في هجومها على الشرق إنما تفعل ذلك بدافع ديني : " اللهم هل هذا كاف في تذكير الناس أن هجوم الغرب على الشرق ، ليس هو هجوم دين على دين ، إنما هو هجوم قوة على ضعف ، وعلم على جهل ، وغنى على فقر ،

فانظروا وتساءلوا لماذا أنتم ضعفاء " (٢٦) . فهو لاينخدع بالمظاهر، ولاتفوت عليه لعبة حماية الطوائف في الدولة العثمانية ، ويدرك أن ذلك مجرد وسيلة للحصول على الامتيازات المادية، ويبين أن قواعد الإسلام أبر منهم بأبناء أمتهم ووطنهم : ويسفه الرأي الذي يقول بتعصب المسلمين وظلمهم للمسيحيين . ـ هي نغمة كان يرددها الأوربيون كثيراً – متذرعين بما كان يقع على يد الجهلة في مكان ما وزمان ما . فيقول : " كيف ننسب تعدي بعض المسلمين على بعض المسيحيين إلى الدين ، وننسى الذي يقع مثله ألف مرة من تعدي المسلمين ؟ لعمرك نحن أكثر إنصافا إذ لاننسب ما نعرفه من أحوال هؤلاء الأوربيين إلى دينهم كما ينسبون أحوال بعض أفراد أوطوائف منا إلى ديننا . نحن نعرف والحمد لله تعالى ماهي التعاليم الشريفة التي جاء بها السيد المسيح (عليه السلام) ونعرف ماعليه هؤلاء الأوربيون ، ولذلك نقول : إن أوربا لاتتهجم على الشرق بسائق تعاليم دينية بل بسائق مناهج رومانية ، ورثوها مع ماورثوا من الرومان . ومعلوم أن مقتضى تلك المناهج الرومانية التغلب على الأمم لاستثمار تعبها ، وتسخيرها للأهواء . وهل ينتظر غير هذا من حكومات لم يقم أصلها الأصيل على أساس من شأنه أن لايحمل قوماً على مبادأة آخرين بالشر لأغراض ومآرب شخصية " (٢٧) .

ثم إنه يعود فيرد على اتهام الدول الأوربية للمسلمين بأنهم يوقعون الأذى بالمسيحيين وأن المسيحيين بالتالي بحاجة إلى حماية فيقول إن مالاقاه المسيحيون على يد المسيحيين أنفسهم في أوربا وسواها يفوق كل وصف ويتساءل : هل المسيحية التي أصبحت تعلم وتتلى تحت المصابيح الذهبية هي عين تلك التي لم يكن أهلها المساكين متباغضين إذ كانت تعلم وتتلى في الخلوات ... ثم يتساءل عن مصير المخالفين من المسيحيين وماذا كان حكم المجامع

التي دعا إلى عقدها ملوك أوربا وماقلل عددهم هل هو تحول الفكر أم قللهم السيف .... ثم إن مالاقاه مسيحيو الشرق على يد الأوربيين كبير فقد جاء الإسلام محرراً لهؤلاء :

" ألا إن الإسلام جاء والسيف مصلت ، قد سله الرومانيون المسيحيون على المصريين المسيحيين ، والسوريين المسيحيين ، وقد اتخذوهم بذلك السيف عبيداً وخولا و لم يتخذوهم أخوة ... فالإسلام إن كان قد رفع سيفاً حين ظهر وقوي فهو إنما رفعه ليسقط ذلك السيف (الروماني) الجائر . ويؤيد قاعدة (لا إكراه في الدين) تلك القاعدة العظيمة التي كانت تهددها طبيعة الحكومة الرومانية التي لم يقمها دين بل أقامها الشره البشري . ولم يرفع الإسلام سيفاً ليجعل المغلوب مسلماً أو عبداً ، بل ليوجد حكومة ، من رضي بها ، وتوطن في بلادها ، كان له ماللمسلمين وعليه ماعليهم ... والشيء الذي ينكره المسلم كل الإنكار هو أن يكون المسلمون قد استعملوا السيف للإكراه على قبول الإسلام ، والشيء الذي لاينكره هو استعمال السيف لإقامة حكومة إسلامية ، إقامة الحكومة شيء ونشر الدين بالسيف شيء آخر "(٢٨) .

ويرفض أن تكون الحروب المستمرة بين أوربا والشرق حروباً دينية ، كما يرفض أن يكون المسيحيون قد تعرضوا في وطنهم لاضطهاد ديني " لأننا إذا استثنينا عمل بعض الذين خالفوا منا روح الإسلام . وهو قليل ، نجد المسيحيين في بلاد الإسلام لم يروا من المسلمين إلا مايراه الأخ من أخيه من الحرص على صون روحه وماله وعرضه وسائر حقوقه " (٢٩) .

وبعد أن يعود ليرفض ويفند دعوى الأوربيين في حماية المسيحيين يقول : " لانستطيع أن ندعي أن أظلم حكوماتنا (الإسلامية) لايخشى منها على غير المسلم أكثر مما يخشى على المسلم . وأظلم تلك الحكومات عاشت معها المسيحية واليهودية

ولم تحتاجا إلى شيء من هذه الحماية التي تريد التوسل بها إلى المآرب حكومات يجهر بعضها اليوم أن لادين لها " (٣٠) فهو يسخر هنا من دول تدعي العلمانية في داخل بلادها وتدعي حماية المسيحيين خارج الحدود ، ويبين كيف أن هذا (الفصام) في الشخصية - ليس لله - ، وليس غيرة على الدين . فدعوى الحماية بجرد ستارة تخفي وراءها ماتخفيه كل دعوى كاذبة .

لذلك فالزهراوي يريد من أبناء وطنه على اختلاف عقائدهم أن ينتبهوا لهذه المؤامرة وأن يعوا أنهم (جماعة واحدة) - أمة واحدة - بغض النظر عن الدين الذي يتقربون بواسطته إلى الله " إن المواطنين في البلد الواحد من سائر الأديان هم من جماعتنا (أمتنا) ، لأن الجوار يضمنا وإياهم . . . فالإقليم الواحد يكوّن جماعة متضامنة في الغالب بسبب اللغة ، أو بسبب الاشتراك بالمصالح وأضدادها " (٣١) وحتى لايقع بعض الأغرار والجهلة بالفخ الاستعماري ويقومون بردود فعل ضد أخوانهم في الوطن نتيجة ما يغدقه عليهم الأوربيون من امتيازات يقول موجها : "إن دولتنا متدينة بالإسلام ، فعلى المسلم أن يعرف أن هذا الدين دين تسامح وتساهل ، أوصى بالجوار وحفظ العهد ، وهو الدين الذي سمح لأحد أبناء الخلفاء (الشريف الرضي) أن يرثي صديقا صابئيا "(٣٢).

ثم توجه إلى المخلصين من أبناء الوطن :

" فياليت شعري ، ألا يقوم في شرقنا المبارك من أبناء وطننا من المسيحيين ، من يردون دعوى هذه الحماية في وجوه الأوربيين ، ويقولون لهم : إن بقاءنا في هذا الوطن منذ ثلاثة عشر قرنا ، دليل على أن أسلافنا لم يكونوا محتاجين إلى من يحميهم . ثم ياليت شعري ألا يقوم في هذا الشرق المبارك من المسلمين ، من يزيحون مانسجته عناكب الإهمال على هذه القاعدة التي يحق لنا أن نفاخر بها كل القواعد الأساسية (الدساتير) التي عند الأمم ، ونعني بها

القاعدة التي تجعل لغير المسلمين ما للمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين " لهم مالنا وعليهم ماعلينا " (٣٣) وقد كانت حياة (الزهراوي) وأعماله تؤيد دائماً صدق ماتذهب إليه أقواله ، فهو ضد التعصب لأنه كما قلنا فرع شيطاني ينبت على شجرة الجهل والتخلف من جهة ، ولأنه لعبة استعمارية هدفها جرّ البلاد إلى مناطق النفوذ الأوربي من جهة ثانية ، وقد أخافه لجوء الاتحاديين إلى اللعبة ذاتها ، حين سعت إلى إذكاء روح العداء والتعصب عن طريق تأييد بعض الفئات والطوائف ضد بعضها الآخر ، بغض النظر عن الدين أو الطائفة – فهي مثلاً كانت تشجع أحياناً بعض الطوائف المسيحية على حساب طوائف أخرى (ناصرت طائفة الأولاح ضد مخالفيهم) ، وهي في أحيان أخرى تناصر طوائف مسيحية ضد طوائف اسلامية كما فعلت في بلاد (الأرناؤوط) ، وهي تغري الأشقياء على إيتان أعمال إرهابية ضد مواطنيهم ، ولايهمها الجهة التي يقع عليها عبء ذلك ، إنما المهم أن تسود روح الفرقة والكراهية بين المواطنين ، ويذكر (الزهراوي) وصفاً دقيقاً لما حدث في منطقة (اشتيب) (*) وكان أحد أعضاء لجنة للتحقيق في الأحداث (الطائفية) التي وقعت في تلك المنطقة ، ويصف في أحد مقالاته بنزاهة ودقة ماحدث ويحلل الأحداث على ضوء العقل والمنطق -- فهو – يستنتج مثلا أن هناك يداً خفية تحرك الأحداث وتحاول أن تضخمها ، وبين كيف أن الحادثة مؤامرة شيطانية تشترك بها جهات متعددة ، ولايمكن إرجاعها إلى الشقاق العقائدي أو التعصب الديني ، ويبين كيف أن الكثير من الجرحى المسيحيين أبلغوا اللجنة بأنهم احتموا أثناء اندلاع الأحداث بجيرانهم المسلمين،

---

*وهي قرية تقع على الحدود بين يوغسلافيا وبلغاريا واليونان حالياً ، كما يفهم من وصف الزهراوي ،

الذين أحسنوا الدفاع عنهم . فالقضية ليست قضية نزاع ديني أو طائفي ، وإنما هي قضية بذر بذور الفتنة والتفرقة . لذلك فقد علق على الأحداث تعليقاً ذا دلالة بالغة حين أورد شطر البيت المشهور:

" أرى خلل الرماد وميض نار "

ولايفوتنا أن ننوه بأن (الزهراوي) الذي كان يرتدي زي رجال الدين ، والذي تزود بثقافة دينية ، قد ذهب بتفكيره إلى أبعد بكثير مما كان المرء يتوقع من أمثاله ، خاصة حين دعا إلى (وحدة الأديان) لأنها برأيه واحدة بالأساس والجوهر . واختلاف وسائلها ومناهجها يجب ألا يحجب وحدتها كما أن ثقافته وعلمه الديني لم يمنعاه من مقت التعصب ، ومحاربة الطائفية لأنها برأيه ظلم يوقعه الإنسان بأخيه الإنسان فالفكر المتحرر يصدر عن الإنسان الواعي بغض النظر عن الزي الذي يرتديه . و (الزهراوي) نفسه سخر من تأفف البعض من وجود أعضاء معممين في مجلس المبعوثان ، على أساس أن هؤلاء المعممين سيحملون تحت عمائمهم التخلف والتعصب ، وعدم القدرة على فهم الأمور والأحداث بروح عصرية، " لأن العمامة على رأيهم عنوان التعصب ، وهؤلاء يحسبون أن كل الطرابيش من غير عمامة ليس تحتها محبة زائدة للدين ، أو للمآرب باسم الدين ، وأن هذه المحبة الزائدة انحصرت بالطرابيش التي فوقها قليل من الشاش الأبيض . وآخرون يحسبون أن العمائم لايكون تحتها أدمغة تفهم الدنيا كما تفهم الدين ، وأن فهم الدنيا منحصر بالأدمغة التي تحت الطرابيش بغير عمائم " (٣٤).

ولعل من المهم أن نختم الحديث عن موقف (الزهراوي) من التعصب الديني بالإشارة إلى موقفه من مسألة (الجامعة الاسلامية) التي روج لها الأفغاني ومحمد عبده ومن نحا نحوها ، وتبناها السلطان (عبد الحميد الثاني) . (فالافغاني ومحمد عبده) اتخذاها وسيلة

لتكتيل جهود (الشرق) في وجه الغرب الطامع ، و(عبد الحميد) من أجل ضخ دماء جديدة في جسم الدولة العثمانية المنهار . ولكن (الزهراوي) ، وقف موقفاً يعد في قمة (الجرأة) الأدبية والسياسية حين أعلن رفضه لفكرة الجامعة الاسلامية ، لأنها برأيه تقوم على أسس غير موضوعية ، وغير عقلية . ويمكننا أن نحدد أسباب رفض(الزهراوي) لفكرة (الجامعة الاسلامية) على النحو التالي :

١ – الفكرة الأساسية التي تقوم عليها فكرة (الجامعة الاسلامية) هي أن الإسلام يشكل رابطة توحد شمل المسلمين . ولكن (الزهراوي) يفنّد هذا الزعم لأن الإسلام برأيه لم يكن في يوم سبباً للوحدة والتآلف ابتداء من عهد الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) ....

٢ – ثم إن رابطة الدين – بصورة عامة - لايمكن الركون إليها كرابطة توحيد فهذه الرابطة لم تمنع أن تقوم الحروب بين دول تدين بدين واحد .

٣ – الدولة – المنطقة العربية – تجمع أتباعا لأديان مختلفة والجامعة الإسلامية ستكون مدعاة للتفرقة بين أبناء الوطن الواحد .

٤ – و (الزهراوي) يعتقد أن رابطة الدين قد تم تجاوزها حضارياً ، إذ أن ثمة روابط أكثر تقدمية منها مثل رابطة المصالح المشتركة ، أو مايسميه رابطة المدنية . ويرتب (الزهراوي) في رسالة (نظام الحب والبغض) الروابط الانسانية حسب درجة تطورها على الشكل التالي :

– رابطة العصبية القبلية .
– رابطة الدين .
– رابطة المدنية .

ويعتبر أن رابطة المدينة وحدها الجديرة بحمل اسم (رابطة) لأنها تجمع بين الناس بغض النظر عن أصلهم ودينهم [٣٥] .

هوامش الفصل السادس :

١ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مجلة المنار ، مصدر سبق ذكره .
٢ - عبد الحميد الزهراوي ، " شعور الأمم بماضيها وجمعية التتار في الأستانة " جريدة الحضارة السنة الثانية ، العدد ٥٥ ، ٢٧ نيسان ١٩١١ .
٣ - المصدر السابق .
٤ - عبد الحميد الزهراوي ، "الجمعيات السياسية وكيفية تكونها " ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية ، العدد (٨٨) ، ١٤ كانون الأول ١٩١١ .
٥ - المصدر السابق .
٦ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مجلة المنار ، مصدر سبق ذكره .
٧ - المصدر السابق .
٨ - عبد الحميد الزهراوي ، الفقه والتصوف ، (القاهرة ، المطبعة العمومية ، ١٩٠١) ، ص٣٧ .
٩ - المصدر السابق ، ص٥٣ .
١٠ - انظر : د. وجيه كوثراني ، بلاد الشام . التاريخ والاقتصاد والسياسة الفرنسية ...... مصدر سابق ذكره .
١١ - المصدر السابق ، ص٣١٦ .
١٢ - انظر : المصدر السابق .
١٣ - عبد الحميد الزهراوي ، الرسالة السرية لمحمد رشيد رضا
١٤ - د. وجيه كوثراني ، بلاد الشام ...... ص٢٨٤ .
١٥ - د. عبد الله حنا ، تحركات العامة ... ، مصدر سبق ذكره ، ص٥٣١ .
١٦ - فريتز شتبان ، تطور المفاهيم السياسية الاجتماعية الزمنية في القرن

التاسع عشر ، إسهام في دراسة الوعي السياسي في بلاد الشام ، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام (دمشق ، وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٨) الجزء الثاني ص٦٠٧.

١٧ - عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ....، مصدر سابق ذكره .

١٨ - المصدر السابق .

١٩ - المصدر السابق .

٢٠ - المصدر السابق .

٢١ - المصدر السابق .

٢٢ - المصدر السابق .

٢٣ - المصدر السابق .

٢٤ - المصدر السابق .

٢٥ - عبد الحميد الزهراوي ، " طائفة صغيرة من الخطيئات التي لاتحصى في أقل من سنة " جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١٢٩ ، ٢٦ أيلول ١٩١٢.

٢٦ - عبد الحميد الزهراوي ، " اليوم وبعد اليوم -١- " ، جريدة الحضارة ، السنة٢ ، العدد ٨٠، ١٩تشرين الأول ١٩١١.

٢٧ - عبد الحميد الزهراوي ، "اليوم وبعد اليوم -٦-" ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٨٥، ٢٣ تشرين الثاني ١٩١١.

٢٨ - عبد الحميد الزهراوي ، " اليوم وبعد اليوم -٥-" ، جريدة الحضارة ، السنة٢ ، العدد٨٤، ١٧تشرين الثاني ١٩١١.

٢٩ - عبد الحميد الزهراوي ، "اليوم وبعد اليوم -٥-" ، العدد ٨٤ ، ١٧ تشرين الثاني ١٩١١.

٣١ - عبد الحميد الزهراوي ، " الأفراد والجماعات "، مجلة الإنسانية ، ، مصدر سابق .

٣٢ - المصدر السابق .

٣٠ - عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الحضارة،العدد ٨٤ ، مصدر سابق ذكره .

٣٤ – عبد الحميد الزهراوي ، "رجال اليوم – المبعوثان – "، جريدة الحضارة، السنة٢ ، العدد ٦٤، ٢٩ حزيران ١٩١١.

٣٥ – لمعرفة المزيد من موقف الزهراوي من الجامعة الإسلامية انظر :

- مقال عن السنوسية في مجلة المنار (سلسلة مقالات نشرت عام ١٩٠٢).
- رسالة في الحب والبغض .
- رسالة في الفقه والتصوف طبعت مستقلة عام ١٩٠١.
- المقابلة الصحفية التي أجريت معه في باريس بمناسبة انعقاد المؤتمر العربي الأول في باريس عام ١٩١٢...

■

الفصل السابع

العروبـــة

قلنا مرة :إن " الزهـراوي " مسـكون بالسياسـة ونسـتطيع أن نضيف بأنه مسكون بحـب الإصـلاح أو علـى حـد تعبـيره " مبتلـى بعشق الإصلاح " . هذا العشق الذي ملـك عليـه حياتـه ونشـاطه ، وقلبه وفكره. فهو منذ بدأ يمسك القلم ليعبر عما تجيش بـه نفسـه ، كان يعرف هدفه تماما ، وظل يسعى نحو هذا الهدف بـدأب وعنـاد وإصرار ، رغم كل العقبات . وماكان هدفه سوى تحريـر الوطـن ، وتحرير المواطن من التسلط والقهر والاستبداد والتخلف . فقد كـان تحرير الوطن والمواطن بمثابة هاجس يلازمه باسـتمرار ، ويطبـع كـل نشاط أو عمل يقوم به ، فما من مرة أمسك فيهـا القلـم ليكتـب في أي موضـوع حتـى يتعـرض بشـكل أو بـآخر لقضيـة تحريـر الوطـن والمواطن من براثـن الجهـل والتسـلط والتخلـف . فكـان يتخـذ مـن الموضوع الذي يعالجه أداة ووسيلة لعرض أفكاره الإصلاحية ، والتي كانت تصب في النهاية في خانة التحرر والتحرير وهو وعلى الرغـم من دعوى الاعتدال التي كان يحاول وصف نفسه وفكره بها ، كان حاد المزاج ، قاسيا وعنيفا في مقاومة القهر والظلم والخطأ ، لاينثني في ذلك شيئاً على الإطلاق . وربما جرت عليـه جراءتـه الكثـير من

العنت ، سواء من جهة السلطة المستبدة الغاشمة أو جهة زبانيتها وأزلامها والمنتفعين منها ، أو من جهة بعض الجهلة الذين تربوا على الخنوع والخضوع لكل مشهور ، فاستغنوا بذلك عن عقولهم واستعداداتهم الآدمية ، وألقوها بين " أقدام القدماء " على حد قوله.

وإذا كان هذا الباب مخصصاً أصلاً لإلقاء الضوء على الفكر القومي العربي عند هذا المفكر المتنور من رجالات عصر النهضة ، فإننا هدفنا مما ذكرناه سابقاً أن نؤكد على أن الفكر القومي عند الزهراوي يتلاحم وبشكل عضوي مع بنية أفكاره الإصلاحية ويشكل أحد أغصان تلك البنية .

ومادمنا بصدد الحديث عن " العروبة " في فكر " الزهراوي " فلابد أن نؤكد ومنذ البداية أنه عربي جهير الصوت بعروبته ، شديد الافتخار بانتمائه لهذه الأمة المجيدة ، يشعر دائماً بأن هذه الأمة تمتاز بصفات فذة عن بقية شعوب الدولة العثمانية . وكان يعمل مابوسعه لإيقاظ الشعور القومي العربي في قلوب أبناء أمته ، وجعلهم يمتلئون عزة وإباء وفخرا بمآثر هذه الأمة ، وبماقدمته عبر الأجيال ، لكن دون تعصب ، ودون ادعاء ، ودون أن ينسى لحظة منهج العقل والمنطق الذي التزم به دائماً .

ولقد أدرك بأن على الذي يريد إيقاظ الشعور القومي عند العرب، لابد له أن يؤكد نبل معدنهم ، وسموأخلاقهم ـ كأمة ـ بغض النظر عن الإسلام ، أو الدين الذي يتعبدون به ربهم .

وإن كان سمو الدين ونقاؤه دليلا على سمو المتدينين به . لذلك فهو يرفض ادعاء من يقول بأن العرب قبل الإسلام كانوا كماً مهملا " فان قال قائل كيف عرف هذا عن العرب ؟ وهم أهل بادية ، متشتتون ، متفرقون ، متقاتلون ، متذابحون ، لاملك لهم جامع ، ولاشرع فيهم وازع ، ولايد لهم في الأعمال

الاجتماعية، ولانصيب لهم في الشؤون السياسية ، وليس لهم قبل الإسلام كتاب معروف تدون فيه أخبارهم ، وتذكر فيه مآثرهم وآثارهم ، فمن أجل ذلك لاتجوز الثقة بما ينقل ويحكى عنهم ، ولسنا نعرفهم إلا بالإسلام ، فالإسلام قد جمع الأوزاع من أهل هذه اللغة الواحدة على كلمة الغزو ... فنقول لصاحب هذا القول: إن العرب لم يكونوا مجهولين ولامجهولة أخبارهم، فإذا قلت إنهم لم يكونوا أهل كتابة وتاريخ ، فأشعارهم المحفوظة المنقولة ، هي ديوان سيرهم . وإذا لم تثق بنقل أشعارهم ، استطعت أن تعرف العرب من تاريخ الأمم المجاورة لهم ، فالفرس قد سبروهم لأن من العرب ملوكا كانوا لهم خاضعين ، وقوادا كانوا بأمرهم عاملين . والروم قد خبروهم ، لأن في مملكتهم ملوكا وقوادا وولاة من العرب . والديانة المجوسية تعرفهم ، لأن منهم من كان على دين ملوك الفرس ، والكنائس تعرفت بهم لأن منهم نصارى بل قسيسين ورهبانا ، وبيع اليهود ماجهلتهم ، والفلسفة ماأنكرتهم ، والحضارة قد ألمت بمساكنهم " اليمن والعراق والشام " ومخالطة الأمم أخذوا بقسط منها وأخذت بقسط منهم ، فكيف يكون هذا الجيل مجهولا بعد كل هذا ؟ إن العرب كانوا معروفين ، ومما عرفوا واشتهروا به الحرص على وحدتهم القومية فكانوا أمام الغريب أمة واحدة لها وحدة باللغة وبالنسب واتصال الديار والعصبية عند التناصر(١) .

بهذا الأسلوب المنطقي والعقلي ، الذي لايخلو أحيانا من الحماس والعاطفة المنتشية والمتشبعة بحب العرب والافتخار بهم ، يعرض " الزهراوي " أفكاره في كتاب " خديجة أم المؤمنين " ، وهو كتاب وإن أشار عنوانه إلى أن " الزهراوي " يريد أن يؤرخ لهذه المرأة العربية العظيمة ، وليشيد بها ومن خلالها بالمرأة عامة والمرأة العربية خاصة ـ وهو قد فعل ذلك على أكمل وجه – إلا أننا نستطيع أن نؤكد وباطمئنان أن كتاب خديجة كان مناسبة فذة

ليعرض فيها " الزهراوي " أفكاره " العروبية " ، لذلك فإن هذا الكتاب يعتبر بحق كتابا قوميا عربيا - مبكرا - دبجه " الزهراوي " في شبابه ، وعرض من خلاله وتحت أنف وبصر السلطة الحميدية الغاشمة ، موقفه القومي العربي ، بل إنه استخدم - ربما لأول مرة في قاموس السياسة العربية - مصطلحات مثل : " الوحدة القومية - أمة واحدة - وحدة اللغة - وحدة المصالح - اتصال الديار " . وهي عبارات من النصوع والوضوح بحيث لايحتاج المرء معها لمزيد من الكلمات للتأكيد على الهدف الذي كان يسعى إليه هذا الرجل: " كان الزهراوي " فيماكتبه في " خديجة " صاحب رسالة جليلة ، وهدف بين ، وكانت شخصية الزعيم المصلح فيه تطالع القارئ قوية ظاهرة خلال الصفحات والسطور(٢) .

ويستمر " الزهراوي " في التأكيد على عظمة الأمة العربية ورسوخها في الحضارة " التي تمتد لأكثر من سبعة آلاف سنة " ويرد على الذين يشككون بتاريخ العرب " قبل الإسلام " ـ تاريخ الجزيرة العربية ـ خاصة - على أساس أن كل ماورد عنهم إنما انتقل عن طريق السماع ولم ينتقل عن طريق الكتب المدونة ، وكان في رده واثقا مطمئنا : " لايستبعد من أمة محتاجة إلى التناصر وليس لها كسائر الأمم كتاب يجمع أخبار وسير أبطالها أن يعنى كثير من أفرادها بحفظ ذلك في أذهانهم ، وأية أمة ممن نرى يتناسى أفرادها سيرة أبطالهم وقد كان الرجل من العرب إذا عظم أمره وكثر ماله انفرد بأهله .. من غير أن يضيعوا حقهم من الارتباط بالنسبة الأولى.(٣) وعودة " الزهراوي " إلى تاريخ العرب القديم لها مايبررها باعتبارات كثيرة منها :

١ - أن الأتراك كانوا يروجون فكرة أن الإسلام هو الذي صنع من العرب أمة واحدة ، وإن كانوا من قبله لفي جاهلية جهلاء .

ليسهل عليهم " الأتراك " القول بأنهم وإن كانوا قبائل متنافرة غير ذات حضارة فإنهم بالإسلام قد توحدوا ، وخرجوا من جاهليتهم إلى أنوار الحضارة تماما كما خرج العرب من قبل .

و " الزهراوي " يرفض هذا الادعاء رفضا مطلقا " قد غلط من ظنوا أن العرب لم يكن لهم حضارة ، ولم يكونوا على شيء مما عليه الأمم من الروابط ، بل كان لهم حضارات ، وملوكهم التبابعة في اليمن معروف أمرهم عند المشتغلين بالتاريخ وملوك الحيرة : " في العراق " مشهورون من عرف تاريخ الفرس عرفهم وإن جهل تاريخ العرب .. ..والملوك الغسانيون في الشام مشهورون أيضاً لايجهلهم من عرف تاريخ الرومان إذا جهل تاريخ العرب .. ومن ملوك العرب ملوك كندة الذين من سلالتهم " امرؤ القيس " ... فبا لله كيف تكون مجهولة الأمة التي فيها الملوك والأقيال ؟ وقد وقفت أمام الأمم والأجيال ؟ سنين من الدهر ، لايعرف لها حصر ، لعمرك إن القول بأن هؤلاء القوم كانوا مجهولين وأنهم كانوا متشتتين من غير ملك جامع ، ولاشرع وازع ، هو قول يرسله صاحبه من غير أن يكلف نفسه بحثا ، وهو لما يحط به خبرا .. ومتى كان العرب معروفين عند غيرهم كما أوضحنا - ولدينا مزيد - كانوا هم أحق بمعرفة أنفسهم وحفظ مفاخرهم وعصبياتهم .." (٤)

وبعد أن يبرهن على أن عدم معرفة العرب بالكتابة ، وعدم وجود كتاب يؤرخ لأيامهم . لايقدم ولايؤخر في أمر كونهم أمة ذات حضارة " فإذا لم تجز الثقة بما ينقل من هذه الأخبار ، لم يكن غيرها أحق بالثقة . لعمرو الحق . فإن تزوير الأساطير لايستبعد وقوعه في كل أمة من الأمم ذوات الزبر والأسفار ، وليست الكتب أحق بالصدق من القرائن الشاهدة، والنظائر الناطقة .. أن العرب تجوز الثقة ببعض ماينقل عنهم

كما تجوز الثقة ببعض ما ينقل عن غيرهم ..."[٥]

٢- وإلى جانب الأتراك كان هناك بعض العرب الذين يروجون لفكرة أن العرب قبل الإسلام كانوا خلواً من أية حضارة أو مدنية ، وذلك بقصد إضفاء المزيد من العظمة على الإسلام - بزعمهم - وقد قدم هؤلاء دون أن يدروا بحسن نية - غالبا - خير عون لأعداء الأمة العربية ، الذين يريدون اتخاذ الدين الإسلامي ستارا لمطامعهم . ذلك أن المروجين لفكرة أن كل مجد وكل حضارة حققتها العرب فبفضل الإسلام . وأنه لم يكن للعرب قبل الإسلام إلا الجهل والانحطاط والتخلف ، إن هؤلاء يقدمون بعملهم الذي لايقوم على أسس ثابتة ، شهادة حسن سلوك وبراءة ذمة للقبائل التترية والتركية التي عاثت في بلاد العرب فساداً وخراباً ودماراً ، قبل أن يعتنق أفرادها الإسلام ، على اعتبار أن الإسلام يجبّ ماقبله ، وعلى اعتبار أن القوم عندما أقدموا على ماأقدموا عليه من الفظائع بحق العرب ، إنما كانوا في جاهليتهم ، وقبل أن يهديهم الله إلى سواء السبيل ، وينسى هؤلاء الذين يريدون أن ينسبوا كل الرذائل للجاهلية أنهم بعملهم هذا يتناسون ماأنزله الأتراك بحق العرب والمسلمين بعد اعتناقهم الإسلام ، كما أنهم يعاندون المنطق والعقل والحس السليم ، بل ويعاندون الحكمة الربانية .

إذ هل يعقل أن يلقي الله سبحانه وتعالى على قوم هذه حالتهم عبء النهوض بالدعوة والله أعلم حيث يضع رسالته؟! لولا أنه أنس فيهم الخصال الحميدة ، والصفات الملائمة" "فبعث فيهم رسولامن أنفسهم يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة " فكانت بذرة الإيمان التي ألقيت في أرض مستعدة لاحتضانها وإنباتها النبات الحسن .. كانت هذه البلدة المشرفة

" مكة " تضم بين تلك الجبال المهيبة ، أمة صالحة الاستعداد للرقي متى أريت طريقه ، كما تضم الصدفة جوهرة لايظهر بهاؤها ورواؤها حتى تعالج بعض المعالجة وتزول عنها القشور"(٦) .

وإذا سئل عن هذا الاستعداد للرقي وكيف يراه ؟ يسارع إلى القول من وجهة نظر السياسي والاجتماعي والمصلح الذي لايترك مناسبة إلا ويستغلها لبذر بذور الإصلاح - كما سبق وذكرنا -

يقول وفي ذهنه أن قارئيه " العرب " سيقيسون واقعهم وحالة وطنهم بما يذكره : " وكان من جيد أمر أهلها " مكة " في مجتمعهم ذلك أنهم اقتسموا النظر في الأمور العمومية فيما بينهم ، فكأنهم كونوا حكومة جمهورية من غير رئيس عام . وكان أمر هذه الجمهورية الغريبة الوضع سائرا على منتهى النظام . ولكن لم يكن هذا النظام لسر في ترتيب الجمهورية لأنها لايؤمل منها في حد ذاتها أن تثمر نظاماً بالغاً منتهى الجودة والقوة وإنما ذلك أثر من آثار تربيتهم العمومية . فالأخبار كلها دالة على أن القوم بالجملة كانوا كأنهم مفطورون على التضامن التام ، فلذلك كان ذلك الاجتماع الذي لانعرف له نظيرا ، أن كل فرد من أفراده تام الحرية، لايشعر بقهر حاكم ، ولايخشى سطوة جبار ، وكل منهم آمن من فوات الحقوق ، واعتداء الحدود . الجنايات قليلة ، وكرامة الناس محفوظة ، والآداب سليمة"(٧)

وقد أراد " الزهراوي " أن يقول من خلال العبارات السابقة شيئين في وقت واحد :

- فهو أولاً أراد أن يقول بأن العرب في جاهليتهم كانوا في حال أحسن من تلك التي يعيشونها تحت نير الحكم التركي ، حيث

لايتمتع الإنسان بحريته ، ويشعر بتسلط وقهر الحاكم ، ويتحكم بـه الجبابرة ، وهو غير آمن علي حقوقه وكرامته ..

– وأراد أن يقول ثانياً بـأن مجتمعاً يسـوده القهـر والتسـلط ، وتنعدم فيه الحرية ، لايمكن أن ينتج رقيـاً ولاتقدمـاً . وأن ا لله حـين بعث رسوله بالهدى ودين الحق ، فإنما بعثـه مـن وإلى أمـة كـل فـرد فيها حر وآمن .

ويتحـدث بمزيـد مـن الإعجـاب عـن " الجمهوريـة المكيـة " ونظامها الشوري ويعلل سبب عدم وجـود رئيـس دائـم فيهـا بعـدم جدوى هذا الرئيس لأنهم خافوا من تحكم حب الرئاسة في أحدهـم مما يؤدي إلى النزاعات . ولأنهم كانوا يأنفون مـن الخضـوع لأحـد أياً كان ، فكل واحد منهـم يحمـل بـين جنبيـه روح الرئيـس ..(٨) فالحرية والأنفة والشورى صفات لابد من توفرهـا في المجتمـع الـذي يستعد لاستقبال الأفكار الجديدة ، والعروج معهـا وبهـا إلى مراقـي الفلاح . إلى جانب صفات أخـرى تسـاعد المجتمعـات المجتبـاة لأداء الرسالات .. ومن ذلك تحرر العقول ، وتحليها بالتفكير السليم " إذا صرفنا نظراً عن تلوث عقولهم بنزعات الوثنيـة . لانجـد بعدهـا هـذه العقول مظلمة ، وهي التي أضاءت لهم فعرفوا بها الأخلاق الصالحـة والفاسدة ولم يكن يعوزهم إلا أن يقوم فيهم مرشد يهديهم للتي هي أقوم من طرائق الاعتقـاد بـا لله وصفاتـه .. ولـولا أن للقـوم عقـولا صافية ، لما رجي لمجيء المرشد من فائدة ، لأنه لايظهر نور الإرشـاد إلا في اللوح النقي . ولكـن الرجـاء بـالقوم في محلـه ، فإنـه لمـا جـاء المرشد لقي أراضي في منتهى الاستعداد لما أراد أن يلقي البذار .

فالعرب – إذاً ـ كانوا من الرقي والحضـارة والاسـتعداد علـى درجة تؤهلهم لحمل الرسالة الخالدة ، إلى العالمين . و" الزهـراوي " يعتبر الإسلام رسالة العرب . وثورتهم الخـالدة ، وأن الفضـل يعـود إليهم في حمله إلى العـالمين ، وإيصالـه إلى كـل فـج عميـق ، بسـرعة

مذهلة ، رغم أنوف الأباطرة والقياصرة والطواغيت :" قبل ثلاثة عشر قرناً على الحساب القمري حدث في الكون حادث عظيم جداً ، لم يحدث بعد مثله إلى الآن .. خلفه انقلاب عظيم في ممالك الأرض ، وتغير جسيم في أحوال الأمم والشعوب ، ذلك الحادث هو قيام العرب بعقيدة جديدة ، وانضمامهم جميعاً إلى كلمة النبي الذي قام فيهم منهم .. هذا الحادث العظيم يتلقاه بعض الناس بغير تفكر ، وكأنه معناه الحدوث كثيراً فلا يبحث هؤلاء عن سر حدوثه ((انتشاره السريع)) ولايريدون أن يستفيدوا من التدبر والتفكير بسر ذلك النجاح العظيم الذي أوتيه أولئك القوم بسرعة جديرة أن نشبهها بلمح البصر .. ولدى التأمل نجد هناك جزأين تم بهما هذا الحادث العظيم .

- الأول : النبي محمد عليه الصلاة والسلام .

- الثاني : الذين آمنوا به ونصروه من العرب[9] .

أي أن العرب قبل الرسالة لم يكونوا متخلفين حضاريا عن جيرانهم ، إنما كانوا متفرقين سياسيا " إن العرب يوم ظهور النبي فيهم .. كانوا متفرقين .. ومنقسمين وقبائل .. "[10]

ولأن " الزهراوي " إنما يعرض من خلال دفاعه عن قومه العرب، فكره السياسي والاجتماعي ويريد أن يجد لهذا الفكر الأرض الصالحة بين بني قومه ، يؤكد المرة بعد المرة على أهمية الحرية ، ويبدي سخطه ومقاومته للقهر والتسلط والاستبداد ، الذي يعتبره من أكثر الأمور شرا:

"ومما هو جدير بالذكر - في هذا الصدد - حريتهم " العرب " التي كانوا عليها فانهم لما خلصوا من تمليك أحد عليهم ، خلصوا من شرور كثيرة تتبع التمليك . فكانت معاشراتهم ساذجة " بسيطة

" خالية من عبارات الملق والخنوع . وكانت مكاسبهم لأنفسهم ، لايشاركهم بها مشارك ، ولايعرفون المغارم ، والأتاوات المضروبة .

وهم في أمن من حيف القضاة ، لأنهم يتحاكمون يوم يشاؤون إلى من يرضونه من كبرائهم .. وكان جائزا لأحدهم أن يتدين كما يريد ، بشرط ألا يعيب دينهم الذي كانوا عليه ولايدعو إلى إبطاله وكان لبعضهم فلسفة في النشور والجزاء الأخروي.."(١١)

أي إنه يدعو من خلال إسهابه في وصف ماكان يتمتع به المجتمع المكي من الحرية إلى أن ينال المواطن الحرية بكل جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية وإلى عدم مصادرة هذه الحرية تحت أي اسم من الأسماء ، وإلى عدم فرض الغرامات والأتاوات وإلى نزاهة القضاء ، وإلى التمتع بحرية العقيدة ، وهي كما لايخفى أهم المطالب التي تمحورت حولها أهداف النضال العربي في تلك الفترة ، وبصفته مصلحاً واعياً ، ورائداً صادقاً لاينسى أن يشير إلى مكانه المرأة في المجتمع المكي وماكانت تتمتع به من الحقوق والمكانة " ويمكن أن يقال بالإجمال إن حرية الرجال والنساء كانت تامة "(١٢) ، لينطلق من ثمة إلى تأييد حق المرأة المستلب من جهات متعددة وسنعود للبحث في أمر المرأة في مكان آخر من البحث .

ولم يفت " الزهراوي " أن يوجه الانتقادات لبعض المظاهر السلبية التي وقع فيها العرب ، ولاسيما تلك التي تتنافى مع حقوق الإنسان من حيث هو إنسان ، فكان ظلمهم للرقيق وسلبهم الكثير من مقومات الإنسانية " نعجب من قوم هذا شأنهم – من الحضارة – إذا رأيناهم لم يرثوا لحال الرقيق ، ولم يذكروا أنه يستحق الرحمة لأنه مسلوب أفضل كساء كساهموه ، ربهم الأعلى الذي خلق

فسوى"[١٣] فالحرية برأيه أفضل كساء يلبسه الله للبشر جميعاً فلا سادة ولاعبيد ، والكل سواء .

فكتاب " خديجة أم المؤمنين " يعتبر كما سبق وذكرنا كتاب " الزهراوي" العروبي الأول والمبكر ، فهو قد أراد من خلال سرد سيرة هذه السيدة الماجدة ، أن يقدم للقراء أخلاق العرب ، وصفات العرب ، وحضارة العرب وأخبار العرب الاجتماعية والسياسية ، عله بذلك يضع " مدماكا" أساسيا في البناء القومي العربي الذي كان يؤسس على استحياء .

وبعد كتاب خديجة بدأ يكتب المقالات والدراسات ذات المسحة العلمية " نظام الحب والبغض – الإمامة وشروطها – الفقه والتصوف .. " والتي كان يتخذها ذريعة لعرض أفكاره السياسية والاجتماعية والقومية ونظرته إلى المستقبل ورأيه في كيفية تحقيق التقدم والرقي " التحسين والتكمل " بصورة غير مباشرة حينا وبشكل واضح بين حين وآخر . ثم وبعد الانقلاب العثماني وإعلان الدستور وانتقاله إلى العاصمة بدأ يعرض أفكاره القومية العربية بشكل أكثر نصوعاً ووضوحاً من خلال خطبه في مجلس " المبعوثان " ، ومن خلال مقالاته في جريدة " الحضارة " وكان يؤكد في تلك المقالات والخطب على خصوصية العرب ، وأنهم جماعة (أمة) لها صفاتها وخصائصها المميزة ، ولغتها الشريفة ، وأن لها الحق كل الحق في العمل على زيادة المتعلمين والمثقفين بين أبنائها ، كما أن من حقها أن تفخر وتفاخر بأمجادها وبحضارتها التليدة دون أن يسيء أحد الظن بها إن أرادت أن تفعل ذلك " فليس شيء في نظر العاقل بأسمج من صد رجل أتخمته الأنانية رجلاً آخر يحب أن يتغذى بقليل من حب نفسه وقومه[١٤] . لذلك هو يدعو قومه العرب للوقوف بوجه هؤلاء الأنانيين العنصريين ، ومقاومتهم بكل أساليب المقاومة " أحب أن أذكرك بأن الإنسان

لايليق به أن يقدم على عزة نفسه وقومه شيئاً " . لقد كان الزهراوي " - شأنه شأن زعماء ورجالات عصر النهضة يعمل على تنمية الحس القومي العربي وتحسين أوضاع العرب ، وزيادة أعداد المتعلمين " النبهاء " بينهم . ولكن ضمن إطار الدولة العثمانية : " ذلك لأن التطور الفكري الطبيعي كان إلى قبيل الحرب العالمية الأولى ، يقوم على مفهوم عام شامل بالنسبة للدولة العثمانية باعتبارها الإطار الذي يربط المنطقة كلها . فلم يكن هناك - حسب التطور الطبيعي للفكر السياسي - أي اتجاه للانفصال عنها وإنما بدأ التفكير في صورة الأمة أو الوطن في مصر مثلا دون أن يعني ذلك أي انفصال عن الكيان الذي تمثله الدولة العثمانية وفي الشام - وقد بدأت فيها حركة قيام كيان الأمة والوطن - كانت المرحلة الأولى التي وصل إليها هذا التطور حتى عام "١٩١٤" هي ماأطلق عليه في قرارات المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس قيام الحكومة اللامركزية التي تعطي للوطن " السوري " مقدراته السياسية من غير انفصال عن الكيان العام الذي تمثله الدولة العثمانية"(١٥) .

وقد اعتبر كل زعماء الإصلاح العرب ، الدولة العثمانية دولتهم ، وأنهم شركاء فيها ، وأن حركة الإصلاح التي يقودونها إنما تهدف إلى زيادة قوة هذه الدولة في وجه المطامع الأوربية ، وذلك عن طريق تحسين نظام الحكم ، ورفع الظلم والاستبداد عن المواطنين ومنح هؤلاء المواطنين كامل حقوقهم السياسية والاجتماعية ، بحيث يكونون متساوين أمام القانون . أمّا الانفصال عن الدولة فهو أمر لم يكن يخطر ببال أحد " إن جميع من يعتد بهم من العاملين في سبيل القومية العربية في تلك الأيام ، ماأرادوا قط الانفصال التام عن الدولة العثمانية ، خشية الوقوع في براثن الدول الاستعمارية ..."(١٦) .

فالمفكرون العرب إنما نظروا إلى قومهم " العرب " على أنهم شركاء أساسيون في حكم الدولة العثمانية ، ولم يتزعزع عندهم هذا الشعور إلا بعد أن أظهر " آباء " جمعية الاتحاد والترقي حقدهم العنصري الأرعن ، واندفعوا في حملة غبية " لتتريك الدولة " وطمس كل خصوصية عند شعوبها .. فالعرب في بداية الأمر لم يفكروا في الانفصال عن الدولة وإنما كانوا يطالبون بالإصلاح الداخلي ضمن لامركزية تتسع لطموحات وأماني شعوب الدولة " إنني أقرر بكل صدق وإخلاص بأني أنا وجميع من استعنت بهم وتعاونت معهم من رجالات العرب وشبانهم لم يخطر على بالنا الانفصال عن الدولة العثمانية .."[١٧].

ولكن هذه الدولة " العليّة " التي حاول المصلحون إخراجها من هوة التخلف والاستبداد التي تتردى فيها كانت من الضعف والتفسخ بحيث لم تكن نداءات أولئك المصلحين لتستطيع شيئاً حيال ذلك الواقع المخزي والمحزن . وحيال أطماع الدول الأوربية ورغبتها الجامحة في تفكيك تلك الدولة فقد كانت الدولة مهددة فعلا بالسقوط بسبب الانقسامات الداخلية ، والمخاطر الخارجية ، ولم يكن أمام المفكرين أو رجال السياسة المنصرفين إلى " إصلاح الاحوال " إلا أحد موقفين . إمّا الوقوف خلف السلطان ومساندته بكل قوة الجماعة حتى ولو كان ظالماً مستبداً وإما الوقوف أمام السلطان وتنبيهه إلى ضرورة الإصلاح العام الشامل وتحذيره من مغبة الاستمرار في الاستبداد والحكم الفردي المطلق . وقد اختار " أبو الهدى الصيادي " الموقف الأول بينما اختار رجال من امثال الكواكبي والزهراوي الموقف الثاني[١٨] .

وقد عمل " الزهراوي " ـ منذ شبابه – على نشر الوعي ، وتحرير العقول من كل براثن التخلف ليكون المجتمع على استعداد لما يلقى فيه من بذور الإصلاح ، وعلى استعداد لاحتضانها وإنباتها

النبات الحسن . وفيما يخص الجانب " العروبي " من نشاطه فإنه قد عمل على تنمية الحنس القومي العربي وإعلاء شان العرب " كجماعة " متميزة ضمن كيان الدولة ، وإزالة الحيف والظلم الذي نزل بهم سواء كان من الدولة مباشرة على يد السلطان والولاة والزبانية أو على يد عامة الأتراك الذين زين لهم جهلهم وتعصبهم ماكانوا يؤمنون به من أفكار فظنوا أن العرب قبائل متخلفة تحسن الدولة العلية حين تنزل بهم المصائب .

وقد سبق وذكرنا كيف أن كلمة " عرب " في لغتهم الدارجة تعني الأسود وأن بلاد عربستان تعني " موطن السود " ، وغني عن القول بأن كلمة أسود تعني من جملة ماتعني " العبد الرقيق " .

وكما سبق وذكرنا فقد كان كتاب " خديجة أم المؤمنين " بمثابة تذكير للعرب بأصولهم الطيبة ، وتعريف الآخرين بهم كأمة مجيدة نبيلة المحتد . قدمت للبشرية حضارة راسخة . ففي عهد السلطان " عبدالحميد " عمل (الزهراوي) على محاربة الفساد والظلم وكل مظاهر القهر والتسلط ، وشارك بفعالية في عملية القضاء على ما كان يمثله (عبد الحميد) من ظلم واستبداد ، كما عمل على بث روح الوعي القومي العربي في النفوس ، ولما نجحت الانتفاضة ضد السلطان الطاغية ، وأعلن الدستور ، كان " الزهراوي " من ألمع الشخصيات العربية التي ساهمت بتحقيق هذا الإنجاز . لذلك استدعي من أهل مدينته وانتخب عضواً في مجلس " المبعوثان " . وكان ذلك بداية لحقبة عارمة بالنشاط والتحفز فقد كان " الزهراوي بحق بطل هذه المرحلة ورجل المقاومة والحرية الأول . فهوما ان لمس التقصير في أعمال رجال جمعية " الاتحاد والترقي " حتى بدأ يهاجمهم ويكشف نياتهم بصلابة مدهشة ، وجرأة فذة ، ودأب لايعرف المهادنة من خلال مقالات ملتهبة ومتأججة ، [illegible] في تأججها تبقى تلتزم أشد الالتزام بالمنطق

والعقل . وبرأينا أن هذه المقالات ، والتي بدأت بعيد إعلان الدستور وبعد انتخابه لمجلس " المبعوثان " واستمرت إلى مابعد عقد المؤتمر العربي الأول هي التي قادته في النهاية إلى مصيره المحتوم . وكل من يقرأ تلك المقالات يدرك مباشرة أن منية هذا الرجل ، كانت تدفعه دفعا لمزيد من الدأب على مهاجمة الاتحاديين .. وهو - والحق يقال - كان على وعي تام بما ينتظره .. فهو ومنذ البداية يأخذ على الاتحاديين ادعاءهم بأن القانون الأساسي " الدستور " منحة منحها بعض شعوب الدولة " الأتراك " للشعوب الأخرى . فيعلن بأن الدستور إنما كان حصيلة كفاح مرير ، خاضه أبطال الجيشين " السيفي والقلمي " . وأن من بين هؤلاء الترك وغيرهم ، والعرب وسواهم . لذلك فهو يدعو قومه العرب للتمسك بالخصوصية العربية ، ويدعو إلى إعطاء اللغة العربية حقها من الاحترام ، وفسح المجال أمام العرب لتسلم مناصب مهمة في الدولة تتناسب مع عددهم وأهميتهم . وينعى على الذين يقولون بأنه ليس في العرب متعلمون بأن الجريرة جريرة أولئك الظالمين " ياقومي قد ظهر قوم " الأتراك " بمظهر حب الوطن فآمنا ، ولكن رأيناهم قد حصروا حبه في أنفسهم ، ثم جعلوا حبه كناية عن تكليف الناس بتناسي أنفسهم ، وعدّوا من لم ينس نفسه خائنا للوطن ، إلا أن الخائنين هم الذين يسوقون الوطن إلى نضوب ينابيع قوته . ألا فاعرفوهم وعالجوا آلام مخالفتهم بتذكركم انه لايضركم شيء . بإذن ا لله تعالى - مادمتم ذاكرين أن ا لله سبحانه هو واهب القوى. ومودعها في النفوس والأقوام التي تقدر قدر الحق ..."(١٩)

فهو وإن كان كغيره من رجالات عصر النهضة مع الاتحاد ، ومع العثمانية إلى أنه لايفهم من هذا الاتحاد تسلط شعب على شعب ،أو أمة على أمة ، إنما يجب أن يحتفظ كل شعب وكل أمة بالخصوصية المميزة كاللغة والتاريخ .. " لايقتضي هذا الاتحاد "

الجميل " أن يكــون أعضـاء مجلـس " المبعوثـان " كلهـم علـى فكـر واحد تديرهم سياسة حزب واحد ..."[٢٠] ..ويسخر مــن دعـاوي الاتحاديين ويهاجم تسلطهم على الشعوب الأخرى ، ورفعهم سيف الإرهاب في وجـه كـل منـاضل يريـد إعـلاء شـان قومـه ، واتهامـه بالخيانة .. " بحق عظيم أقول .. أنـني منـذ ولجـت هـذه الابـواب " السياسة " أسعى للاتحاد معروفاً فيـه ، ولاأزال أسـعى لـه مـادام في رأسي العقل الذي يفهم الاتحاد قوة للعثمانية وأن تقوية العثمانية هو الـذي يسـر أرواح الأسـلاف ، ونفـوس المعــاصرين والأخــلاف ، وهؤلاء هم الذين بيني وبينهم الحساب . "[٢١]

وفي دفاعه عن العثمانية كرابطة ، أو كإطـار عـام ، لم ينطلـق مـن منطلقـات تمـت مـن قريـب أو بعيـد إلى التعصـب الديــني ، أو الجمود الفكري . فهو يرفـض فكـرة " الجامعـة الاسـلامية " رفضـاً صريحاً وحاسماً وبعبارات حادة ولأسباب عقلية ومنطقية .

وهو مـع إيمانـه " بـالوطن العثمـاني " العـام ، لاينسـى وطنـه الخاص . لذلك فهو يدعو إلى إعطاء كل شعب من شـعوب الدولـة حقه كاملا في المشاركة الفعالة في تسيير أمـور الدولـة كمـا يعمـل على رفع شأن كل شعب وفق خصوصيته المميزة ويدعو لأن تـزول فكـرة العنصـر الحـاكم مـن الأفكـار وليـس مـن قــاموس السياســة فحسب"[٢٢] . ويتهكم على أسلوب الاتحاديين المتمثل باسـتقطاب بعض الأفراد " الوصوليين " وإدخالهم في حزبهم ، ليكونوا أدواتهـم في استلاب شعوبهم ، وزبانية لهم في قمعهـا : "مـاذا تـأمل الجامعـة العثمانية من أفراد قليلين يدخلون في غمار الجمعيـات (الأحـزاب) التي تنادي وتدعـو للاتحـاد إذا كـان أكـثر الأفـراد في أممهـم يغلـب عليهـم الإهمـال ..."[٢٣] أي - وبعبــارات أخــرى - يدعــو إلى العنايـة بالجماهير وتوعيتهـا وإلى عـدم الاكتفـاء بـالنخب صاحبـة المصلحة الضيقة .

وخلاصة القول في هذه المسالة أن الزهراوي " في دفاعه عن الجامعة العثمانية " إنما كان ينطلق من منطلقات اجتماعية وأخلاقية وحضارية " مدنية " لأنه كان يدرك أن لانجاح الا للكيانات الكبيرة والقومية أمام تسلط القوى الأوربية الطامعة . ويستشف من كتاباته ومن خطاباته .. أنه كان يرى " العثمانية " كإطار واسع وفضفاض يتسع في ثناياه للخصوصيات القومية تماما كما تحاول أن تفعل الآن (الجماعة الأوربية) مثله بل نكاد نزعم أنه كان يفهم هذه " العثمانية كإطار أقل شدة وصرامة مما تفرضه بعض الدولة الكبيرة المعاصرة على شعوبها ذات الحضارات واللغات المختلفة .. فهو مثلا لايحرص على الحفاظ على (العثمانية) لمجرد أن تبقى الدولة موحدة ، ذلك أنه لاخير في كيان تكون فيه الشعوب ، ويكون فيه الأفراد مجرد أرقام مجموعة إلى بعضها . بل كان يريد من العرب الموحدين ضمن الدولة العثمانية أن يكونوا عنصرا فاعلا وفعالا ، متحررين من كل القيود والأغلال العقيمة . وكانت رؤيته (للعثمانية) متناقضة تماما مع رؤية الاتحاديين لها ففي حين كان الاتحاديون يرونها على أنها الوسيلة لتسلط العنصر التركي على الدولة ، وعلى بقية العناصر والشعوب . التي كانوا يعتبرونها مجرد أتباع ورعايا يدورون في فلكهم . فإن " الزهراوي " يرى في (العثمانية) كيانا كبيرا تترابط فيه عضويا شعوب الدولة العثمانية وتعمل معا على رفع شؤونها الخاصة ، مما ينتج عنه - تلقائيا - الارتقاء بالدولة.

وقد أدرك (الزهراوي) أن « الوحدة السياسية التي كونها الحكم التركي العثماني في الأقطار العربية التي خضعت له وحدة سكونية صورية عاطلة - إلى حد بعيد - عن الديناميكية السياسية والاجتماعية والثقافية التي تفرضها كل وحدة حقيقية .. والوجود العربي في إطار هذه الوحدة (الامبراطورية) قد انسحب من مركز القيادة والتوجيه ليصبح تابعا محدود الأثر باهت التاثير فاقد الروح إلى حد بعيد»[٢٤] .

لذلك أراد أن يخرج العرب من لامبالاتهم ، وأراد أن يكون لهم الحق ، ليس في إدارة بلادهم العربية (وطنهم الخاص) فقط - وهذا حق من أقدس حقوقهم - وإنما أراد أن يكون لهم الحق كذلك في المشاركة الفعالة والمؤثرة في قيادة الدولة (وطنهم العام) .بما يتناسب مع أعدادهم وكفاءاتهم وحضاراتهم .

لذلك كان كثير التشكيك بالإحصاءات الرسمية عن عدد العرب، ويدعو إلى القيام بإحصاءات جديدة وموضوعية تشمل المنطقة العربية (المشرق والمغرب) ثم تقاسم المناصب على ضوء هذه الإحصاءات .

والذي لابد من الإشارة إليه هنا أن الزهراوي كان يدرك أن صلاح أمور الدولة وأخدها بأساليب التقدم والعلم كفيل بإيصال العرب ، ليس فقط للتحرر من قهر وظلم الاتحاديين وإنما إلى امتلاك زمام الدولة - ولو بعد حين - وعند ذلك لن تبقى وحدة العرب سكونية بل تتحول إلى وحدة تمور بالإنجازات الرائعة على كل الصعد .

وكان للحرب الاستعمارية التي شنتها ايطاليا على (طرابلس الغرب) انعكاسات حادة على أوضاع الدولة العثمانية عامة ، وعلى الشعور القومي العربي بشكل خاص . فقد أدرك العرب أن الدولة العثمانية بأوضاعها المتخلفة عاجزة عن حمايتهم من الهجمة الاستعمارية، وعاجزة عن مجابهة الدول الأوربية الطامعة، ولايبدو أن عندها الرغبة في هذه المجابهة ، لذلك فقد تنادى الشباب العربي من كافة أقطار العروبة في المشرق والمغرب للدفاع عن ليبيا (طرابلس الغرب) . وخوض حرب مقاومة رائعة في الوقت الذي أبدت فيه الحامية التركية والدولة العثمانية عجزا مطلقاً وتخاذلاً مهينا .

وعندما تحدث (الزهراوي) في مجلس (المبعوثان) عن تخاذل الحامية التركية أجهش بالبكاء فقال له بعض زملائه في المجلس لاتبك فاننا سنستعيدها (طرابلس الغرب) التفت إليهم قائلاً أنا لاأبكي على طرابلس الغرب إنما أبكي على سورية والعراق و (الروم ايلي) .. لأنه أدرك أن المقدمات التي يراها ستؤدي إلى تلك النتيجة . وقد أثبتت الأحداث بعدئذ صدق نظرته وشفافية تفكيره . وقد كتب سلسلة مقالات انتقد فيها تصرفات الدولة تجاه (طرابلس الغرب) في نفس الوقت الذي أيد فيه بقوة المقاومة القومية العربية التي خاضها الشباب العربي واعتبر أن طريق المقاومة والفداء هي الطريق السليمة والوحيدة لاسترداد الحقوق .. ((إن طرابلس الغرب ، إنما يحارب فيها اليوم - في الحقيقة - أولئك الأسود من أهل جيرتها (العرب) وأنه لولا قوتهم تلك، لكان الأمر في هذه المسألة أكثر إشكالاً ، وأدعى إلى زيادة الأسف . فبأولئك العرب الكرام (المقاومين) يجب أن يقتدي سائر العرب ، ويحسبوا حساب الغد ، ولايقولوا وراءنا فلان وفلان (من الدول الأجنبية) فإن لفلان وفلان هموماً أخرى ومصالح أخرى وليس لهم (العرب) من خل وفي إلا أعضادهم ، وما قبضت عليه أكفهم (من الأسلحة) ، إن كان تحت أكفهم بواتر . ومن أراد تجريدهم من تلك البواتر - بأية وسيلة وأي أسلوب كان - فليعلموا أنه خائن لدولتهم ولوطنهم العام ولوطنهم الخاص ولايلوموا إلا أنفسهم إن سكتوا أمام تدابير الخائنين)) (٢٥) .

بهذه الكلمات الرائعة والناضجة والملتزمة ، يؤكد أهمية المقاومة المسلحة ، ويحذر من المؤامرات التي تهدف إلى تجريد المقاومين من أسلحتهم ، تحت أي ادعاء كان ، كما يحذر المقاومين من الانخداع بشعارات وادعاءات يطلقها الخونة، ويؤكد لهم أن قوتهم وسلاحهم وحده ، هو السند وهو الضمانة وهو الهوية وعنوان

الوجود وطريق النصر . ومما يلفت الانتباه حديث (الزهراوي) عن (جيرة) طرابلس الغرب من العرب واشتراكهم جميعاً من المشرق والمغرب - في دفع ضريبة الدم أي أنه وبكلمات أخرى يؤمن بوحدة الوطن العربي . مشرقاً ومغرباً - والوطن الخاص الذي تحدث عنه يشمل المنطقة العربية كلها .

ويمكننا أن نلخص الفكر العروبي عند (الزهراوي) على الشكل التالي :

- إيمان عميق بأن العرب أمة مجيدة ، تمتد جذور عراقتها إلى أعماق التاريخ ، وأن هذه الأمة تبني لنفسها منذ أقدم العصور معالم راسخة من الحضارة في مختلف الميادين ، وأن الإسلام كان الرسالة العظيمة والخالدة التي حملتها أمة مستعدة لتلقي الأمانة فخرج العرب فاتحين محررين ونظراً لسمو معدنهم ، وعظمة رسالتهم ، استطاعوا أن يحققوا انجازاً تاريخياً عظيماً يستحق الوقوف عنده ، لأنه ليس من الأمور الطبيعية التي (تتكرر كل يوم) على حد تعبيره .
- وبعد أن يؤكد على نبل المعدن العربي وأصالة العرب في صنع الكثير من الأمجاد ، يدعو العرب لأن ينفضوا منار ان على وطنهم ونفوسهم من غبار التخلف ، ويدعوهم لأن يتخلصوا من براثن الجهل ، وإلى الانطلاق إلى ميادين الفعل الإيجابي والمقاومة لكل أشكال الاستبداد والاستقلال الداخلي والخارجي .
- وحين دعا إلى تحقيق الطموحات العربية والانتقال إلى التقدم والإصلاح وانتقال الأفراد من خانة الرعايا إلى خانة المواطنين بكل ماتعنيه كلمة المواطن من معنى ومن التزامات وواجبات وحقوق ضمن الدولة العثمانية ، فإنه إنما فهم (العثمانية) على أنها إطار واسع فضفاض لايضيق عن طموحات الشعوب المنضوية تحت راية العثمانية وتعاون هذه الشعوب على بناء مصالحها ومستقبلها .

وقد فهم معظم رجالات العرب في تلك الفترة الأمور على هذا النحو . وعندما أرسل حزب (اللامركزية العثمانية) مندوبيه إلى مؤتمر باريس العربي – الذي كان عملاً جبهوياً عربياً – إنما فهم قضية الكفاح والنضال العربي على هذا النحو كذلك ، مثله مثل معظم (الجمعيات) العربية . ولم يكن يخطر ببال أحد من مندوبي المؤتمر البارزين الانفصال التام عن الدولة العثمانية ، باستثناء بعض عملاء المخابرات والقنصليات الفرنسية ، الذين كانوا يمهدون للاستعمار الفرنسي ، والذين كانوا يهدفون من عقد المؤتمر – أساساً – إلى توريط حركة الإصلاح العربي للدخول في عملية (طلاق نهائي) مع الدولة العثمانية . ولما انكشف أمر هؤلاء أوفد المؤتمر إلى وزارة الخارجية الفرنسية من يبلغها . بعد الشكر على استضافة المؤتمر . أن الحركة العربية إنما تهدف إلى تحقيق الإصلاحات التي تمخض عنها المؤتمر ضمن إطار الدولة العثمانية . وقد استاءت فرنسا من هذه النتيجة وأرسلت وزارة الخارجية الفرنسية إلى ممثليها وقنصلياتها مامعناه بأن الحركة العربية (قد انقلبت علينا) .

فقد كان الداعون إلى عقد مؤتمر باريس مختلفين من حيث المنطلق والمبدأ ، فمنهم من كان يهدف من عقد المؤتمر إلى تكتيل الجهود العربية المبعثرة ، وجعل الجمعيات (الأحزاب) العربية تتفاعل ضمن عمل (جبهوي) .... ومن هؤلاء (عبد الغني العريسي) ومنهم من كان يريد تفكيك الدولة لصالح الدول الأوروبية (فرنسا خاصة) ، وليس من أجل قيام الدولة العربية المستقلة ، لأن هؤلاء كانوا يحصرون همهم في نطاق (بيروت وماحولها) ولم يشربوا ومن مشرب الجامعة العربية ولاقطرة على حد تعبير (الزهراوي) – وكانوا يعلنون صراحة بأنهم لايستطيعون حكم أنفسهم ، وأنهم يدعون لدخول فرنسا لحكمهم ، وأنهم يعتبرون فرنسا وطنهم

بالتبني . . . [٢٦] وعندما ظهر هذا الأمر جلياً (للزهراوي) وغيره ، عمل جاهداً على إقناع الاتحاديين بخطورة الوضع ، ودعاهم إلى تلبية المطالب العربية الحقة ، والتي من شأنها إذا طبقت أن تحقق القوة والمنعة للدولة ككل . وعمل على إقناع حزب اللامركزية بضرورة فتح صفحة جديدة مع الاتحاديين ، الذين لابد وأنهم قد أدركوا مدى الخطر الذي يحيق بالدولة كما أنهم قد أدركوا أيضاً أهمية التعاون مع العرب للوقوف في وجه ذلك الخطر ، الذي تحدث عنه (الزهراوي) بوضوح " لقد كشفت أوربا آخر ستار من ستر السياسة في المسألة العثمانية وقررت التداخل في سائر شؤونها ، وإنما لايزالون مختلفين بعض الاختلاف في كيفية هذا التداخل وكميته وصورة توزيعه فيما بينهم . وليس في أوربا اليوم موضوع مقدم عن هذا الموضوع ، ولايمضي ثلاثة أشهر حتى تتمخض الليالي فتلد ذلك الشكل الجديد الذي يتفقون عليه " [٢٧] . وعندما تظاهر الاتحاديون عبر وفدهم إلى باريس بالرغبة بالاستجابة للمطالب التي أسفر عنها (مؤتمر باريس) ، مقسمين على ذلك أغلظ الأيمان . اتفق بعض رجالات العرب معهم ، ومن بين هؤلاء (الزهراوي) و (عبد الكريم الخليل) بعد أن أبدى الاتحاديون رغبة واستعداداً لتنفيذ بعض الإصلاحات في الولايات العربية . وكان قبول (الزهراوي) وزملائه المناصب سبباً في إثارة نقمة عارمة ضدهم ، لاسيما ضد (الزهراوي) أشهرهم - ومما يثير الدهشة والانتباه - لأول وهلة أن يساهم في إثارة هذه النقمة الفرنسيون والمرتبطون بمشروعهم من جهة ، والاتحاديون وزبانيتهم من جهة ثانية ، كل حسب مصالحه . ففي حين صور البعض قبول المنصب على أنه خيانة للقضية العربية ، صوره آخرون على أنه استسلام رخيص ، وسقوط ذليل أمام الأنانية والمصالح الشخصية . ففي حين كان (حقي العظم) يثير عاصفة (غوغائية) ضد (الزهراوي)

ويرسل الرسائل التحريضية إلى بعض رجالات سورية هذه الرسائل التي جرتهم. فيما بعد إلى مشانق (جمال باشا السفاح) دون أن يكون لها أي أثر إيجابي على مسيرة الكفاح العربي ... ولم يكن (حقي العظم) في عمله (الغوغائي) متهوراً فقط [٢٨] إنما كان يعمل بوحي من مصالحه الشخصية المرتبطة بالمشروع الفرنسي المرسوم ، وقد دلت الأحداث بعد ذلك على مدى صدق (العظم) في مهاجمته للزهراوي وغيره ؟!!.

وفيما كان (حقي العظم) منهمكاً في إرسال رسائل التحريض ضد (الزهراوي) وبينما كان المرتبطون بالمشروع الفرنسي يصبون الزيت على النار في هذه الحملة المجنونة كان الاتحاديون وزبانيتهم يتهمون (الزهراوي) ورجالات العرب من خلاله بأنهم ماطالبوا بالإصلاحات إلا للوصول إلى المناصب. [٢٩].

ومن العجيب حقاً أن يتلقف بعض الدارسين لهذه المرحلة ، ولهذه القضية بالذات من أمثال ((سهيلة الريماوي - ود. عبد الله حنا ..)) هذا الاتهام ويبنون آراءهم على أساسه ، متنكرين لكل القرائن الدالة على أن (الزهراوي) في قبوله لمنصب (الأعيان) - إن كان مخطئاً أو مصيباً - لايمكن أن يكون منطلقاً من مصلحة شخصية لأسباب كثيرة يجب أخذها بعين الاعتبار منها :

- أنه ماعرف عنه أنه اشتغل بمصلحته الشخصية في يوم من الأيام، ومنها أنه في نضاله السياسي والإصلاحي الذي استغرق عمره وجهده كان دائماً في المعارضة ، والساعي للمناصب يدرك أن الوصول إليها يكون (بمماشاة آباء المملكة وليس بمعارضتهم) . ومنها أن (الزهراوي) لم يكن مغموراً ، ولم يكن بحاجة لمنصب ليطل منه على دنيا الشهرة والزعامة .

ومنها تهجمه (الصادق) على أدعياء الإصلاح الذين يفهمون الإصلاح على أنه طريق لتسلم المناصب (إن جاءت فقد جاء

الإصلاح) " أمّا طلاب المأموريات (الوظائف) فجياع مساكين لايفهمون من الإصلاح إلا المأمورية ان جاءت فقد جاء الإصلاح وإن لم تجيء فقد منع الإصلاح " (٣٠) فلايعقل لمن كان هذا رأيه وديدنه في حياته كلها أن يقع في فخ طالما حذر منه . ثم إن (الزهراوي) ماقبل المنصب ، إلا بعد رجوعه إلى (حزب اللامركزية) وبغض النظر عن التحفظات التي أبداها الحزب تجاه هذا الموضوع والتي نشرت بعد استشهاد (الزهراوي) إلا أن الحزب وافقه على (المضي بتجربته) وبرقية الحزب التي تأذن له بقبول المنصب اعتبرها (جمال باشا السفاح) بعد ذلك دليلا على خيانة (الزهراوي) ومبررا كافياً لإعدامه .

ويبدو أن الحرب الصحفية والإعلامية التي شنها المرتبطون بالمشروع الفرنسي وزبانية الاتحاديين قد نجحت في تأليب الرأي العام وتصوير الأمر على أن السلطة قد اشترت رجال المعارضة ... مما دفع بعض الشخصيات العربية البارزة إلى الوقوف في وجه تلك الحملة الظالمة فهذا (سليم الجزائري) يذكر في رسالة له إلى أحد اصدقائه : .. ((إن الاتفاق الذي أبرموه (الاتحاديين) مع (الزهراوي وعبد الكريم) ولا يسعدنا وليس فيه كل مانحتاج إليه.... ولكن مالعمل أيجوز لنا أن نخطئ (الزهراوي) وننتقده على هذا الاتفاق ؟ أنا لست على هذا الرأي لأن (الزهراوي) لو لم يتفق مع الحكومة ، فكنا الآن في أشد المآزق حرجا . فإما أن نقوم بعمل يهدد استقلال الدولة العلية ، ويؤدي إلى عكس الغاية التي نرمي إليها ، وهي نيل حقوقنا من (إخواننا) الترك ، ومشاركتهم في كل مايؤدي إلى تقوية الدولة ، وإسعاد سكانها أو أن نخلد إلى السكينة ، بعد كل هذه (القرقعة) فيهزأ العالم بنا ، ويحتقرنا الاتحاديون أنفسهم ونصير مثلاً للناس .... (٣١) . وهذا (محمد رشيد رضا) بعد أن يشير إلى (اللغط والقيل والقال) الذي دار حول

قبول (الزهرواي) لمنصب الأعيان يقول : ((٠٠٠٠٠ إن أول نتائج الطعن في مثله - وقل أن يوجد مثله في طهارة سيرته الشخصية والسياسية - هي زوال ثقة الأمة من زعمائها بقياس أنزه الصادقين على أخس المنافقين ٠٠٠ وما أولئك الطاعنون إلا حاسد يذم من (الزهراوي) مايتمنى مثله لنفسه ، أو نفعي ساء ظنه لسوء نيته وفعله ، أو غيور شديد العصبية قليل الروية يبادر إلى ارضاء حميته ولايحسب حساباً لعاقبة قوله أو فعله ٠٠٠ ولم يكن (الزهراوي) من أهل الأهواء الذين يجعلون مصلحة الأمة والدولة تبعاً للأغراض، وعرضة للعواطف والأحقاد ٠ بل كان يحب العمل المبني على القواعد المعقولة والرغائب المأمولة " [٣٢] (فالزهراوي) في قبوله للمنصب : إنما أراد أن يكون للعرب رجال قريبون من مواقع اتخاذ القرار لأنه مهما عرف عن الاتحاديين من تعصب وعنت ، لايجوز اليأس من إرجاعهم إلى حظيرة الصواب (إن اليأس لايجوز في حال من الأحوال، ولكن الأمة في كل أطرافها ليست بحالة يعتمد عليها في شيء ، وإنه مع هذا لايجوز إهمالها ٠ ولذا لايجوز إهمال من بيدهم أمر المملكة ، وتركهم وحدهم ٠ وإنه لابد لنا ههنا من رجال ٠ وإن أكثر مايتصرف به الرواة غير صحيح وإني منتظر أمركم بسرعة (أي الأذن بقبول المنصب) [٣٣] وخلاصة القول فيما يتعلق بأمر قبول (الزهراوي) لمنصب الأعيان أنه بقبوله هذا المنصب لم يتحول عن سيرته ، ولم يصبح أحد أزلام السلطة وشريكاً لها في استلاب الأمة كما أحب البعض أن يقولوا * بل أراد أن يكون الشريك الممثل للقضية العربية ولكن يبدو أن منطق الأحداث مضافاً إلى عنصرية الأتراك ، أقوى مما كان يظهر إلى

---

* انظر ٠د٠ عبد الله حنا "أضواء على الاتجاهات العربية في سورية - برامج الجمعيات والأحزاب السياسية (١٩٠٨-١٩١٤) - حزب اللامركزية الادارية العثمانية " جريدة الثورة العدد ٦٩١٥ تاريخ ٢٣ |١٠|١٩٨٥٠

الدرجة التي تبدو فيها آراؤه بهذا الخصوص ٠- بعد أن حدث ماحدث - ساذجة (طوباوية)

ولكن (الزهراوي) كان صادقا ونزيها وبعيداً عن كل ماالتهم به نتيجة قبوله هذا المنصب ٠ ولم يكن رفضه للمنصب ليقدم أو يؤخر شيئاً في وجه الأحداث العاصفة التي كانت تهب على المنطقة من كل جهة ، بينما كان قبوله للمنصب متمشياً مع منطق تفكيره، ومع مذهبه السياسي ٠ ولكن الاتحاديين كانوا بعنصريتهم المقيتة أبلد من أن يدركوا المهاوي التي يسوقون إليها الوطن ، أو ربما كانوا متآمرين على سوق الوطن إلى تلك المهاوي ٠ وقد أدرك (الزهراوي) - بعد خراب البصرة - خيانة الأتراك فقال وهو على منصة الإعدام : ((إن العناية ترعى وطننا الحبيب وإننا سوف نصل إلى الحصول على استقلالنا كاملاً بعد أن ننتقم من الخونة الأتراك))(٣٤)

وعلى العموم :

فقد كان (الزهراوي) عربياً فخوراً بعروبته ولم يكن تمسكه بالعثمانية على حساب عروبته فنظرته إلى (العثمانية) كإطار سياسي فضفاض يتسع لطموحات شعوب الدولة جميعاً أشبه بما نراه اليوم من تكتلات إقليمية تقوم على المصالح المشتركة لاعلى هيمنة قومية على أخرى ٠

وربما يكون (الزهراوي) أول من حدد الوطن العربي بحدوده التي نعرفها الآن وهو من أوائل القائلين بعروبة الشعوب التي سكنت هذه المنطقة ومن أوائل القائلين بأن الحضارات التي أنتجتها تلك الشعوب هي حضارات عربية ٠ وهو حين رفض (الجامعة الإسلامية) فإنما رفضها عن تبصر وعن وعي سياسي ومن منطلق

مؤداه : أن الرابطة المدنية من أقوى الروابط في حياة المجتمعات ٠ والطريف أن يصدر هذا الموقف عن رجل يصنف عادة في زمرة المصلحين من رجال الدين كما فعل ذلك (د٠ منير مشابك موسى)٠

■

هوامش الفصل السابع :

١ - عبد الحميد الزهراوي ، خديجة أم المؤمنين ، (القاهرة ، مطبعة المنار ، ١٣٢٨ هجري) الصفحة ١٤ - ١٥

٢ - د. نجاح العطار ، ((الزهراوي في كتابه خديجة أم المؤمنين)) ، كلمة ألقيت في مهرجان الفكر والعقيدة المنعقد في حمص ١٩٦٠ (دمشق ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٢) .

٣ - عبد الحميد الزهراوي ، خديجة أم المؤمنين ، صفحة ٢٥

٤ - المصدر السابق .

٥ - المصدر السابق .

٦ - المصدر السابق .

٧ - انظر : المصدر السابق .

٨ - انظر : المصدر السابق .

٩ - المصدر السابق صفحة ٩ - ١٠.

١٠ - المصدر السابق ، صفحة ١٣ - ١٤.

١١ - المصدر السابق ، صفحة ٣٩ - ٤٠.

١٢ - المصدر السابق ، صفحة ٤٠.

١٣ - المصدر السابق ، صفحة ٤٠.

١٤ -

١٥ - أنور الجندي ، عبد العزيز الجاويش ، من رواد التربية والصحافة والاجتماع . (القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٦٥) ، صفحة ٢٤ - ٢٥.

١٦ - مصطفى الشهابي ، محاضرات في الإستعمار ، مصدر سبق ذكره ، صفحة ٥٠.

١٧ - د. سليمان موسى ، ((محب الدين الخطيب)) ، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، (دمشق ، وزارة التعليم العالي ، ١٩٧٩) ، الجزء الثاني صفحة ١١٥ - ١١٦.

١٨ - د. فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، مصدر سبق ذكره صفحة ٢٥٨.

١٩ - عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الحضارة ، أحد أعداد السنة الأولى نقلا عن مجلة الإنسانية الحموية .

٢٠ - عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية -٢-" ، جريدة الحضارة ، السنة ٢ العدد ٥٤ ، ٢٠ نيسان ١٩١١.

٢١ - المصدر السابق .

٢٢ - المصدر السابق .

٢٣ - عبد الحميد الزهراوي ، " تربيتنا السياسية -٣-" ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية العدد ٥٥ ، ٢٧ نيسان ١٩١١.

٢٤ - د. فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكر الإسلام ، صفحة ٩٥ - ٩٦.

٢٥ - عبد الحميد الزهراوي ، " اليوم وبعد اليوم -٦-" ، جريدة الحضارة ، السنة الثانية العدد ٨٥ ، ٢٣ تشرين الثاني ١٩١١.

٢٦ - انظر : د. وجيه كوثراني ، بلاد الشام السياسة والاقتصاد والسياسة الفرنسية قراءة في الوثائق ، مصدر سبق ذكره .

٢٧ - عبد الحميد الزهراوي ، الرسالة السرية إلى محمد رشيد رضا ، مصدر سبق ذكره .

٢٨ - انظر ، د. سليمان موسى ، " محب الدين الخطيب " ، مصدر سبق ذكره.

٢٩ - انظر : د. وجيه كوثراني ، بلاد الشام ... مصدر سبق ذكره .

٣٠ - عبد الحميد الزهراوي ، الرسالة السرية إلى محمد رشيد رضا .

٣١ - سليم الجزائري ، رسالة لأحد أصدقائه مؤرخة في عام ١٩١٤/١/١٥ ، "

الرسالة في أحد أعداد بجلة الحرب العظمى .
٣٢ - محمد رشيد رضا ، مجلة المنار ، ج٣ | م١٩ ، ١٧٢.
٣٣ - عبد الحميد الزهراوي ، الرسالة السرية إلى محمد رشيد رضا .
٣٤ - جهاد نجيب محي الدين ، "المقاومة العربية في بلاد الشام وجمال باشا ٩١٥ - ٩١٦ : "المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، (دمشق ، وزارة التعليم العالي، ١٩٧٩) ، صفحة ٣٨٦.

■

الفصل الثامن

التجديد

من أبرز صفات هذا المفكر العبقري ، أنه يضع آماله أمامه ، ويرى النموذج الذي يسعى لتحقيقه في الغد ، الذي يرجو أن يكون أكثر إشراقاً ، وهذه هي ميزة المفكر التقدمي . (فالزهراوي) لم يكن كغيره يعود إلى الوراء ليستمد من ثمة الشرعية لما يدعو إليه ويبشر به . فلم يؤثر عنه أنه دعا في يوم من الأيام إلى استعادة /ألق الماضي/ ، أو إلى أحياء أمجاد العصور الذهبية الخوالي ، أو إلى النسج على منوال الأسلاف، انطلاقاً من مقولة (أن آخر هذا الأمر لايصلح إلا بما صلح به أوله) بل وعلى النقيض تماماً ، يعتبر ((العناية بالمستقبل ، والعمل له صفة من صفات الإنسان الراسخة ، وأخلاقه الثابتة ، وغريزة من الغرائز المميزة له عن سائر الحيوانات . . . بهذه الغريزة بلغ الإنسان مابلغ من الرقي المادي والمعنوي وبها حدثت المزاحمة بين الأعمال ، والمنافسة في العروج إلى الكمال وبها ارتقت علوم البشر ، وتفرعت معارفهم وتقدمت الصناعات والفنون)) [1] .

ونظراً لفهمه العميق لأهمية العمل للمستقبل ، كان همه بناء مستقبل الأمة (العربية) على أسس علمية وموضوعية ، و كان في

خطابه الفكري ، دائـم التهكـم والسـخرية مـن مقولـة (العـودة إلى الماضي المجيد) ، بقصد تحطيمها ، وانتزاع القداسة التي يحاول البعض إلصاقها بتلك الأزمنة ((... ولوع الناس بـالقديم ونسـبة البركـة والتقديس إلى الأقدم فالأقدم هذه المسألة التي أضلت الأمـة وأنزلتهـا عن معارج الارتقاء . ولولا هذه المسألة لما كان علينا من سـبيل إذا قلنا الحق في شيء يظهر فيه كـذب بعـض وخطـأ بعـض مـن الذيـن خلوا من قبلنا)) [٢]

فتقديس الأزمنة بقدمها ، يحمـل في طياتـه سـوء فهـم لحقيقـة ماحدث في التاريخ فالأزمنة القديمة لم تكن أكـثر صلاحـاً ، لاعلـى المستوى الإنساني العام : " إن العهد بالفتن والشرور البشـرية قديـم جـداً وإن وجـه الأرض مـاتطهر قـط مـن رذائـل التدليـس وفظـائع الأعمال في عصر من العصور ... هذا آدم قتل أحـد ابنيـه الآخـر فممن تعلم القاتل ذلك الشر ونوح ... ولـوط ... متـى صلـح الزمان ؟)) [٣] ولاعلى المسـتوى القومـي (العربـي) ((... فلـم يمض الثلث الأول من القرن الأول على المسلمين حتى كفر بعضهـم بعضاً ، فتحاربوا وتحازبوا وتخاذلوا إلى أن انقسموا إلى ثلاث : فئتان تشايع كل منهما رئيساً كبـيراً ، وأخـرى خارجـة عـن دائرتيهمـا ، ناقمـة عليهمـا حاليهمـا . ولم يمـض الثلـث الثـاني حتـى انقلبـت دعوتهم إلى الدين وتهذيب النفوس ، دعوة إلى الملـك والاسـتئثار ، وتوسيع الأبهة ، وجعله منحصراً في أسرة يحـدث أفرادهـا ماشـاؤوا أن يحدثوا . ولم يمض الثلث الثالث حتى تكـاملت أصـول الشـيع ، وأحدث في الدين من أحدث ، واخـترع مـن اخـترع ... أفليـس هذا هو أمرنا في القرن الأول الذي عليه مـدار فخرنـا ، وإليـه يـرد أصل مجدنا ، وفيه اتسـع سـلطان حكمنـا ، وعـلا منـار ديننـا))[٤] وحتى لايخطر ببال أحد أن (الزهراوي) يحاول أن يهرب من جلده، أو أن يتهرب من تاريخ أمته ، نذكر بما كـان يكتبه ويخطـب بـه ،

مفتخراً بامجاد أمته العربيـة وبإنجازاتهـا الحضارية الرائعة على كـل الصعـد . كمـا نـود أن نؤكـد اعتـداده الشـديد بتعـاليم الديـن الإسلامي، وما أنتجتـه مـن قيـم واتجاهـات . . .((فهـو (الإسـلام) الذي غرس في نفوسنا حـب الحقـائق ، وقـوى عزائمنـا علـى قـول الحق، وهو الذي نهانا أن نتخـذ المشـهورين أربابـاً . . وهـو الـذي عرفنا قيمة العقل ، وهدانا إلى نقد النقل ، وهـو الـذي حذرنـا مـن التمويه والمموهين . . . وبين لنا الذين يكتبون الكتب بـأيديهم ثـم يقولون هذا حكم الله ، ألا إن الله بريء ممن لايصلحون)) [٥] .

ولكن (الزهراوي) أراد أن يؤكد أنه ضد تقديـس كـل ماجـاء عـن الأجـداد لالشـيء إلا لأنـه جـاء عنهـم . وبعبـارات أخـرى إن (الزهراوي) في دعوته الملحة للاهتمام بالمستقبل والتحرر من مقولـة الماضي الذهبي للأمة لم يكن يتنكر للتاريخ ، ولم يكـن يدعـو النـاس لنسيان مآثر أجدادهـم ، ولكنـه كـان ضـد الاسـتلاب والتواكـل ، والاتكاء على أمجاد مضت . ثم هو يمقت المبالغـات في نسـبة المـآثر للأجداد وادعاء مالم يكن لهم . . . " لايؤخذ على من يحتفظ بآثار قومه وينشر محاسنهم ويستنهض همم الأبناء إلى الاقتداء بهم واقتفاء آثارهم ولاينكر عليه أن يبذل اقصى مافي وسعه لتخليد ذكرهم لأن ذلك من مقتضى طبيعة النوع من أشد عوامل الإرشـاد تأثـيراً . . . إنما يؤخـذ عليـه إسـرافه في ذلـك وتبجحـه بالبـاطل وتزينه بمـاليس عنده . . . " [٦] .

فالايمان بالمستقبل ، والعمـل لـه ، صفـة للإنسـان وميـزة مـن ميزاته الرئيسية والإنسان لايعرف الوقوف عند حد ، ولايقتنع بـأي إنجاز ، فالإنسان ((بفضل قدرته علـى الصنـع ، يصبـح سيداً علـى الأرض . وقـد أورثـت النفـس الإنسـانية خصلـة مهمـة هـي عـدم الوقوف عند حد وغاية ويقدار مايحسـر الوقـوف علـى طبيعـة هـذه النفس يسهل تبين (هذا الابتلاء) . . . وبفضـل عـدم قناعـة الإنسـان

بالوقوف عند حد وغاية استيقظ من سباته وراح يتطلع إلى الأرض من حوله ... مادا بصره إلى الأكوان الأخرى يستقصي حقائقها ويبحث عن أسرارها ... (٧) وهذا المستقبل الذي يرسمه الأمل ، إنما هو نتيجة للخبرات البشرية ومحصلة للإنجازات الإنسانية . وهو يعتقد أن التنافس لبناء المستقبل الأفضل هو الدافع والمحرك للنشاط البشري ((لولا حب الزينة لما كان من حاجة إلى الصنائع ، ولولا كثرة الصنائع لما توفرت أسباب الاجتماع ، ولولا الاجتماع لما تبودلت الأفكار ، ولولا تبادل الأفكار لما حصلت المعارف الإنسانية، ولولا المعارف الإنسانية لكانت حياة الإنسان كحياة البهائم)) (٨)

وكما كان متوقعاً من إنسان يجعل أهدافه أمامه دائماً ويسعى إلى بناء المستقبل الأفضل على (الأسس المعقولة) ، فقد عمل على تحطيم كل الأغلال والقيود التي تكبل الإنسان ، وتشده إلى الوراء وتمنعه من المبادأة والمبادرة كما عمل على تحطيم الأوثان الفكرية التي سيطرت على العقول والنفوس ومنعتها من الإبداع (والرقي) وكبلتها بمقولات حاولت أن تضفي عليها براقع من القداسة .

و(الزهراوي) حين بدأ بتحطيم تلك المقولات منذ وقت مبكر من نضاله الفكري والسياسي إنما حاول - كما سبق وذكرنا - تحرير الإنسان - المواطن - من كل أشكال القهر والتسلط . وإذا كان قد بدأ بتحرير العقول والنفوس من أوثان التقليد الأعمى فلأنه يعرف أن هذا هو المقدمة الحقيقية والطبيعية للتحرر من طواغيت (الأستانة) وزبانيتها وأزلامها واللائذين بها .

وإذا كان (الزهراوي) قد قسا في مهاجمة العرف الشائع ، والأنظمة السائدة والمذاهب المهيمنة . فلأنه يدرك تماماً أن هذه الأعراف والتقاليد الموروثة هي الدعامة الحقيقية للنظام المستبد

القائم، فالسلطة واحدة ولكنها تتنوع في الظاهر ،أو لها سلطة الموروث القديم المتمثل في العقائد والعرف والتقاليد والأفكار الشائعة ، وما ألفه الناس . هذا الموروث تتمثله القوى الاجتماعية فيتحول إلى سلطة سياسية هدفها استباب الأمن والمحافظة على الوضع القائم . وتتمثلهالسلطة الدينية فيتحول إلى مقياس للعقائد ومعايير للصواب والخطأ . . . وهكذا لما خرج (الزهراوي) عن الناس (برسالة عن الفقه والتصوف) ونحا فيها منحى التجديد (ثار عليه حملة العمائم وسكنة الأثواب العباعب . . .) من الحشوية والجامدين ، وأثاروا ضده العامة ، واستعدوا عليه السلطة العثمانية وكان ماكان من أمر اعتقاله ونفيه . . .

وقد وعى (الزهراوي) هذا التعاون بين السلطة السياسية المستبدة وبين المنتفعين من أدعياء العلم ، الذين ينكمشون حول مذاهب معينة، ويتقوقعون ضمنها ، مغلقين كل الأبواب والمنافذ (فجاءت المذاهب على كثرتها وتعارضها مضاهية لأديان مختلفة حتى ألغى أكثرها الزمان الذي جاء فيه حكومات أخذت مادونه قوم وأعرضت عن الآخرين . فالحكومات هي بالفعل حصرت الميدان ، وأغلقت الأبواب. والمتمذهبون اتبعوا فعل الحكومات بالقول بأن باب الاجتهاد مسدود . . . وكل مطالع في تاريخ الإسلام يعلم أن كل طائفة من بلادهم شاع فيها المذهب الذي هويته نفوس حكامهم الأول)) (٩)

فالحكام هم الذين تبنوا مذاهب معينة ، والمنتفعون من المتاجرين بالعلم طلباً للمناصب والمنافع وجدوا أن من مصلحتهم القول بإغلاق باب الاجتهاد امتثالاً لمصلحة أولئك الحكام . . . ((أم تقولون أن الاجتهاد انقطع منذ قرون ، فمن ذلكم الذي قطعه ياأيها المصدقون ، ماقطعه إلا الحاكمون ، وما أضل الناس إلا المسيطرون)) (١٠)

وإذا كان (الزهراوي) قد انطلق في نضاله (العروبي) من كتابه المبكر (خديجة أم المؤمنين) ، فإنه قد انطلق في نضاله التحريري من كتابه المبكر الآخر (رسالة في الفقه والتصوف) الذي نشر في البداية متفرقاً في (المنار) ، إلى جانب كتابه الآخر (نظام الحب والبغض) والذي ظل متفرقاً على صفحات (المنار) دون أن تتاح فرصة طبعه في كتاب مستقل .

والزهراوي بهذه الكتب المبكرة أراد أن يضع المهاد ، ويهيء الأذهان والنفوس لتقبل الأفكار والأحداث ، والمبادئ المتحررة التي كان مع غيره من متنوري الأمة يعملون على غرسها . ويعتبر كتاب (رسالة في الفقه والتصوف) ثورياً بكل ماتعنيه الكلمة . ويبدو واضحا أن " الزهراوي " أراد لكتابه أن يكون زلزالا يزعزع الأعراف والتقاليد والعادات غير السوية وغير المنطقية وغير المستندة إلى أساس من العقل أو الدين السليم والصحيح .

ويبدو واضحا كذلك أنه أراد أن يثير الضجة التي ثارت ، وأن يلفت إليه الانتباه بالحدة التي يجب أن يلتفت فيها إلى حدث عظيم . والقارئ يلمح منذ الكلمات الأولى شخصية " الزهراوي " القوية الحازمة والحاسمة والمتحررة . وذلك حين قدم لكتابه بهذه الكلمات : " برح الخفاء ، وآن للحقائق أن ينبلج نورها ، فقد مزقت عزائم المصلحين حجب الأوهام ، وأزالت غشاوة الأبصار . وللأطوار أدوار وللأدوار أسرار فسبحان الظاهر الباطن . إن لم يكن في كلماتي هذه براعة استهلاك لمقصدي ، وفاتني منها النصيب الذي يحرص عليه كتابنا القدماء ومقلدوهم في محامد خطبهم ، فإن فيها من قوة العزم في المقصد الإجمالي . مايعرب عنه بأجمع عبارة ."[11] واضح أنه قد أرادها ثورة منذ الكلمات الأولى وخروجاً عن المألوف حتى في شكل المقدمة فجاءت أشبه بمقدمة منشور ثوري . وإذا وضعنا في اعتبارنا أن هذا الكتاب قد نشر في

المنار في أواخر القرن الماضي ثم جمع في كتاب في مطلع القرن الحالي " ١٩٠١" أدركنا خطورة هذا العمل ، وتبينا الغاية منه . وإذا كنا نجد في أسلوب " الزهراوي " حدة وحسماً وحزماً ، فلأن الأفكار التي يدعو إليها تستدعي مثل هذا الأسلوب " الصدامي "- إن جاز التعبير – ويجب ألا تفوتنا الإشارة إلى الشجاعة التي تجلت بإقدامه على نشر هذا الكتاب في حندس الحكم الحميدي ، كما تجلت في تبنيه ومدافعته عن آراء تتعارض – على خط مستقيم – مع ماهو شائع ومستقر في الأذهان . مما وضعه في مجابهة حادة وصريحة مع أزلام السلطة وزبانيتها والمستفيدين من الهيكل الفكري الذي تستند إليه . والذي جاء الزهراوي ليزعزع أركانه ، وليحرر العقول من الخضوع والاستسلام له، لأنه أدرك تماما أن الاستسلام للمعايير السائدة " معايير المجتمع " والاحترام الدقيق لها يعنيان تكوين نفسية خاضعة ، تناسب الطبقات المتسلطة ،التي تريد استمرارية النظام القائم . كما إن هذا الخضوع يحجب مظاهر العسف والظلم أو اللامبالاة بحجاب النفاق .. ومرة أخرى وحتى لايساء الظن " بالزهراوي " وحتى لايعتقد أحد بأنه أراد " المروق " من الدين ، أو أراد النيل من العقائد بأسلوبه الصدامي الحاد . نقول : بأن الزهراوي " كان واعيا تماما بمايفعل ويعرف كيف ومتى وأين يوجه ضرباته . لذلك نجده يرد على صديقه الذي نصحه بأن يخفف الوطأة قائلاً : " أمّا أنت فتخشى ان يتعدى كلامي إلى غيره ، مما نعتبره جميعاً مباركا . وهو الذي أشرت اليه بقولك " فنصبح بلا قيد " ولكن إذا تذكرت أن الذي تغار عليه قوي ، وأن القوي يبقى ولا يؤثر فيه شيء ، وأنه لاخير فيما تقوم عليه الحجة ، وتزحزحه عن موضعه ، ولاأسف على مايطير بنفخة روح الحق ترى يومئذ أنه لابأس عليه من كلامي هذا ، وكلامي كل المتكلمين . " (١٢)

" الزهراوي " فيما كتبه – في هذا الكتاب وسواه – ظل

متمسكا دائماً بفلسفة قوامها الإيمان العميق بالإنسان والعقل الإنساني ، والرفض المطلق لكل العوائق التي تحول دون ممارسة الإنسان لإنسانيته المتمثلة أساساً في العقل ..

ويمكننا أن نحدد ملامح الفكر التجديدي عنده على الشكل التالي:

- الإيمان العميق بالعقل الانساني وقدراته .
- الرفض المطلق لمقولة قداسة ماجاء عن السلف .
- رفض العادات الموروثة .
- رفض المذهبية
- فتح باب الاجتهاد والعمل على استيعاب المستجدات .
- الإيمان بأن الدين في الأصل واحد وإنما تختلف الصور والأشكال .
- دعوته للاستفادة من انجازات الأمم الأخرى وعرض آرائه في مشكلة " الأصالة والمعاصرة " .

– الايمان العميق بالعقل الانساني وقدراته :

العقل هو الميزة الأساسية التي تميز الإنسان والتي صار الإنسان من خلالها إنسانا " نحن نعلم أن الإنسان من حيث طبيعته في الوجود ليس إلا حيوانا يتغذى كما يتغذى ويتناسل كما يتناسل وانما يمتاز الإنسان بزيادة الادراك وميله للتكمل .. وللفرار من الخصال المتناقضة الموجودة في غرائز الحيوانات المتغايرة لزم للإنسان قانون الاعتدال وهذا يتيسر متى كان العقل هو الحاكم وهذا مايسمى بالفضيلة "(١٣) وبعد ذلك يغادر ساحة الفكر " الارسطي " ليعلن أن وجود العقل لدى الإنسان هو أساس التكليف " تا لله .. ماخلقنا سدى " . وا لله حين وهب العقل للإنسان فمن أجل أن

يستفيد منه ، وأن يستخدمه " الإنسانية تلك القوى التي أوتيها الإنسان وقيل له أن الشكر على هذه القوى أعمالها وكفرانها إهمالها "(١٤) وإعمال العقل يدل على فهم طبيعة الأشياء وسنة الوجود: " حاشا لامرئ أوتي ذرة من فهم الحكم في الوجود ان يسمح باهمال استعداد " العقل " لم يمنحه الله للعباد سدى "(١٥) ومن مظاهر إهمال هذا الاستعداد الاستسلام لآراء السلف ، وأخذ أقوالهم " على العمياء " - على حد تعبيره - دون تمحيص أو تدقيق. مما أدى إلى العطالة الفكرية التي أنتجت بدورها عطالة في مختلف الميادين وأدت إلى تخلف الأمة وضعفها . لذلك فهو يتهكم بسخرية لاذعة على أولئك الذين أهملوا عقولهم " استحسان كل المعقولات فمن أهل الفكر نتيجة نظر وتأمل ومن أهل التقليد نتيجة ثقة بالمقلدين والأولى أن لايعد استحسان هؤلاء استحسانا لأننا إذا أدخلنا هم في صف من لافكر لهم من المخلوقات لم يكن عملنا غير الصواب لأنه هو المطابق لروح الواقع"(١٦) فالمقلدون أقرب للببغاوات وللعجماوات بتقييدهم واسقامهم لعقولهم " أمّا وقد فعلوا بعقولهم مافعلوا من تقييدها وإسقامها ، فقد أصبحوا لايرضون عنا إلا أن نفعل بعقولنا كفعلهم أو أشد . وأصبحنا نحن بين ثلاث : أمّا شهادة أن لاعقول إلا عقول الأقدمين ، ولافضل إلا فضلهم ، وإما السكوت أمام الذين يقولون ونحن صاغرون . واما الجدال وقول الحق في مانغلم"(١٧) وقول الحق في الذي يعمله هو أن الاستسلام لآراء السلف - أيا كانت - والتشبث بها - على علاتها - إنما يودي إلى تدجين الناس ، وصبهم في قوالب جاهزة ، أعدت لتناسب المتسلطين : " ولإنظر ماذا يقول الذين غلوا في حسن الظن بعقول من تقدمهم ولو بنزر من السنين ذلك الظن هو الذي عظم شأن تلك السيطرة التي قيدت الألباب وأغلقت الأبواب وقطعت الأسباب وقامت مقام سلطة الأرباب وفينا راء وسامع والكل خانع وخاشع .(١٨)

والعقل مصدر أساسي من مصادر التشريع ، « أمّا نحن فمجتهدون وما إمامنا إلا الكتاب المبين ، ثم سنة الرسول الأمين ، ثم العقل الذي هو منّة رب العالمين الذي كنا به " العقل " مؤمنين ومن أجله مكلفين »(١٩) .

– الرفض المطلق لمقولة قداسة ماورد عن السلف :

باستثناء القرآن الكريم ، وهو خارج عن دائرة المأثور من تراث الاسلاف لانه ليس من صنعهم . وباستثناء ماصح عن الرسول وضمن شروط مثقلة وشديدة جدا ، فإن " الزهراوي " يرفض أن يكون ماورد عن السلف مقدسا وغير خاضع للنقد ومن ثم القبول أو الرفض حسبما اقتضى الحال .

فبعد أن ينتقد مثلا ماورد في الفقه في باب العبادات ، ويبين كيف أن الفقهاء قد اختلفوا فيما لامبرر للخلاف فيه ، لان العبادات " أفعال خاصة أمرنا أن نفعلها كما كان يفعلها النبي وأصحابه الذين تعلموا منه فهل التعاليم مختلفة بقدر ما اختلف هؤلاء الفقهاء أم أراد هؤلاء ان يوهموا الملأ"(٢٠) .. ينتقل إلى باب المعاملات ويبّين أنهم قد أجادوا في بعضه بما يتناسب مع زمانهم ، ولكنه ينكر ويرفض أن يكون ماكتبوه وتركوه لنا ، كافيا لزماننا ويغنينا عن غيره ، كما ينكر أن يكون كل ماكتبوه مستفادا من الدين ، ولادخل لعقولهم فيه . وينكر أنه لايغني عنه غيره ويبّين كيف كان هذا الفقه آلة بيد القضاة والمفتين ، يعبثون فيه كما شاؤوا . ويعلن أن تقديسه مضر ، لأن هذا التقديس « جعلنا ينابذ بعضنا بعضاً من أجله ، كما أنه قد ترتب على تقديس الفقه تقديس المحاكم المنسوبة اليه " والمحاكم الشرعية " التي كانت ولاتزال بقاياها ميدانا تتجلى فيه الغرائب »(٢١) .

وبرأيه أن ماورد عن السلف من " فقه " لم يعد صالحا ، للأسباب الآتية :

« ١- إن أزمنتهم غير زماننا الذي تغيرت فيه التجارة و أ: ابها وفروعهـا تغير امهما .

٢- وإن الرسول صلى الله عليه وسلم بتصريحه " المعاذ بن جبـل " و " علي بن أبي طالب " رضي الله عنهما بـأن يعمـلا برأيهما إذا لم يجدا نصا كفانا مؤونة السلاسل التي ربط الناس بها أقوام كتبوا الكتب بأيديهم ثم قالوا هذه من عند الله .

٣ - وإن هذه الأمم التي ليس عندها هذه الكتب قد أغناهـا الله بفضـل عقولها في تدبير التجارة و .. الخ .

٤- وان هذه الاقوال المتضاربة المتعارضـة ليـس لاكثرها مـن سـبب الا منافع القضاة ومن في حكمهم .

٥- وإن اعتناء كل طائفة بمذهب واحد على مافيه من تعدد المرجحين قد فرق كلمةالمسلمين منذ زمن بعيد حتى أوصلهم إلى هذه الحالة..»[٢٢]

وحين كان يواجه بنقاش مؤداه بأنه لابـد للأمـم مـن شـرع ، وقـانون جـامع لجزئيـات الحـوادث ، وأن الإسـلام قـد جـاء بـأسمى ماتتطلبه الحاجة المدنية يرد : إن هذا من أجزاء معتقدنا ، ومتممـات إيماننا ، لكن ماجاء به الإسلام قواعد كليـة ، والإحاطـة بالجزيئـات موكولـة إلى أفهـام رجـال العلـم والعقـل ، مـع إرجاعهـا إلى تلـك القواعد . والاختلافات إنما نشـأت مـن الأفهـام ، وهـي اختلافـات عظيمة»[٢٣] فالتشـريع ضـروري للأمـم « كـل أمـة قـد خلـت لهـا حديث في الآخرين يتلونه مستبصرين ، وعلماؤنا " الفقهاء " .. إنما هم كالذين خلوا ، فلئن قلنا إنهم سـدوا حاجـة زمـانهم، فمـا نحـن بملومـين إذا قلنـا إن مـا نقدسـه اليـوم هـي بمجموعـة كتابـاتهم، الـتي اقتضتهـا عصورهـم ، وطـابقت عقـول معـاصريهم مـن الحكومـات والرعايا..وأماكونهم قدبرعوا بذكر الجزئيات،فلاتخاذ الكثيرين هذه الصناعة ديدنا في كل عصر ومصر ، وقد وقـع مثـل هـذا لكـل أمـة

متحضرة . وأن أدري هل أغنتهم براعتهم تلك عن ذلك الاختلاف المشوش ، أم كان نصيبهم منها نصيب من كان قبلهم ، ممن أوتوا الجدل وحرموا العمل ، نصيب أولئك الذين كانوا يتجادلون في المذهب في القسطنطينية والفاتح على أسوارها . "(٢٤)

فتقديس أقوال السلف وماخلفوه لنا من كتب ، سبب من أسباب الفرقة ، وإضاعة للجهد وتبديد للطاقة بالاتجاه الخاطئ . وأشد ماينكره ادعاء الفقهاء من السلف أن كل ماكتبوه هو من عند الله ويجب التسليم به والاعتماد عليه وأن هؤلاء الكتاب والفقهاء لم يحدثوا شيئاً من عند أنفسهم . ويقسو على زعمهم بأن ماكتبوه كان نتيجة لإجماع المسلمين ، على اعتبار أن الإجماع أحد مصادر التشريع ، هذا المصدر الذي يرفضه " الزهراوي " رفضا مطلقاً أولاً: لأن المسلمين ليسوا شعبا واحداً ، وليسوا على سنن واحد في النحلة والعادات : " فالمسلمون بما تحيزوا للدول صاروا شيعا في الآراء السياسية ، ثم بما تحيزوا للرؤساء في الدين صاروا شيعا في الآراء العلمية والمذاهب الدينية، ثم بما تحيزوا للجنس (العرق) " صاروا شيعا في المشارب والمعايش .. دع عنك زمن الخليفتين وقل لي : متى كان الاجماع ؟ وكيف يجمع قوم حالهم على ماذكرناه آنفا ؟ وأي المسلمين مطالبون أن يفهموا معنى ذلك الإجماع ؟ أأعرابهم الضاربون في بطون الأودية ؟ .. أم أمصارهم المؤلفة من أبناء الروم والفرس والقبط وقليل من أبناء الأجناد ؟ من المطالب منهم بالتشريع ؟ ولاة أمورهم ؟ وهم من علمت بين لاه فرح بالنعمة الجديدة التي ورثوها ، وبين حازم نشيط مشتغل بتسكين الفتن .. أم الرواة الذين لم يكن أكثرهم يعلم أكثر من النقل والحكاية ؟"(٢٥) ويرفض القبول بالاجماع ثانيا " لأن الذين يعتد بإجماعهم كانوا بعيد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم متفرقين في البلاد . فمتى رؤي أنهم سئلوا عن المسائل التي زعم الناس فيها

الإجماع فاجابوا بما وافق كلام الجمهور . وأما إجماع التابعين فهيهات هيهات ، فذلك أبعد منالا من إجماع من قبلهم .. ولايجحد " كلامي " الا من أوقفهم التقليد في موقف واحد فهم لايبرحون . "(٢٦)

" والزهراوي " يدرك تماما أنه بكلامه هذا ينحاز إلى صف الفكر التقدمي ، ويرفض الفكر الرجعي المتمسك حرفيا بما ورد عن السلف المدافع عن أشياء " كثير منها مفترى إمّا لتقديس ألفاظها وإمّا للتمسك بمآلها غير حاسبين للنتيجة حسابا"(٢٧) ، وهو يبرر انحيازه إلى المفكرين التقدميين بأنصع عبارة : « ماذا من الرأي لامرئ ابتلي في مجتمع هذا حاله ؟ أينحاز إلى زاوية بيته وهي خلة لايبيحها علم الاجتماع خل عنك أنها لاتتيسر ؟ . أم يتصامم عن دعاوي الفئتين " المصلحين والمقلدين " ؟ ويرمي بعقله بين أقدام الفريقين وحاشا لامرئ أوتي ذرة من فهم الحكم في الوجود أن يسمح بإهمال استعداد لم يمنحه الله للعباد سدى و لم يكن الله ليرضى عن عبد يرى الحق ويستطيع أن ينصره فلا ينصره .. ويرى الكذب ويستطيع أن يخذله فلا يخذله »(٢٨).. فهو يفرق بحزم بين الإسلام كعقيدة ودين ، « مصدره القرآن المجيد فهو الحجة العظمى والعروة الوثقى والنور المبين .. كتاب عربي من عرف أساليب العرب يفقهه ، ومن وقف على أقوال الرسول يتبحر فيه ، لايختص بفهمه أهل عصر ولاأهل مصر»(٢٩) .. ومصدره كذلك ماثبت من أحاديث الرسول ، يفرق بين ذلك وبين ماتركه السلف من تراث عالجوا فيه ماواجههم به زمانهم ومحيطهم من مشكلات . وهو لم يضع هذا التراث موضع العقيدة وحاول جاهدا أن ينزع هالة القداسة التي حاول البعض إحاطة التراث بها . فالتراث منجزات إنسانية " زمنية " أوجبتها ظروف ومعطيات تار يخية محددة ، نطلع عليها ، دون أن نكون ملزمين باتباعها خاصة حين تتعارض مع

معطيات زماننا وماتفرزه بيئتنا من مستجدات فكما استطاع السلف أن يوجدوا التشريعات التي واجهوا بها ظروفهم فمن حقنا نحن أيضاً بل من واجبنا أن ننجز من التشريعات مايلائم واقعنا " فما بالهم (الفقهاء) يوجبون على الناس أن يضاهوهم وأن يقلدوهم ؟ ومابال فريق منهم جعلوا لكتبهم من الاعتبار أكثر مماله ؟ إذ قالوا إن مفاهيم الكتب حجة عندنا دون مفهوم القرآن فتأملوا وأبصروا.. »[٣٠]

– رفضه للعادات والتقاليد غير المنسجمة مع روح العصر :

من الطبيعي أن يترتب على رفض (الزهراوي) لتقديس الفقه، وتقديس كل ماورد عن السلف من آراء ، رفضه لما تولد عن ذلك من عادات وقيم ومفاهيم ، حين لاتستند إلى أساس راسخ من العقل والمنطق خاصة حين تتحول هذه العادات إلى أغلال وسلاسل تقيد النفوس والعقول . "أف للعادات ماأثقل أحكامها ، وماأظلم قضاءها ، وما أشد عتمة مسالكها ، وما أسوأ عواقب الجمود عليها، وما أبخس صفقة الذين لايتزحزحون عنها ، نعم نعم أف للعادات فكم أوقفت بعض الأجيال في سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضار ، وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكر ، فانطمست عليهم سبل الارتقاء في معارج الاستحسان والتحسين وغمت عليهم مطالع السعادة الحقيقية للنفوس[٣١] " فالعادات نشأت في زمن ما ، ثم تأصلت وترسخت حتى تحولت إلى طقوس مقدسة ، لاتقوى العقول المستلبة على مواجهتها أو التخلص من إسارها : " فهي قاطعة الطريق على نتائج العقول ، تزج بها في مهاوي العدم ، أو تذرها في سجن أقفر ، ممنوعا عنها كل مايريها . وياعجبا لبني آدم الذين يضعون العادة في هذا المكان من الحكم على نفوسهم ، والقضاء على عقولهم وقلوبهم ، أليس لهم مايذكرهم بأن العادة من صنعة أيديهم وتصوير أحلامهم ؟ أليس لهم مايبصرهم

بأن العادة يجب أن تكون تابعة لامتبوعة ؟ ومنقادة لاقائدة ؟"[٣٢]أمّا نشوء العادات ورسوخها فبسبب " وفرة فوائدها في أوقات سلفت، وأحوال مضت والناس يرثون من السالفين كل شيء ، ولايميلون إلى التغيير حتى يميل بهم الدهر ميلة شديدة على يد عاصف من الحوادث ، أو هبة شديدة من إرادة بعض الأشخاص . وكم دكت الإرادات القوية أطوادا من العادات . "[٣٣]

فتغيير العادات ، والإفلات من إسارها ، وتحطيم الفاسد منها، يحتاج إلى أصحاب الإرادات القوية من المصلحين والمستنيرين . وهؤلاء المصلحون والمستنيرون ماكانوا ليظهروا لولا أنهم قد تحرروا في البداية من أسر البيئة المحيطة بهم وتجاوزوها : « الذين خلصوا من هذا الأسر - " أسر الاهل تجاه الأبناء " قد بعدوا بأفكارهم عن أفكار والديهم بعدا شاسعا ومن العجيب أن هؤلاء الخالصين من ذلك الأسر على قلتهم وانفرادهم في أممهم كانوا المغيرين لعادات البشر وأخلاقهم . »[٣٤]

- رفض المذهبية :

« المذهب عالم مغلق ، لامداخل إليه ولامخارج منه ، دائرة مغلقة لافجوات بها لذلك فانه لايقبل التطور أو التغير مهما تغيرت الظروف والأحوال . مذهب أبدي شامخ كالطود ، حقيقة مطلقة لايأتيها الباطل من بين يديها ولامن خلفها ..

لايقبل التعديل أو النقد من أنصاره وإلا كان ذلك نهاية له .. يؤخذ كله أو يرفض كله لايمكن الدخول في حوار معه فهو بناء متكامل لايقبل النظر أو المراجعة .. »[٣٥]وقد فطن " الزهراوي " منذ وقت مبكر إلى تلك الحقيقة فبين كيف أن كل مذهب قد تحول إلى نظام متكامل " يقبل كله أو يرفض كله " على الرغم من وجود

ثغرات كثيرةفيه وعلى الرغم من وجود آراء مرجوحة فيه.«فجاءت المذاهب على كثرتها وتعارضها مضاهية لأديان مختلفة . »[٣٦]

« وقد سبب اتباع كل طائفة لمذهب واحد على مافيه من تعدد المرجحين تفريق كلمة المسلمين منذ زمن بعيد حتى أوصلهم إلى هذه الحال وهل منكر لها »[٣٧]. والمذاهب – برأيه– في تصلبها وانغلاقها ومقارمتها ورفضها لكل أنواع التواصل مع بعضها إنما هي من صنع الحكام والمتسلطين والمستفيدين " لأن كل مطالع في تاريخ الإسلام يعلم أن كل طائفة من بلادهم شاع فيها المذهب الذي هويته نفوس حكامهم الأول " ولكن العامة في اتباعهم المذاهب عن طريق التقليد قد فاتهم ذلك مما أدى إلى تشبث كل فئة منهم بمذهب معين والتعصب لأئمته ، والظن بأن الدين الصحيح يكمن في اتباعه ، وأن المروق عن المذهب مروق عن الدين . وزاد من تمسكهم وتعصبهم وعدم السماح لأنفسهم بالتعامل مع سواه إلا من باب سوء الظن والشك والريبة ، تلك العبارات والاصطلاحات التي كان فقهاء المذهب يطلقونها ، كقولهم عن عمل من أراد أن يستفيد من آراء بعض المذاهب الأخرى لمواجهة مشكلة محددة بأنه " تلفيق " « فهل يرجى بعد تحكم تلك المذاهب في كل ناحية لفت الناس عنها:؟ وإن كان لايرجى فهل بقاء هذه الحال غير مخل بالفائدة[٣٨] ورفض " الزهراوي " التقوقع ضمن جدران مذهب محدد ، لما في هذا التقوقع من مجافاة الروح العقل والمنطق والحياة المتجددة ، دفعه إلى موافقة صديقه الذي يحاوره في أمر الفقه حين يقول هذا الصديق " العلماء بين أمرين : إمّا أن يعتبروا أن كل ماحرره الأئمة وقرروه هو من الدين ، فليزمهم في هذه الحال انتقاء الأحكام الموافقة لحالة العصر من كتب المذاهب ، وتدوينها في كتاب خاص .. يعمل به المسلمون على اختلاف مذاهبهم ، وإما ألا يعتبرون ما حرره الأئمة من الدين ، بل يعتبرونه رأياً أداهم إليه

الاجتهاد .. فيتفق جميعهم (العلماء) على جعل علم الفروع علماً نافعاً في هذا العصر . مراعى فيه جانب الحاجة مضافاً إليه مافات المتقدمين من التوسع في مناحي أخرى أصبح التوسع فيها الآن من ضروريات الحياة الاجتماعية(٣٩)،وإن كان " الزهراوي " يميل للرأي الثاني ويرجحه وقد دفعه هذا إلى الدعوة لفتح باب الاجتهاد.

- الاجتهاد والتجديد :

انطلاقا من فهمه السليم لأسباب نشوء المذاهب ، وأسباب التشبث بها ، وإدراكاً منه لأهمية التجديد، وأهمية وضرورة فتح باب الاجتهاد الذي ماكان يجب أن يغلق أساساً ، أنكر على " علم الفقه " كما يصوره المقلدون من الفقهاء مايلي :

« ١- أنه يكفي لزماننا ويغنينا عن غيره

٢- وأنهم " الفقهاء " استفادوا كل ماكتبوه من الدين ولادخل لعقولهم فيه .

٣- وأنه لايغني عنه غيره .

٤- وأنه لم يكن آلة بيد القضاة والمفتين ومن في حكمهم يعبثون فيه كما شاؤوا .

٥- وانه ليس من المضر تقديسه الذي جعلنا ينابذ بعضنا بعضاً من أجله»(٤٠)

فالاجتهاد واجب علينا وحق من حقوقنا لوضع التشريعات والقوانين لمواجهة العصر ومستجداته "وسيقول الذين يعرفون الحق بالرجال هؤلاء علماؤنا من قبل ، وإنا وجدنا آباءنا لهم متبعين ، فمن هذا الذي يزعم أنه عالم بالدين ؟ ويجترئ على رد كلام المتقدمين ؟ فما نحن بتاركي علمائنا لعلمه بل نحن بعلمه جاحدون . قل هذا دين الله خاطب به المؤمنين وكلف به العاقلين فمن ذا الذي

يحصر فهمه بالمتقدمين ؟ ثم يحصره بالأربعة المشهورين " أصحاب المذاهب " ؟ سيقولون هؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا في الأولين وإنا لنحن المقلدون ، ومالنا من عقول كعقولهم ، بل هم الفائقون ونحن المحرومون. وإن قلدنا كنا من السالمين ، وإن لم نتبع كنا من المبتدعين الضالين . قل اصنعوا بأنفسكم ماتريدون أمّا نحن فمجتهدون ، وما إمامنا إلا الكتاب المبين ، ثم سنة الرسول الامين ، ثم العقل الذي هو منة رب العالمين ، الذي كنّا به مؤمنين ومن أجله مكلفين ياأيها الناس إن الذي فرض القرآن قد يسره للذكر أفأنتم تصدون أن يتذكر به المتذكرون ها أنتم هؤلاء تقولون إنْ نتبع إلا المؤلفين وإن نحن بمستمعين إلا أهل مذهبنا الكاملين .. أتقولون لايجتهد إلا الأولون هل عندكم من سلطان بهذا إن كنتم صادقين .. أم تقولون إن الاجتهاد قد انقطع منذ قرون فمن ذلكم الذي قطعه ياأيها المصدقون ماقطعه إلا الحاكمون وما أضل الناس إلا المسيطرون ماضاع الكتاب ولاذهبت السنة ولاخلق من غير عقل المتأخرون . »(٤١)

وبعد هذا يمكننا أن نزعم بأن كلام " محمد أركون " ينطبق تماما على " الزهراوي " حين يقول : « هل هناك في مجتمعاتنا المعاصرة، من يخاطب الجماهير الناشئة المتزايدة بهذا الخطاب العلمي، حتى تنضج النفوس ، وتقتدر العقول على تفهم مايجري للإنسان أو عليه في المغامرات التاريخية ، من يلقن بعمله وقوله ، بسيرته وتعليمه ضرورة الاجتهاد في سبيل الاستقلال العقلي الذي لايستحق الإنسان اسم الإنسان إلا به من يدافع عن الدين كمستوى للتنازه .. »(٤٢)

وحتى لايبقى أمر التشريع والاجتهاد عملا فرديا – كما كان في الماضي – فيجوز الواحد مايمنعه الآخر دعا " الزهراوي " إلى تشكيل [illegible] مسلمين في كافة أقطارهم يكون مقرها

القاهرة " في رحاب الأزهر " ترفع إليها القضايا والمشكلات لتبحث فيها وتتخذ بشانها الفتاوى المناسبة : «هانحن أولاء بهذه المناسبة نقترح على المنار " الأنور " أن يفتح بابا بهذا الموضوع الجديد " الاجتهاد " يقبل فيه اللوائح التي ترد إليه في كل باب من أبواب الفروع بعد عرضها على جمعية علمية تنعقد في القاهرة لهذه الغاية"(٤٣) ، وبذلك يكون " الزهراوي " قد سبق الكثير ممن دعوا إلى أن يوكل أمر التشريع إلى " سلطة تشريعية " يتولاها " جمع " يستنبطون الأحكام الدينية والدنيوية ويضعون القوانين الملائمة لحوادث الزمان والمكان .

ولم يكتف " الزهراوي " برفض المذهب المغلق والضيق ، بل سار في الشوط إلى مداه ، حين دعا إلى مايشبه وحده الاديان ، وحين دعا صراحة إلى اعتبار أن الدين في الأصل واحد من حيث الغاية والجوهر ، إنما تختلف الصور والأشكال وطرائق العبادات وهو في هذه الدعوة لم يكن يهدف إلى هدم الفكر الديني بقدر ماكان يهدف إلى جعله منفتحا ومرنا ومتجاوزا للطقوس والعادات والحركات التي قد لاتعني شيئاً إذا مانفصلت عن الغايات التي وضعت من أجلها .

المرأة في فكر الزهراوي :

المرأة أحد قطبي الحياة ، وسبب من أسباب ديمومتها . لذلك فقد أوجدت الفطرة في أعماق كل من الرجل والمراة ميلا وانجذابا نحو الاخر، يكاد أن يبلغ في بعض الحالات حد الانصهار : " بحيث لوساعدت الخلقة بأكثر من هذا الوجه لتضامت ذرات أجزائهما تمام التضام فصارا جسما واحداً "(٤٤)ومن تهافت الرأي والفكر جعل المرأة في مكان أدنى ، وسلبها - ظلما وجهلا - الكثير من

المزايا والمكارم « لقد علمنـا أن الفـرق ليـس بكبـير في الفطـرة بـين الرجل والمرأة وليست المرأة بمحرومة من المزايا التي يعلو قدر المتحلي بمثلها من الرجال ذلك أننا نرى لهن عقولا سليمة ، وقلوبا كريمـة ، وهممـا عظيمـة وهـل للرجـال ينـابيع للمكـارم غـير هـذه العقــول والقلوب والهمم .»(٤٥)

وبما أن الزهراوي يشارك بفاعلية في تأسيس نهضـة شـاملة ، كان لابد أن يعمل على انصاف المرأة ، حتـى تتبـوأ المكانـة اللائقـة بها في بنيان المجتمع حتى تكون قادرة على العطـاء والمشـاركة . ولم يكن عمله في هذا المجال هامشيا أو عرضيا ، بل كان عمـلا مقصودا ومنظما ، فيه من الوفاء بقدر مافيه من القيام بالواجب. وهـو حـين الف كتابه الشـهير " (خديجـة أم المومنـين) إنمـا أراد أن يقـدم لنـا صورة واضحة عن أثر التربية في تكوين المرأة ، وعن مـدى مـايمكن أن تبلغ من السمو ، ويجـري علـى يدهـا مـن النفـع ، وذلـك ليقنـع الناس برد حقوقها المشروعة ، والعناية بتعليمها وترقيتها . وقد كان هذا من أهم أهدافه . »(٤٦)

وماقالته " الدكتورة نجاح العطار " كـان " الزهـراوي " علـى وعي تام به ، وكان يشكل أهم بواعثه ودوافعه ، « فمن راقه هـذا المؤلف الصغير – خديجة – وحصلت له به لذة وفـائدة ، فلـي حـق أن أرجوه شيئاً ، ولا أرجوه الا أن يكون مساعدا في إقامـة حقـوق المرأة وكرامتها وآدابها »(٤٧)، هذه الحقوق التي تتمثل أكثر ماتتمثل في المساواة مع الرجال في الحقوق والواجبات ، لأن هذا من مقتضئ الدين من جهة ، ومن مقتضى الحيـاة الإجتماعيـة مـن جهـة ثانيـة : " نرى الأديان اعتبرت المـرأة كـالرجل التكليـف بـالعقيدة والعبـادة والآداب ، ونـرى الاجتمـاع اعتــبر المــرأة كــالرجل في التكليــف بالعمل، وإذا كان التاريخ لايحدثنا كثيراً عن هذه المساواة ، لاسـيما حين يتعلق الأمر بالحقوق ، فلان المؤرخين قد توارثوا إهمـال ذلك

المرأة في الوقت الذي أكثروا فيه من ذكر مآثر مشاهير الرجال وتعداد مزاياهم ومناقبهم . استغفرك اللهم عن زلة زلها أكثرهم من حيث لايشعرون ، وهي إهمالهم كثيراً من سير الأقطاب من أمهاتنا، ولو لا تلك الزلة التي ذكرناها للمؤرخين لكان اللائي نعلمهن أكثر وماللائي نعلمهن الآن من الفاضلات بقلائل . »[٤٩].

وسداً لهذه الثغرة ألف " الزهراوي " كتابه القيم هدية منه لوالدته، ومن خلالها لبنات جنسها . «كنت تفكرت في أن أكافيء والدتي بعض المكافأة فتبينت بعد طول التفكر أن عظيم فضلها علي هو أبعد من أن يوفي شيء من حقه . ولكن تراءى لي أنه يسرها أن أعلي للملأ فضل جنسها وأذكرهم بما نسوه من احترام حقوق هذا الجنس »[٥٠]ومن أهم هذه الحقوق ، الحق في تلقي تربية مفيدة وسليمة ، لأن هذا سيؤثر إيجاباً في واقع المجتمع ، ويساعد على التخلص من رواسب التخلف : إن النساء أمهاتنا معشر الرجال ، وعلى حسب تربيتهن نكون . فنطلب من محيطنا أن يهذب بالعلم الأمهات ، ويسعى لترقية مداركهن وآدابهن "[٥١] وقد حرص في كل مناسبة على الحث على تعليم البنات : « ويصح أن يختم هذا القسم من موضوعنا بالحث على تعليم البنات فان الام هي المربية الأولى . »[٥٢]

ولايفوت " الزهراوي " أن يقترح المنهج المناسب لبناتنا ونسائنا كما لايفوته أن يرفض المناهج المستوردة والتي يبشر بها البعض : «فالبنات يجب أن يتعلمن تدبير المنزل وآمور بيتهن ولست أدري لماذا لايعلمونهن قواعد اللغة العربية أيضاً وتاريخنا المجيد والسيرة النبوية كما يجب وكما ينبغي أمّا تعليمهن لغة الأجانب فلا أجد له معنى وهذا الموضوع بحد ذاته يستحق كلاما كثيراً . »[٥٣] ولعل هذا الكلام الكثير يدور حول خطر تسرب عادات الأجانب وأنماط سلوكهم وقيمهم عبر لغتهم إلى عقول ونفوس نسائنا ، على اعتبار أن اللغة حاملة الفكر والقيم ، فينخدعن بالقشور عن اللباب وبالتوافه عن الأمور الاخطر والأجدر .

أمّا بالنسبة للعلاقة التي تربط بين الرجل والمرأة من خلال الزواج فان " الزهراوي " يعتبرها علاقة مقدسة لايجوز أن تكون موضع اساءة أبداً ، فهو يهاجم بضراوة مايجري على ألسنة الناس من الأيمان الفاجرة، ويهاجم ماكان يجري في ساحات المحاكم " المسماة بالشرعية " من أخطاء فاحشة نتيجة التفسير الآلي للنصوص والشرائع مما يؤدي إلى تقويض دعائم الكثير من البيوت السعيدة ويصف مايجري في هذه المحاكم حيث : « تطلق فيها أزواج مطهرة لاذنب لهن إلا أن بعولتهن أقسموا بفروجهن فيما لادخل لهن فيه .. وان كلمة توجب فراق حبيبة ، أم بنين وبنات لجديرة أن تعتبر أغلظ أيمانهم »(٥٤). فالمرأة عنده قطب حياة وشريك فاعل في درب المدنية لهن ماللرجال وعليهن ماعليهم .

وبعد :

فإن " الزهراوي " مفكر تقدمي بكل المقاييس ، وقد وجه عنايته إلى المستقبل ، ورفض أن يتم تقديس القدماء ، وماصدر عنهم من أقوال واجتهادات ، لالشيء إلاّ لأنهم سلف " ، وإلا لأنهم سبقوا إلى الوجود ، وهو في كتبه ، وفي مقالاته المبكرة ، حاول أن يحطم فكرة تقديس ماصدر عن السلف ، مساهمة منه في التحرر من كل أشكال القهر والتلسط وتهيئة الأذهان والنفوس لتقبل الأفكار والمبادئ المتحررة، وبذلك تزول العوائق التي تحول دون ممارسة الإنسان لإنسانيته، المتمثلة أساساً في العقل . وقد تجلت ملامح التجديد عنده بمايلي : الإيمان بالعقل الإنساني وقدراته / الرفض المطلق لمقولة قداسة ماجاء عن السلف / رفض العادات الموروثة حين تغدو غير مناسبة وتتحول إلى عبء / رفض المذهبية الدينية / فتح باب الاجتهاد وجعله بيد هيئة لابيد أفراد / الإيمان بأن الدين في الأصل واحد وإنما تختلف الصور والأشكال / ضرورة الاستفادة من إنجازات الأمم الأخرى .

أمّا بالنسبة لموقفه من المرأة فقد اعتبرها أحد قطبي الحياة : وأنها ليست محرومة من المزايا التي يعلو قدر المتحلي بها وللمرأة عقل سليم وقلب كريم وهمة عظيمة ، وهل للرجال ينابيع للمكارم غير هذه العقول والقلوب والهمم " . إن النساء أمهاتنا معاشر الرجال وعلى حسب تربيتهن تكون .. والأم هي المربية الأولى " .

هوامش الفصل الثامن :

١- عبد الحميد الزهراوي ، « نظام الحب والبغض » بمجلة المنار ، مصدر سبق ذكره .

٢- عبد الحميد الزهرواي ، الفقه والتصوف ، " القاهرة ، المطبعة العمومية ، " ١٩٠١"ص ٢٣.

٣- المصدر السابق ، ص ٢٤.

٤- المصدر السابق ، ص ١٣ - ١٤ .

٥- المصدر السابق ، ص ٢٦ .

٦- عبد الحميد الزهراوي ، « شعور الأمم بماضيها وجمعية التتار في الآستانة »، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٥٥ ، ٢٧ نيسان ١٩١١ .

٧- انظر : عبد الحميد الزهراوي ، جريدة النبراس ، جلد ١ ، ج ٨ ، تشرين ١٩٠٩، ص ٢٨٩ - ٢٩٦ .

٨- عبد الحميد الزهراوي ، نظام الحب والبغض ، مصدر سبق ذكره .

٩ - عبد الحميد الزهراوي ، الفقه والتصوف، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤-١٥

١٠- المصدر السابق ص ٤٠ .

١١- المصدر السابق ص ٢ .

١٢ - المصدر السابق ، ص ٢٥ .

١٣ - المصدر السابق ص ٥٠ .

١٤- المصدر السابق ص ٥٢ .

١٥- الصدر السابق ص ١٤ .

١٦ -عبد الحميد الزهراوي ، نظام الحب والبغض "مصدر سبق ذكره .

١٧ - عبد الحميد الزهراوي ، الفقه والتصوف ، مصدر سبق ذكره ص ٢٣

١٨ -.المصدر السابق ٣٧

١٩- المصدر السابق ٤٠

٢٠ - المصدر السابق ، ٣ .
٢١ - المصدر السابق ، ص ٧
٢٢ - المصدر السابق ص ٧ - ٨
٢٣ - المصدر السابق ، ص ١٢
٢٤ - المصدر السابق ، ص ١٢ - ١٣
٢٥ - المصدر السابق ، ص ٣٠
٢٦ - المصدر السابق ، ص ٣٠ - ٣١
٢٧ - المصدر السابق ، ص ٢٤ .
٢٨ - المصدر السابق ص ٢٤ .
٢٩ - المصدر السابق ، ص ٣٥ - ٣٦ .

٣٠ - المصدر السابق ص ٣٦ .
٣١ -عبد الحميد الزهراوي ، خديجة أم المؤمنين "مصدر سبق ذكره .
٣٢- المصدر السابق ص ١٠٠
٣٣- الو مصدر السابق ص ١٠٠
٣٤ - عبد الحميد الزهراوي ، « نظام الحب والبغض » ، مصدر سبق ذكره .
٣٥ - د . حسن حنفي ، متى تموت الفلسفة ومتى تحيا "مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس عشر العدد الثالث .
٣٦ - عبد الحميد الزهراوي الفقه والتصوف مصدر سبق ذكره ص ١٤
٣٧ - المصدر السابق ص ٧ - ٨
٣٨ - المصدر السابق ص ١٥
٣٩ - انظر : المصدر السابق
٤٠- الصدر السابق ص ٦
٤١- المصدر السابق ص ٤٠
٤٢- محمد اركون الفكر العربي ، ترجمة د . عادل العوا ، مقدمة الطبعة العربية، الجزائر ديوان المطبوعات العربية ١٩٨٢ "ص ١٤

٤٣ عبد الحميد الزهراوي الفقه والتصوف ص ١٥ - ١٦

٤٤- عبد الحميد الزهراوي « نظام الحب والبغض » ، مصدر سبق ذكره .

٤٥ - عبد الحميد الزهراوي خديجة أم المؤمنين ص ٦

٤٦ - د . نجاح العطار ، « الزهراوي في كتابه خديجة أم المؤمنين » مصدر سبق ذكره .

٤٧ عبد الحميد الزهراوي خديجة أم المؤمنين ص ٨

٤٨- المصدر السابق ص ٧

٤٩ - المصدر السابق ص ٦

٥٠- المصدر السابق المقدمة

٥١- المصدر السابق ص ٨

٥٢- عبد الحميد الزهراوي الافراد والجماعات بمجلة الانسانية مصدر سبق ذكره

٥٣- المصدر السابق

٥٤ - عبد الحميد الزهراوي الفقه التصوف ، ص ٢٥ .

الفصل التاسع

الاصالة والحداثة في فكره

شاهد " الزهراوي " تنافس المفكرين العرب وتشاحنهم ، بدل تعاونهم وتضافر جهودهم للخروج بالأمة من براثن التخلف والجهل . ووجد أن هؤلاء المفكرين قد تنوعت مشاربهم وتشتت غاياتهم ، وماذلك إلا بسبب اختلاف مصادر ثقافتهم وبسبب انقطاع الحوار وروح التفاعل فيما بينهم ، « فإن منا من أساتذتهم الإنكليز ، ومنا من يأتمون بالألمان ، ومنا من يستضيئون بنور الفرنسيين ، ومنا من يرون للأسلاف نظرا بعيداً فلايهملون كل ماأتى عنهم ، ومنا من يهملون تراث الأسلاف كله ، ومنا من يلتمسون الحكمة أني وجدوها وطبيعي أنى بين هذه المآخذ شيء من التباين .

وبسبب ذلك أصبحنا نجد الذين يعدون في هذه الأمة مفكرين، لايرى بعضهم بعضاً شيئاً مذكوراً . »(١)

ومن المعروف أن الغرب " الأوربي " يعتبر مشروعه الحضاري الأكمل والأرقي ، وينظر إلى حضارات الشعوب والأمم الأخرى على أنها حضارات بدائية لايجوز أن تقارن بحضارته ، ولا أن

توضع على قدم المساواة معها ، وتقع على عاتق الأوربيين - على زعمهم - مهمة نشر رايات الحضارة - وفق النموذج الأوربي - في كل أنحاء الأرض . وباعتقادهم أن الشعوب والأمم الأخرى ستظل متخلفة بقدر ماتبقى بعيدة عن تبني مقولاتهم الفكرية ، ومايترتب عليها من قيم وأنماط سلوك وأساليب إنتاج واستهلاك .. والمفتونون بالغرب . من مفكري الأمة العربية كثيراً مادعوا - صراحة - إلى ضرورة تخلي العرب " الشرقيين " عن أفكارهم وعاداتهم وأساليب حياتهم والالتحاق - دون قيد أو شرط - بركات الفكر الغربي اذاما ارادوا النهوض والتقدم .

وفي المقابل ، وربما بدافع من رد الفعل البعيد عن المنطق دعا فريق آخر من مفكري الأمة إلى رفض كل مايصدر عن الغرب لأن الغرب عدو يتربص بنا الدوائر ، ولايرضى إلا أن نكون بعض الدائرين بفلكه . أمّا " الزهراوي " فقد كان من أولئك الذين يلتمسون الحكمة أنى وجدوها ، وهو مع تفطنه إلى أن الغرب يسارع دائماً إلى وصم كل من يقاوم مخططاته ومشاريعه بأنه متخلف ، أو إرهابي ، أو متعصب ، خاصة حين رأى الاتهامات التي كان يوجهها كتاب الغرب إلى " السنوسيين " ، مع أنه لاذنب لهم إلا محاولتهم الوقوف في وجه المشاريع الأوربية «كل من عرف السنوسية حق المعرفة " في عهده طبعا " يمتدحهم على قيامهم في كبد الصحراء بما ينفع بني آدم من المؤاخاة وتقليل الشرور بين القبائل ، وإيواء ابن السبيل وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضال ، فلماذا لايترقب كتاب الاوربيين من هؤلاء إلا كل شر ؟ وهم قوم قد بعدوا جهد استطاعتهم عن هذه السياسات المبيتة .. ولاذنب لهم إلا شبه قوة على الدفاع»(٢) مع تفطن " الزهراوي " لذلك فقد أبى أن يفهم العلاقة بين الشرق والغرب على أنها علاقة عداء ، وإنما هي - في رأيه - نوع من " تنازع البقاء " ومن الطبيعي أن يكون

البقاء للأقوى : «الحالة التي بيننا وبين الأجانب لاتسمي في الحقيقة عداء ولايصح أن تمس صداقة ، وإنما هي من نوع ماتسمى " تنازع البقاء" . ومانعني بالبقاء هنا وجود حكومة لنا ، وإنما نعني بقاء مايميز الحكومة التي لنا ، من وجود اختيار وارادة لنا أمامهم ، وهذا هو الذي ينازعوننا عليه»[٣] فلاقيمة برأيه لدول ترفع الأعلام ، وتردد الأناشيد ، وتصرخ بالشعارات إذا كانت ملحقة بحاشية الدول الكبيرة ، وداخلة في مناطق نفوذها ، ولاتملك لنفسها إرادة أو اختيارا أو سيادة .

والزهرواي إذ يعترف بقوة الأوربيين ، وبتقدمهم العلمي ، وبإنجازاتهم المادية إلا أنه لم يفقد توازنه أمام كل ذلك ، ولم تأخذه الدهشة التي تجعله يتجاهل ، الأطماع والمشاريع الاوبية كما دأب " الدكتور وجيه كوثراني " على ذكر ذلك كلما جاء ذكر " الزهراوي " . بل نجد " الزهراوي " في كل مناسبة ومنذ وقت مبكر يحذر من مخططات الأوربيين وأطماعهم . وحين كان يبدي إعجابه بالتقدم العلمي الأوربي ويدعو إلى الاستفادة منه ، كان يرفض وبصراحة أن يكون ثمن ذلك الاستلاب : «نعم للأجانب فضل عظيم في حياتنا العلمية - وكل شيء فهو يتبع العلم - ولكن إذا كان ثمن التفضل التجريد من كل إرادة واختيار ، أفلا يكون الموت خيراً من الحياة معه»[٤] فالمشكلة التي كان يواجهها مع رفاقه المصلحين هي : «السبات لذي فيه الأمة والجشع الذي فيه أوربا»[٥] هذا الطمع " الأوربي " . الذي ليس له آخر مادام لنا وجود »[٦]ويبدو أن الدكتور وجيه كوثراني " حين بنى آراءه حول تغافل الزهراوي عن المشاريع الأوربية لاسيما الفرنسية على خطاب الزهراوي في مؤتمر باريس ، وعلى تصريحاته التي أدلى بها للجرائد الفرنسية حينئذ قد تناسى المقام الذي قيلت فيه تلك التصريحات " والدبلوماسية " التي كان يجب أن يتحلى بها الزهراوي . وإن

كان لم يذهب في مراعاته لآداب المجاملة إلى حد التخلي عن الأهداف والمبادئ نلمس ذلك مما دار في اللقاء الذي جرى مع وزير خارجية فرنسا ، الأمر الذي دفع وزارة الخارجية الفرنسية لأن تبرق إلى سفاراتها وقنصلياتها بأن " الحركة العربية قد انقلبت علينا " بل إن اكتشاف " الزهراوي " للغاية التي عقد من أجلها مؤتمر باريس ورأيه في مداولاته ، ورأيه في بعض المشاركين فيه وكما جاء ذلك في الرسالة السرية التي أرسلها لصديقه محمد رشيد رضا ، ومن قبوله منصب الأعيان بعد ذلك دليل أكيد على أنه لم يكن متغافلا عن مشاريع فرنسا وسواها ، وكان الأجدر بالدكتور " كوثراني " أن يرجع إلى مجموع كتابات " الزهراوي " وليس إلى خطاب وأقوال أملتها ظروف معينة . فقد كان " الزهراوي " يدأب على التنبيه إلى الخطر القادم من أوربا لاسيما من فرنسا . بل ان عداءه للفرنسيين كان من أهم أسباب دعواته للتعاون مع " الإنكليز " المنافسين التقليديين للفرنسيين تماما كما فعل من قبل " مصطفى كامل " حين دعا للتعاون مع الفرنسيين بصفتهم أعداء للانكليز وكان دائماً يصرح « أن أوربا مهتمة اليوم كل الاهتمام لأحوالنا الحاضرة لأن لها علاقة عظيمة بشؤونها الإقتصادية ومسالكها السياسية »[٧] وكان يقرع نواقيس الخطر المرة بعد المرة : « ان أوربا تتفق وإن اتفاقها جدير أن يخيفنا .. ومن المظنون أن اتفاقها أصبح قريبا ، فماذا أعددنا من الحساب لذلك اليوم الذي تقضي فيه سياسة الاتفاق ماهي قاضية »[٨]؟ وفي رأيه أن الاوربيين جميعاً وبلا استثناء متألبون على الشرق ، وان لبسوا في بعض الحالات لبوس الصداقة . وفي رأيه أن حلقات الخلاف مهما اشتدت بين الأوربيين « يبقى من السهل أن يؤيدوا عرى الصلح على أكتاف الشرق الذي يتسع عرضها له كله »[٩].. « فمن قال ان هذه الأمم الأوربية التي تجمع بينها القرابات المتعددة إنما قصارى همها إخضاع الشرق والاستيلاء عليه فقوله صحيح تؤيده المؤيدات الكثيرة من المعقولات والمحسوسات . »[١٠]

وهجوم الغرب على الشرق " هجوم قوة على ضعف وعلم على جهل .. فللوقوف في وجه الأطماع الأوربية لابد من امتلاك القوة « لأن القوة إذا وجدت أمامها قوة اضطرت أن تقف وتؤدي الاحترام ، وأما إذا وجدت أمامها عدما فانها تدوس ، وحق لها ان تدوس ، لان من أسقط نفسه من حظ الوجود لاينبغي أن يلوم غيره على المرور فوقه » فالتوازن مع الأعداء أساس من أسس امتلاك الإرادة « لأن حصول التوازن هو أعظم أساس لحصول التفاهم وبحصول التفاهم تندفع التطوحات ، ويغدو الوقوف عند الحدود أمراً مألوفا »[١٢].. ولامتلاك هذه القوة التي تردع الأوربيين ، وتقف في وجه مشاريعهم ، لابد من تجاوز كل مظاهر التخلف واجتثاث جذوره ولابد من بناء الأسس العلمية والموضوعية لنهضة شاملة . أمّا المساعدات المالية ، والقروض التي كانت الدولة تسعى للحصول عليها ، فكلهاذات مفعول آني سرعان مايتلاشى أوقد تتحول إلى أمراض جديدة تحتاج للعلاج « المليون أو المليونين أو العشرة . قد تجدي ... ولكن من لنا بمطاردة الجيوش المستحوزة في البلاد من الفقر والجهل وتفكك الروابط ؟ ومادامت هذه الجيوش المعنوية مستحوزة فإن البلاد كلها مهددة . فمن كان محباً أن يعيننا فليكن معيناً بعقول نفقه بها كيف نسير بين الأمم فقد أصبحت حياتنا بينها عجيبة " [١٣] . ومما يساعد على تحقيق النهضة الشاملة ، وعلى تجاوز التخلف بكل مظاهره ، الاستفادة من علوم الأوربيين ، ومن إنجازاتهم المادية والتنظيمية ، وتوظيف ذلك في خدمة أهدافنا ، دون أن تعترينا الدهشة ودون أن نستلب ، لأننا أمة عريقة بالحضارة ولها باع طويل في الإنجازات . وبالنسبة للأنظمة والترتيبات التي يجب أن نستفيد من خبرة الأوربيين فيها فيجب أن نعلم أن روح هذه التنظيمات وغاياتها موجودة عندنا منذ القدم .. فبالبنسبة مثلا للاستفادة من المؤسسات الديمقراطيه " فنحن إنما

اقتبسنا من أوربا طريقة من طرق ترتيب الاستشارة (الشورى) ولم نقتبس أساس الاستشارة . على أننا لانعني أن الذي اقتبسناه من أوربا شيئ هين وإنما قصدنا منه إثبات عراقتنا بما هو روح القوانين الأساسية " فالأوربيون حين قيدوا حكوماتهم بالقوانين والدساتير ، واعتبروا الأمة مصدر التشريع والسلطة فإن الأمر كان كذلك عند العرب ، حين كان الإمام (الخليفة) لايصبح حاكماً شرعياً إلابعد أن يحصل على مبايعة (أهل الحل والعقد) نيابة عن الأمة . ولكن (كان من أعظم ما أهملناه مسألة (نصب الحكومة) تلك المسألة التي اعتنى السلف بها كثيراً ووضعوا أصولها بالسيف والقلم أحسن وضع ...) فلابأس إذا استعنا بخبرات الشعوب الأخرى لإعادة الأمر إلى الأمة وإلى الشعب الذي يجب أن يعرف كيف يحسن مساءلة حكامه ... ويمكننا أن نوجز رأي (الزهراوي) فيما يتعلق بمسألة (التراث والمعاصرة) وبكيفية التعامل مع النموذج الأوربي للحضارة بما يلي : استند (الزهراوي) في طروحاته إلى الفكر العربي الإسلامي في ثوابته التي تحدد خصوصية الأمة ، ومن هذه الثوابت تقديم مصلحة الأمة على مصلحة الفرد " الفرد في هذه الحياة يخلق لأجل غيره ولأجل نفسه فينسى أنه مخلوق لأجل غيره ويحصر همه ويفرغ زمانه لأن يعمل لنفسه ويفتكر لنفسه ولو تذكر الأولى .... لأفلح"(١٤)

فالأفراد مهما طالت حياتهم للموت منقلبون ، ولاخلود ولا بقاء للفرد . أمّا من رام الخلود فليطلب ذلك في غير شخصه وخارج دائرة نفسه وذاته " فمن أراد بقاءها (النفس) فليطلب بقاءها في أعمال يعملها وخدمة يقدمها لأمته ....: فيبقى حينئذ ببقاء أمته . " (١٥)

ومن تلك الثوابت الدعوة إلى العلم باعتباره طريق الخلاص من ربقة التخلف " فمن شأن العلم بعضاً ببعض كما أضل الجهل

بعضاً ببعض ، ولا يزال العلم يجاهد الجهل إلى أن ينصره الملك القدوس السلام ، على أيدي رجاله الأعلام (المصلحين) " (١٦).
ومن الثوابت عدم الخروج على الدين ، وعدم التنكر له ، وعدم اعتباره عائقاً يحول دون التقدم . وقد مر معنا من قبل كيف رد على من اعتبر أن تدين الدولة بالإسلام سبب تخلفها . ومن الثوابت محاربته للتواكل والبطالة والقعود عن السعي لذلك فهو يقسو في انتقاده للفكر الصوفي ويعتبره فكراً عاطلاً معطلاً : " أمّا أنا وأمثالي فيجدر بنا أن نجهر بالحقيقة التي لم تغن عنها المداراة وهي أن علم التصوف علم ملفق من كلام فلاسفة الملل الأولى ، وشيئ مماثل له من متن الدين ،وأن المتصوفين - أكثرهم - إمّا من الذين استحبوا البطالة واخترعوا أساليب ليعيشوا بها بل ليفوزوا بأطيب المطاعم والمناكح . وإما من الذين فسد مزاجهم فغيروا نعمة الله التي آتاهم وعاكسوا سنن الوجود ... وإن الكمال الإنساني ليس بالتقشف والفرار من الخلق بل الوقوف عند الحدود ،والعدل في الحقوق، والإحسان للمخلوق ".(١٧) فالتصوف عنده - وكأنه يستهدي فكر المعتزلة - نوع من التدجيل على أصحاب العقول المحدودة عن طريق الادعاء والتظاهر " وكم استعبد هؤلاء الموهمون الناس بهذه القوة (القوى الوهمية المدعاة) حتى اتخذوا آلهة - بمعنى أنهم يفيضون ويصرفون الخير والشر لمن أرادوا بزعمهم ... " (١٨) لذلك فقد حذر الناس من أمثال هؤلاء : " لاتمل مع كل من هبت ريحه بدعوى التصوف والصلاح وما أشبههما من الأبواب الدينية التي يدخلون منها للمقاصد المعاشية فاسمع يارعاك الله ممعناً " (١٩) .
ومن ثوابت الفكر العربي التي تمسك بها وحرص على نشرها التحلي بمكارم الأخلاق ، وربط العلم بالعمل المبني على الأخلاق الفاضلة ، لأنه لاقيمة لعلم أوعمل مالم يقترن بالخلق الطيب : " نجد في طبائع الجماهير الاستغناء عن الرجل العالم إذا لم يكن مع علمه

شيئ يزينه من الأخلاق المرغوبة المطلوبة القريبة من المعروف عند الجمهور البعيدة عن المنكر عنده " (٢٠) . وعنده أن الأخلاق هي التي تحفظ الذكر وتخلد الأثر وعظماء التاريخ لم يخلد ذكرهم إلا " بفضل ما اتصفوا به من أخلاق ومن عرفوا في السيرة بطيب الأعراق ومن هنا يظهر لنا أن الشهرة ليست بشيئ عند التاريخ إذا لم تؤيد بمآثر ولولا هذا لتعب المؤرخون في سرد أسماء كثيرة لايستطيعون أن يبيضوا وجوه دفاترهم بشيئ من أعمال أصحابها"(٢١)

ومن ثوابت الفكر العربي الإسلامي التي تمسك بها الدعوة إلى القوة ،والعمل على تحصيلها في كل المجالات ،لاسيما المجالات المادية مثل اختراع الآلات حيث أنه يعتبر الآلات (أدوات الإنتاج) أعضاء البنية الاجتماعية كما أن حب الزينة وحب التميز روح حركتها والدستور (القانوني الأساسي) والشريعة والمنهاج هو روح تنظيمها وتكملها وانبساطها .. (٢٢) وإذا كان للإنسان نوعان من القوة قوة طبيعية (وهي ما منحه الفاطر لشخصه من قوة جسد وعقل وقلب) وقوة صناعية وهي ثمرة التعاون الذي اهتدى البشر لفوائده) ، فإن (الزهراوي) يعتقد أن الأهمية للقوة الصناعية التي هي ثمرة التعاون والاجتماع والعلم والتربية . بل أنه يعتبر القوة الصناعية هي الأساس حتى في تنمية وتربية القوة الطبيعية ذاتها " أمّا تدرج الإنسان في القوة الطبيعية فتابع لارتقائه في القوة الصناعية حيث أن علمه الباهر يرجع إلى عدم العلم (خلق الإنسان جهولا) وقوته الرائعة ترجع إلى عدم القوة "وخلق الإنسان ضعيفاً " (٢٣).

ومن ثوابت الفكر العربي الإسلامي العدل لذلك فالفكر السياسي عنده يمتلك بعدا اجتماعياً " فالأمر تعاون وتكافل لاتفضل وتطاول " . وبرأيه أن عزة الإنسان وكرامته فوق كل شيئ وهذه العزة والكرامة لاتتحقق بمجرد تحصيل الثروات والأموال لذلك فهو

دائم التذكير للأغنياء بما أضاعوه من الكرامة والعزة نتيجة تمسحهم بأعتاب الطغاة المسيطرين " هناك أمر أوجه إليه نظر الأغنياء فيكم وهو أن المرء يطلب في هذه الحياة مع المعيشة شيئاً من العزة والمجد فأي مجد وعزة لمن يبيع ضميره ويحني رأسه ... فيما يخالف الحق والوجدان ورغائب الأمة " (٢٤). ومن ثوابت الفكر العربي الإسلامي البعد عن العنصرية ، ورفض كل مايترتب على الفكر العنصري من مقولات ونتائج : " فالإنسان قريب الإنسان كيفما كان اللون واللسان وأنى كان المسعى والمكان " فالعصبية العرقية والعنجهية العنصرية التي كثيراً مانجدها في ثنايا مايكتبه أدعياء العلم من الأوربيين حين يهاجمون الأمم الأخرى ويزدرون منجزاتها أمر يرفضه (الزهراوي) ويتهكم عليه ذلك لأنه " لامعنى عند أهل العلم (علم النفس ومايصلحها وعلم الأخلاق) لتعصب كل قوم على آخرين بغير الحق إلا الأثم والعدوان والبغي والطغيان " و(الزهراوي) بعد أن يؤكد على أهمية تلك الثوابت في الفكر العربي لايتقوقع ضمن مقولاتها متشبثاً بها تشبثاً أعمى معتبرا إياها - كما فعل غيره - القمة الشامخة التي لايطاولها ولا يمكن أن يطاولها الفكر - المجلوب - بل نراه يتجه شطر الحضارات الأخرى لاسيما الحضارة الأوربية المعاصرة ... ليستفيد من علومها ومنجزاتها - المادية خاصة - كما يحاول أن يستفيد من تنظيماتهم وترتيباتهم السياسية التي ابتكروها لتأكيد سلطة الأمة وللحد من طغيان الحكومات ولجعل الأمر بيد الأمة - من قبل ومن بعد - وهو مبدأ تؤيده المؤيدات المستمدة من متن الدين ومن مأثورات الأمة - . ومما ابتكره الأوربيون ووجد صدى عميقاً في نفس (الزهراوي) قيام الأحزاب وهو أمر كنا قد أفضنا فيه عند بحث الفكر السياسي عنده فهو يعتقد أن " التعاضد من غير نظام يبقى أبتر وأنه لابد لتكامل التعاضد من تأليف حزب نظامي " (٢٥).

ومما ابتكره الأوربيون في هذا المجال النظام النيابي الذي يعتبره الزهراوي ترتيباً ناجحاً لتحقيق مبدأ الشورى ... ومما لفت انتباه (الزهراوي) ومتنوري الأمة هذا التقدم الأوربي في المجالات الصناعية والإنجازات المادية لذلك فقد دعا إلى الأخذ بهذا الاتجاه مبينا أن " القوى المعنوية - مع كثرة فوائدها - لاتغني وحدها عن القوى المادية وربما دفعنا هذا العلم اليقيني إلى ارتياد أسباب القوى المادية أشد مما كنا نرتاد " (٢٦) ....

ومما لفت انتباهه في الفكر الأوربي الاهتمام بتأثير البيئة والمحيط وهو أمر وأن أولاه المفكرون العرب القدماء جانبا من اهتمامهم ، إلا أن الأوربيين خاصة بعد عصر النهضة قد أعطوه الاهتمام الذي يستحقه لذلك نجد (الزهراوي) يشير إلى أهمية البيئة والمحيط في تكوين الآراء والأفكار وإنجاز المنجزات : لذلك فهو يدعو إلى تهيئة الظروف الملائمة وإبعاد الأطفال عن كل قسر أو قهر يمكن أن يمارسه (الوالدون) قصداً أو عرضاً ويؤكد أن الأولاد الذين أتيحت لهم فرصة الإفلات من قهر وتسلط الآباء هم الذين أتيحت لهم فرصة الوصول إلى الأفكار العظيمة التي حرروا بواسطتها الإنسان " ذلك أننا نجد أخص قرابة وهي قرابة الأولاد من الوالدين لاتوجب قرابة الأفكار والقلوب إلا إذا كانت أفكار الأولاد مأسورة بيد الوالدين أو أحدهما وهو الأكثر ،والبداهة تشهد أن هذه القرابة الفكرية على هذا الوجه صناعية أيضاً ،ومن المشاهد أن الذين خلصوا من هذا الأسر قد بعدوا بأفكارهم عن أفكار والديهم بعد شاسعاً ... " (٢٧) . ومما استفاده من الأوربيين فكرة الاهتمام بإرادة الجماهير والأفراد فهو مع إيمانه بأن " الكثرة ليست من الأدلة في المنطق لإثبات رأي ولا هي من الأدلة في الديانات لإثبات عقيدة ... " إلا أنه يعتقد أن " الكثرة في السياسة والاجتماع قوة يلتفت إليها ويحسب حسابها " (٢٨).

و(الزهراوي) في تعامله مع الفكر الغربي وإنجازاته على مختلف الصعد - وكعادته دائماً - يستند إلى العقل والمنطق ويبتعد عن الادعاءات والشعارات الطنانة ، ويدعوا المفكرين والمصلحين والزعماء لنقل ما تكون الأمة مستعدة لتقبله من الأفكار والآراء وأنماط السلوك ويدعوهم لتجنب إقحام الأفكار ، إقحاماً يؤدي إلى النفور منها .

و(الزهراوي) يحذر من التشدق بالألفاظ والمصطلحات والمسميات لالشيء إلاّ للتمايز والادعاء " قل ماشئت أن تقول وسم ماأردت أن تسمي لا تناقش باحثاً في لفظ يؤدي إلى معنى يؤديه لفظك أو قريباً منه " (٢٩) وهو ينتقد الشكلية (واللفظية) التي يقع فيها الكثير من المفكرين ،حين أغرقوا أنفسهم بالكلمات الغربية ،دون أن يكلفو أنفسهم عناء البحث في مدلولاتها - فجاء عملهم صوريا ، آليا ، عقيما : " إن العلماء - من حيث الجملة - يعرّفون المعروفات ويوضحون الواضحات وكثيراً ماينتج عن كثرة كلماتهم واصطلاحاتهم ... إيهامات يشغلون بها أذهان القارئين على غير جدوى ... لالشيء إلاّ حب توسيع مسافة الفرق بينهم وبين العامة .. (٣٠) فلا قيمة برأيه لعلم أو رأي يكون الدافع له المباهاة والمفاخرة والامتياز على العامة دون أن يعمل على الولوج إلى الصميم ويكون أداة لسعادة الناس .

وقد سادت فكرة أن النموذج الغربي هو النموذج الوحيد للحضارة المعاصرة ،وأن الرجال الذين يحملون لواء هذه الحضارة لا يمكن أن يخرجوا إلاّ من بين جدران المدارس النظامية ،والمدارس التي تدرس المناهج الأوربية أو المستقاة منها . ولكن (الزهراوي) يعلن تهافت مثل هذا الرأي الصادر عن المأخوذين بمظاهر الحضارة الأوربية : " أمّا مقلدو المدنية اليوم فكثير منهم يظنون أن لامطلع لأمثال أولئك الرجال إلاّ من بين جدران المدارس الرسمية ، و هوظن

بعيد عن الصواب جدا ، يشهد بذلك المأثور من أخبار نوابغ أوربا وأمريكا ،فضلاً عن قدماء نوابغ الشرق ، الذين مابرحت المدنية الحاضرة تجعل نفرا منهم في مصاف المعبودات " (٣١) فالمصلحون وحملة رايات التقدم يمكن أن يخرجوا من صفوف الدارسين في المدارس النظامية ،كما يمكن أن يخرجوا من بين صفوف الفئات الأخرى.

وبالجملة نقول إن (الزهراوي) صاحب فكر تقدمي ومتفتح، يرفض التقوقع ضمن قوالب الفكر السلفي الجاهزة وإن كان لايتنكر للثوابت التي تحدد ملامح وخصوصية الأمة . وهو في تمسكه بهذه الثوابت إنما يعبر عن أصالة فكرية فذة ، خاصة حين يعلن صراحة أن هذه الثوابت مبادئ كلية عامة ، استفاد منها الأسلاف في تقنين الشرائع التي ناسبت زمانهم ومكانهم وظروفهم، وعلينا نحن أن نستفيد منها ومن سواها في وضع مايناسب زماننا وبيئتنا من القوانين . ويحذر من دعوة (السلفيين) إلى التمسك الحرفي بكل ما ورد عن الأباء الأجداد ويدعو إلى الخروج من إهاب العلوم المكرورة وإلى الابتعاد عن اجترار مصطلحات وكلمات لم تعد ذات قيمة في كثير من الحالات . كما يدعو إلى الإنطلاق إلى حيث العلوم النافعة أيا كان مصدرها ، دون خشية مما قد يروجه الحشوية والجامدون " كيف ونحن نرى بلادا ازدهرت فيها العلوم فأثمرت لأهاليها انتشار العدل ،وشيوع الأمن، وتيسير الأسباب وبلاداً أقفرت من العلوم فكثر فيها الظلم ،وشاع فيها الخوف ، وتقطعت فيها الأسباب فنتمنى - والإنسان بالطبع محب لنفسه وجنسه وبلاده - أن يكون لهذه البلاد نصيب مما لتلك . فنرى كلما رام أحد أن يأخذ عن أولئك (الأوربيين) شيئاً من العلوم نافعاً سخر الملأ من قومنا بعقله وعلمه بل قالوا : كافر أو مفتون وإذا أردنا أن يعطوه شيئاً من علومهم قالوا له : بادئ ذي بدء اعلم وتعلم أن الماء سبع .... وهو ماء واحد " (٣٢).

فالعلم النافع برأيه ،والذي يجب اعتباره علماً حقا ،والذي يجب أن نتعلمه وأن نأخذه عن أي مصدر كان ،هو العلم الذي يثمر للناس العدل والأمن وتيسر الأسباب ..... ومما سبق نرى كيف أن (الزهراوي) قد حاكم التراث أحسن محاكمة ، وكيف ميّز بين ما يجب تقديسه من الدين والعقائد التي جاءت على شكل نصوص قرآنية أو أحاديث نبوية صحيحة ،وبين ما ابتكره الأسلاف من شرائع واجهوا بها ما أفرزته بيئتهم من معطيات وإشكالات . وبرأيه أن النص القرآني عبارة عن مبادىء عامة وكلية من حقنا أن نستفيد منها بما يتناسب مع روح ومعطيات عصرنا وأن نفهمها - ضمن شروط علمية وموضوعية - وأن نجتهد في اشتقاق أحكام وآراء نواجه بها معطيات وإشكالات ظروفنا المعاصرة وكذلك الأمر بالنسبة للأحاديث النبوية الصحيحة . أمّا مادونه مؤلفو الأسلاف فلا يحمل في طياته أية قداسة لأنه ليس من الدين ونحن أحرار نأخذ منه - بغير تحيز لفئة أو مذهب - مانراه مناسبا ونسترشد ببعضه الأخر ونرفض ونترك مالم يعد فيه غناء أو منفعة . ومما لاريب فيه أن أفكار (الزهراوي) هذه ، بما تحمله من نفس تقدمي واضح قد سبقت أفكار الكثيرين . بل إن عدم الإطلاع على آراء (الزهراوي) يجعل الكثيرين يظنون أن الدعوات والأفكار التي يطلع بها اليوم بعض المفكرين العرب هي دعوات جديدة ومبتكرة . وبعبارات أخرى نقول أن أفكار (الزهراوي) ما زالت تحتفظ بوهجها وتألقها وجدتها وما زالت تعتبر آراء تقدمية . (فالزهراوي) سبق عصره في هذا المجال وإنه لمن المدهش حقاً أن يكون هذا الشيخ المعمم ، والذي تلقى تعليماً أصولياً ، هو الحامل لهذه الأفكار التقدمية ، وهو الداعي - عن بصيرة - لوحدة الدين ولرفض المذاهب ، ولاعتبار الفقه نشاطاً إنسانياً لا يلزم أحداًتقديسه . كما أنه الداعي صراحة إلى الانفتاح على العلوم

والحضارات المغايرة ، للاستفادة من إنجازاتها لذلك فهو يرفض الإنغلاق على الذات باسم الوطنية ، أو بسبب أية دعوة أخرى . وعلينا برأيه أن نستفيد من كل المستجدات لأنه " لاينفعنا الجمود ، ومعاداة كل أشياء الأجنبي باسم الوطن ، فإن الوطن للبشر واحد هو دار الأعمال والتكاليف التي تطلب من الكل ، ويتبادلها الكل وليس حب الوطن هو الكز على عادات الأسلاف ، أو الحرص على اللبث في مساقط الرؤوس ،كما يفسرد جمهور العوام ، ولا الإقدام على مجاهدة الذين يريدون أن تكون سلطة فيه وإن كانت أنفع من السلطة الأولى كما يفسره جمهور السياسيين ومقلديهم..."(٣٣).

وهو وإن كان يرفض مقاطعة الحضارة الأوربية باسم الوطن أو الدين ، إلاّ أنه يحذر من تقليد الأوربيين في كل صغيرة وكبيرة "هذا ولا ينفعنا أيضاً تقليد كل أشياء الأجانب باسم التمدن ، فإنه لا عصمة لأمة من الخطأ ، ولا يستحق أحد أن يقلد تقليداً محضاً ، بل علينا أن نستعمل التفكر ، ونستهدي التجارب ، ونساعد في تأييد أنفع الروابط ، وإسقاط أضر الروابط للتكمل البشري . يومئذ تنقسم الأرض الطبيعية غير هذا الانقسام الصناعي ، ويصافح المشرقي المغربي ، والشمالي الجنوبي ، على أنهم أخوان متعاونون في العلوم ، متقاسمون للأعمال .... لا يحارب بعضهم بعضاً باسم القوميات ولا باسم الأديان ولا باسم الديار والأقاليم . وإنما تحارب قوتهم العامة من فسق منهم عن أمر العهد العام والنظام الشامل"(٣٤)

بهذا الفكر الشفاف يرى العلاقة بين أمم الأرض وشعوبها ، وكأننا به يبشر بالأحلام التي راودت مفكري العالم وساسته غداة الحرب الكونية العظمى ، حين دعوا إلى تأسيس العلاقات بين الدول على أسس من التعاون والعدل ، والوقوف عند الحدود ، وأسسوا لذلك الهيئات الدولية التي ترعى الأمن والسلام " ليكن

إخاء عام ، وتعاون عام ، ونظام عام ، وسلم عام ، في ظل قوة عامة . . . " [٣٥] . وحضارة إنسانية عامة تشارك كل الأمم في بنائها . . .

إذا كان البعض قد فهم الحضارة والمدنية على أنها إنما تتمثل في الكمال الروحي ، والجمال الأخلاقي والمعنوي ، وفهمها البعض الآخر على أنها إنما تتمثل في الأبنية المشادة ، والآلات المبتكرة : فإن (الزهراوي) فهمها على أنها شيء من هذا وشيء من هذا : " المدنية جمال معقول (مبادئ وأفكار وقيم) مع جمال محسوس (آلات وصنائع – تكنولوجيا) ، عدل وإحسان ، أدب وعرفان ، صنائع وبدائع ، أموال وبضائع ، أفهام (علوم) وأوهام (فنون) ، آمال وأعمال ، جمال وتجمل ، مجد وتمجد ، ميزة وتميز . . . المدنية مواهب الإنسان تتجلى للعيان . . . " [٣٦] وإن كان (الزهراوي) يميل للثمرات المادية للحضارة (التي تتجلى للعيان) ولايفوته أن يعدد أهمها (الوابور والبالون والشمندفر والتلفون والتلغراف والفوتوغراف والفوطوغراف والتلسكوب والمكرسكوب . . . " هذه الانجازات التي جعلت (العمي في عهدهم يقرؤون ،والصم والبكم يكتبون . . ."

و (الزهراوي) يجد أن هذه الإنجازات توجد في (اوربا) أمّا بلاد العالم الأخرى فهي إمّا لم تعرف التمدن مطلقاً ، (مجاهل أفريقيا . . . وفدافد أمريكا ومجاهل أوستراليا . وفي جوار القطبين . . " [٣٧] وإما بلاد عرفت التمدن ثم لم يلبث هذا التمدن أن إنهار وتراجع بسبب فساد وإفساد السياسيين ومن ذلك بلدان العالم القديم : (البلدان الآسيوية ، وبلدان شمال افريقيا . . ." . ولولا التمدن (المستعار من الأوربيين) لما بقي في البلدان الآسيوية مايفوق مالدى الافريقيين إلا قليلاً . وهو يدرك أن كلامه لن يعجب المتعنتين . . . فيقول : " إن يكن في آسيا تمدن غير

مستعار، فإنه ناقص جداً : الأديان من التمدن وقد ضعفنا بها علماً وعملاً ، الحكومات من التمدن وقد خسرنا بها حساً ومعنى ، الزراعات من التمدن ونحن لانتقنها : والصناعات من التمدن ولاخبرة لنا بأنواعها الكثيرة : والتجارات من التمدن وإننا فيها متأخرون ، الزينة من التمدن وإننا فيها مرضى الأذواق : العلوم من التمدن وهي عندنا كاسدة ، الآداب من التمدن وهي لدينا فاسدة، القوانين من التمدن ونحن فيها جامدون ، والأعمال العظيمة من التمدن ونحن فيها خامدون ، الاختراعات من التمدن ولكننا فيها موتى ، الاكتشافات من التمدن ولكن لاتسمعون لنا فيها صوتاً ، فأعلموني يارفاقي الأسياويين ماهو تمدننا المحلي ؟ الذي نقصه ليس بفاحش ؟ وأنتم بعد ذلك غير محاسبين على النقص القليل .

ثم هلموا ننظر نظرة في مدنية أوربا ؟ وما أوربا ؟ أوربا الزاهرة ، ذات المدن الباهرة ، والصناع الفاخرة والماهرة ، ومقر العلوم العالية والأعمال الفائقة ... هنا لكم الاختراعات النافعة والاكتشافات الهادية ... منهم ظهرت الآلات المنبئة ... أولئكم السابقون في المدنية الرافعة " (٣٨) .

ورغم كل ذلك فإن (الزهراوي) لايفقد توازنه أمام شموخ الحضارة الغربية وإنجازاتها – المادية خاصة – ، ولايصاب بالانبهار الذي منعه من رؤية الصورة كاملة وغير منقوصة ، لذلك يشير لنواقص الحضارة الغربية وسلبياتها ونقاط الضعف فيها ، تماماً كما أشار من قبل إلى نقاط القوة فيها : " هذه أوربا وهذا مجدها وأنا أريكموها من تلك الجهة الثانية جهة النواقص التي فيها : " الاستبداد الذي حاربوه ، وأهرقوا في سبيل محوه كثيراً من دمائهم ، لايزال له أثر كامن في صدور العلية منهم ومقلديهم من الدهماء ، ومن آثاره أنواع التعصبات الباقية ، والجهل الذي حاربوه بأنفسهم

وأموالهم ، ولايزال بين كثير من طبقاتهم ، ومن آثاره شيوع الفحشاء والرذائل المتنوعة : والفقر الذي يدأبون وراء إبعاده عن ديارهم لايزال آخذاً بتلابيب أكثر الأفراد ، وليس أولو الثروات العظيمة الا نفراً قليلين في بعض المدن الكبيرة .

وإذا صرفنا نظراً عن الحياة النوعية (الإنجازات المادية) ، فبم يمتاز الأوربيون ؟ هل طالت أعمارهم ؟ هل صرفت عنهم الأسواء من أسقام وآلام ؟ هل خفت عنهم أعباء الحياة التي تقتضي الكد والكدح ؟ هل تقدسوا عن البغضاء فيما بينهم ؟ هل ترفعوا عن سفاسف الأمور ؟ هل استغنوا عن الشرق البتة ؟ هل بلغوا بعلومهم أن يمزقوا نواميس الوجود ؟ .... هل بلغوا بها أن يستغنوا عن الحروب التي هي أليق بالعجماوات منها ببني الإنسان ؟ .... إذا شئت أن أعد كل ماهو من النواقص يطول بي العد والسرد ...."[39] .

هكذا تعامل (الزهراوي) مع ثوابت الفكر العربي ومنطلقاته الأساسية ، وهكذا فهم العلاقة مع الأسلاف ومع المجاورين من الأمم الأخرى ، ألا ما أحوجنا إلى مثل هذا الرجل الذي يساهم جهد طاقته في تبديد حجب التخلف ، ويعمل ما بوسعه لإخراج الأمة من وهاد الواقع المرير وقد ربح قوم " كان للأفاضل منزلة كريمة لديهم ، وخسر قوم لايعلو بينهم إلا من استعان بجيش من الحيل والخداع ، وحواش من النقائص المتغلبة على الطباع [40]

والخلاصة أن (الزهراوي) فيما كتبه وعرضه وتبناه من أفكار وآراء يمثل المفكر العربي والشرقي عموما المتوازن ، والمتصالح مع نفسه ومع تراث أمته ، والمنفتح على معطيات العصر ، ومنجزات الشعوب والأمم الأخرى . فهو قد دخل القرن العشرين بفكر منفتح على التجربة الأوربية ، ولكن دون أن يسمح لنفسه بالانخلاع من جذور الفكر العربي الإسلامي ، أو الخروج على

ثوابته ومنطلقاته . لذلك فإننا نرى في أفكاره خصوصية ونكهة الفكر العربي الإسلامي التقدمي ، الذي يأبى الانكماش والانغلاق على الذات ويقوى على مقاومة إغراءات الخطاب الحضاري المنافس، ويكون مستعداً دائماً للدخول في حوار معه ، متخففاً أثناء ذلك من العقد ومركبات النقص ، لأن عنده من الثقة مايجعله قادراً على التحرر من كل الضغوط . فهو لم يقف أمام الفكر الاوربي والمنجزات الأوربية موقف المستلب الضعيف ، بل وقف كما وقف من قبل رجال أمثال : ((الطهطاوي و الأفغاني ومحمد عبده)) وكما وقف معه رجال أمثال : ((الكواكبي ومحمد رشيد رضا ورفيق العظم)) وسواهم ، وان كان ما يميزه عنهم جميعاً أنه أعطى للمستقبل أكثر مما أعطى للماضي .

■

هوامش الفصل التاسع :

١ - عبد الحميد الزهراوي ، "المفكرون المتتبعون "، جريدة الحضارة ، السنة٢، العدد ٧٢ ، ٢٤ أغستوس ١٩١١ م ،
٢ - عبد الحميد الزهراوي ، "السنوسية والجامعة الإسلامية "، مجلة المنار ، مجلد ١٠ ، ج ٨ ، ١٩٠٧ ، ص ٢٨٨،
٣ - عبد الحميد الزهراوي ، " خواطر السياحة - نحن والأجانب "، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٧٤ ، ٧ أيلول ١٩١١،
٤ - المصدر السابق ،
٥ - عبد الحميد الزهراوي ، الرسالة السرية ، مصدر سبق ذكره ،
٦ - عبد الحميد الزهراوي ، "رحال اليوم "، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٦٤ ، ٢٩ حزيران ١٩١١،
٧ - عبد الحميد الزهراوي ، "المؤتمر "جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١١٢، ٣٠ مايس ١٩١٢،
٨ - عبد الحميد الزهراوي ، "بعض أحوالنا الحاضرة - لاتيأس وإن كانت دواعي اليأس كثيرة "جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١١٧ ، ٤ تموز ١٩١٢،
٩ - عبد الحميد الزهراوي ، "أخبار العالم أو السياسة الحاضرة "، جريدة الحضارة ، السنة٢ ، العدد ٩٣ ، ١٨ كانون الثاني ١٩١٢،
١٠ - عبد الحميد الزهراوي ، "عهد جديد في الاتفاقات "، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١١٩ ، ١٨ تموز ١٩١٢،
١١ - عبد الحميد الزهراوي ، "تربيتنا السياسية -٦- "جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٥٨ ، ١٨ مايس ١٩١١،
١٢ - عبد الحميد الزهراوي ، "عهد جديد في الاتفاقات "جريدة الحضارة ، السنة ٣ ، العدد ١١٩ ، ١٨ تموز ١٩١٢،

١٣- عبد الحميد الزهراوي ؛ " اليوم وبعد اليوم -٢- "جريدة الحضارة ، السنة ٢ ؛ العدد ٨١ ، ٢٦ تشرين الأول ١٩١١،

١٤- عبد الحميد الزهراوي ، "الأفراد والجماعات " ، مجلة الانسانية ، مصدر سبق ذكره ،

١٥- عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الحضارة ؛ السنة ١ ؛ العدد ١٤ ؛ ١٩١٠،

١٦- عبد الحميد الزهراوي ؛ " نظام الحب والبغض "؛ مجلة المنار ؛ مصدر سبق ذكره ،

١٧- عبد الحميد الزهراوي ؛ الفقه والتصوف ، (القاهرة ، المطبعة العمومية ، ١٩٠١م) ، ص٦١،

١٨- عبد الحميد الزهراوي ؛ " نظام الحب والبغض " ، مصدر سبق ذكره ،

١٩- عبد الحميد الزهراوي ، الفقه والتصوف ، ص٥٥،

٢٠- عبد الحميد الزهراوي ، "النظار -٥- "، جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٧٠ ؛ ٨ أغستوس ١٩١١م،

٢١- عبد الحميد الزهراوي ، " خديجة أم المؤمنين "،(القاهرة ، مطبعة المنار ، ١٣٢٨ هـ) ، ص٦٠،

٢٢- عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض " ، مصدر سبق ذكره ،

٢٣- المصدر السابق ،

٢٤- عبد الحميد الزهراوي ، " نصائح مهمة "، جريدة الحضارة ، السنة ٣ ؛ العدد ١٢٨ ؛ ١٩ أيلول ١٩١٢،

٢٥- عبد الحميد الزهراوي ، " خواطر السياحة -٥- " ، جريدة الحضارة ؛ السنة ٢ ؛ العدد ٧٩ ، تشرين أول ١٩١١،

٢٦- عبد الحميد الزهراوي ؛ " حول الحرب أيضاً - فوائد هذه الحرب - "؛ جريدة الحضارة السنة ٣ ، العدد ١١٤ ، ١٣ حزيران ١٩١٢ م،

٢٧- عبد الحميد الزهراوي ؛" نظام الحب والبغض " ، مصدر سبق ذكره ،

٢٨- عبد الحميد الزهراوي ؛ " تربيتنا السياسية -٦- " ، مصدر سبق ذكره ،

٢٩ـ عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض "، مصدر سبق ذكره ،
٣٠ـ عبد الحميد الزهراوي ، " نظام الحب والبغض "، مصدر سبق ذكره ،
٣١ـ عبد الحميد الزهراوي ، "رجال اليوم ". جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٦٤ ؛ ٢٩ حزيران ١٩١١ م ،
٣٢ـ عبد الحميد الزهراوي ؛ "الفقه والتصوف ؛ مصدر سبق ذكره ، ص١٤،
٣٣ـ عبد الحميد الزهراوي ؛ " نظام الحب والبغض "، مصدر سابق ذكره .
٣٤ـ عبد الحميد الزهراوي ؛ " نظام الحب والبغض "، مصدر سابق .
٣٥ـ عبد الحميد الزهراوي ؛ " نظام الحب والبغض ". مصدر سابق .
٣٦ـ عبد الحميد الزهراوي ؛ " نظام الحب والبغض "؛ المصدر السابق .
٣٧ـ عبد الحميد الزهراوي ؛ " نظام الحب والبغض "؛ المصدر السابق .
٣٨ـ عبد الحميد الزهراوي ؛ " نظام الحب والبغض "؛ المصدر السابق .
٣٩ـ عبد الحميد الزهراوي ؛ " نظام الحب والبغض "؛ المصدر السابق .
٤٠ـ عبد الحميد الزهراوي ؛ " خديجة أم المؤمنين ؛ ص٥٩،

الخاتمة :

لعلنا قد بينا فيما قدمناه ، كيف أن (الزهراوي) قد عاش أفكاره ، أو - بعبارة أخرى - قد فكر من خلال تجربته ومعاناته . وأيا كان الأمر ، فإن (الزهراوي) ، من أولئك الذين تلتصق أفكارهم بسلوكهم التصاقا عضويا ، وترتبط أفعالهم بأقوالهم إلى درجة التطابق .

ولعلنا قد وفقنا كذلك إلى تأكيد أن أفكار (الزهراوي) ، قد سارت بخط نمائي مطرد ، دون أن تعرف النكوص ، ودون أن تصاب بالتناقض أو التضارب . فهو لم يتراجع ، ولم يتلون ، وإن كان على استعداد أن يحاور ، ولأن يتلمس لخصمه الأعذار والمسوغات ، ولكن ليرد عليه بعد ذلك الرد الحاسم والجازم والمفحم ، بعد أن يكون جرده من كل حجة وبينة .

بعد الذي قدمناه من أفكار هذا الرجل ، وبعد الذي عرضنا من أقواله وأفعاله ، وبمقارنة ذلك بما صدر عن مفكري عصره ، نعتقد أنه - وبجدارة - واحد من أهم أساطين ماصار يعرف باسم (عصر النهضة) . وحين نرشحه لتبوؤ هذه المكانة - مع علمنا أن الكثير من دارسي هذه الحقبة سيتحفظون على ذلك . فلأنه قدم آراء وأفكارا ومواقف تؤهله لتلك المكانة .

بل إنه – وبغض النظر عن التصنيفات التي وضعها بعض الدارسين[1] – يملك فكراً تقدمياً يعبر عن نفسه بقوة ، سواء من خلال رفضه المطلق لمقولات (السلفيين) حول إحياء الماضي المجيد، وبعث العصر الذهبي للأمة . أو من خلال فهمه لما تركه الأجداد من تراث ، خاصة حين وضع هذا التراث في إطاره التاريخي . بمعنى أن ما أبدعه الأجداد من شرائع ومبادئ ومقولات لاتلزمنا إلا بالقدر الذي تستطيع فيه أن تساعدنا على مواجهة معطيات زماننا وبيئتنا وفي رأيه أن للأسلاف ظروفهم وزمانهم ومشكلاتهم ، وقد أحسنوا في استنباط الأحكام والشرائع التي يواجهون بها ما عرضته عليهم بيئتهم من مشكلات ، ولنا نحن ظروفنا وزماننا ومشكلاتنا ، ولنا بالتالي أن نستنبط من الأحكام والشرائع والقوانين مانواجه به المستجدات .

فـ (الزهراوي) يرفض (الكز على آثار الأسلاف) مهما كانت الذرائع التي يسارع البعض للتبرع بها باسم الدين تارة ، وباسم الوطنية تارة أخرى ، وفي رأيه أيضاً أن التراث الذي ورثناه عن الأسلاف ليس مقدساً وليس مباركاً ، وأن صدوره عن الآباء والأجداد لايمنحه مثل تلك البركة والقداسة ، لذلك فهو يضعه في السياق التاريخي ، بمعنى أنه قابل للتطور والنمو ، والقبول والرفض والمناقشة ، كل ذلك في إطار ماتفرزه الظروف المستجدة من معطيات .

وبالإضافة إلى تقدمية آرائه ، وقدرته المذهلة على الإفلات من قيود كبلت الكثير من معاصريه ، فإنه قد تفرد عن أقرانه وسبقهم في كثير من المواقف ، فقد كان الوحيد في تلك المرحلة الذي قال بوحدة العرب في المشرق والمغرب ، وأنهم أمة واحدة . وكان الوحيد الذي استطاع أن يضع حدود الوطن العربي المتعارف عليها الآن ، كما كان السباق إلى إعطاء تعريف للإنسان العربي :

" فالعرب اليوم هم أهل هذه الأوطان الجميلة المتوسطة في الأرض ، المتاخمة للأوقيانوس ، ولبحر الهند ، والبحر المتوسط ، وهم أهل هذه العقول الذكية ، التي توارثوها أكثر من سبعة آلاف سنة ، عن أسلاف عرفوا بإقامة الحضارات ... " (٢) .

ومن الواضح تماماً أن (الزهراوي) يحقق هنا أكثر من سبق وعلى أكثر من صعيد : فهو وكما سلف قد وضع حدود الوطن العربي بعد أن كان هذا المفهوم يضيق ويتسع عند هذا المفكر (أو الحزب) أو ذاك .... (*) وهو قد سبق إلى اعتبار أن كل من تكلم العربية عربي ، هذه المقولة التي ألح عليها بعد ذلك (ساطع الحصري) والتي تعتبر حجر الزاوية في البناء الفكري العروبي عند (أبي خلدون) فيلسوف القومية العربية ومنظرها الأول . كما أن (الزهراوي) كان من السباقين إلى القول (بأن الحضارات والدول التي قامت على امتداد رقعة الوطن العربي - التي حددها - هي حضارات عربية . أي أن العرب حضارة راسخة الجذور تمتد في أعماق التاريخ إلى أكثر من سبعة آلاف سنة .

وحتى لايسارع أحد إلى القول بأننا لايجوز أن نبني الكثير من الاستنتاجات على نص ، أو بالأحرى على فقرة قد تكون شاردة . ولايجوز أن نحملها بالتالي فوق ماتحتمل فإننا نود أن نؤكد أن هذه الفقرة وما جاء فيها من آراء عن العرب ووطنهم ولغتهم ... الخ

---

*كان مفهوم الوطن العربي يضيق عند البعض حتى لايكاد يتجاوز أجزاء من بلاد الشام . في حين كان يشمل عند البعض بلاد الشام ، أو بلاد الشام والعراق ، أو بلاد الشام وأجزاء من شبه الجزيرة العربية وهي الحدود التي تصورها رجال الثورة العربية الكبرى ، أمّا مصر فإن دخولها في نطاق الوطن العربي بين أخذ ورد بناء على تطاحن المصالح الفرنسية والانكليزية ، أمّا أقطار العروبة في الشمال الإفريقي فلم يشر أحد باستثناء الزهراوي إلى رابطة العروبة التي تجمعها بأقطار المشرق ، وان كان الجميع قد أشاروا الى روابط أخرى خاصة (رابطة الدين) .

ليست شاردة وليست يتيمة إذ أن أفكار (الزهراوي) العروبية لاتخرج عن هذا الإطار ...

ومما يميز (الزهراوي) من الكثير من معاصريه أنه استطاع أن يجمع إلى الثقافة والعلوم العربية الإسلامية ، ثقافة عصرية متجددة ، واطلاعا على المنجزات الفكرية والتقنية (التكنولوجية) الجديدة ، مضافاً إلى ذلك قراءاته لكتابات ومؤلفات (عصر الأنوار الأوربي) لاسيما كتابات (مونتسكيو وجان جاك روسو) . والقارئ لكتابات (الزهراوي) يلمح بسهولة بصمات قراءاته للفكر الأوربي المعاصر وللمعطيات الفكرية لعصر الأنوار . نقول هذا وفي ذهننا ماذكره (د. منير موسى) حين قال " لم يكن (الزهراوي) عميق التفكير كما أنه لم يملك ثقافة عصرية " [٣] . في رأينا أنه بذلك قد ظلم (الزهراوي) مرتين كما ظلمه مرات كثيرة في أماكن أخرى من كتابه .

فهو قد ظلمه حين اعتبر أفكاره سطحية ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو على الشكل التالي : فكر (الزهراوي) سطحي وغير عميق بالنسبة إلى ماذا ؟ وإلى من ؟ ومن من معاصريه كان يحمل أفكاراً أعمق ؟ وما الأفكار التي عرضها الزهراوي (مسطحة) على حين عرضها سواه عميقة مكثفة ؟ كلها تساؤلات كنا نود لو أن (د. منير موسى) كلف نفسه عناء الرد عليها قبل أن يطلق أحكامه المعيارية هكذا .. أم إنه إطلاق القول على عواهنه ؟وفي رأينا أن ما أوقع (د. منير موسى) في هذه الورطة أنه اعتمد في تقويمه لفكر (الزهراوي) على كتاب الإرث الفكري والاجتماعي ... " وهو عبارة عن مجموعة مقالات افتتاحية كتبها (الزهراوي) لجريدته (الحضارة) وكان المفروض أن ينتبه السيد الباحث إلى أن هذه المقالات موجهة للقارئ العام ، ومن الطبيعي والحالة هذه أن يعرض (الزهراوي) آراءه بأسلوب واضح بسيط

لالبس فيه ولاغموض ، والمتمكنون وحدهم هـم الذيـن يستطيعون عرض أفكارهم بهذا الأسلوب السهل . أمّا حين كان (الزهراوي) يكتب لقارئ مختلف فكانت كتاباته أكثر عمقاً وغموصاً مما دفع الكثير من المطلعين على ماكتبه لترشيحه للدخول في زمرة المفكريـن الفلاسفة .

وظلمه (د. منير موسى) حـين اتهمـه بعـدم الاطـلاع على الثقافة العصرية ، مع أن بصمات الفكـر المعـاصر تظهـر بقـوة على أفكاره لاسيما آرائه السياسية والاجتماعية .

وظلمـه أكثر حين زعـم أن أراء ه مبنيـة علـى أسـس دينيـة إسلامية ، وأنه في دعوته (العثمانية) إنما انطلق من بواعث دينية[٤] وليس مايدعو إلى العجب والدهشة أكثر مـن هـذا الاتهـام ، يوجـه إلى إنسان رفض أن تكون رابطة الدين أساساً لقيـام الـدول ، وبيّـن أن هذه الرابطة أضعف مـن أن تمنـع قيـام الخلافـات والحـروب بـين شعوب تعتنق ديناً واحداً ، وأن هذه الرابطة وإن كـانـت أرقـى مـن العصبية والعشائرية ، إلا أنها لاترقى إلى درجة (رابطة المدنيـة) . ويزداد عجبنا ودهشتنا حين يتهم إنسان وقف من فكـرة (الجامعـة الإسلامية) التي دعا اليها كثير من المفكرين ذلك الموقـف المعـارض أشد المعارضة . ونعجب أكثر حين يكون الاتهام موجهاً إلى إنسان رفض أن يصنف الحروب الـتي تشـنها أوربـا علـى الشـرق في خانـة الحروب الدينية ووضعها في إطارها الصحيح ، وأرجعها إلى أسبابها الحقيقية ، واعتبرها حروباً اقتصاديـة استعمارية ناجمـة عمـا ورثـه الأوربيون عن الرومان من أطماع لاعمـا ورثـوه مـن تعـاليم الديـن المسيحي .

لذلك فقد تهكـم علـى أولئـك الذيـن يسـارعون إلى تحريـك (سلاسل الدين) ليصادروا بهـا الآراء . ويكـاد يغلـب الظـن علـى المـرء بـأن (د. منـير موسـى) قـد قـال ماقالـه حـين رأى صـورة

(الزهراوي) على غلاف كتاب (الإرث الفكري ٠٠٠) فلم يقو ذهنه على تصور خروج فكر تقدمي من تحت العمامة الكبيرة التي تغطي رأس (الزهراوي) ثم إن (د٠ منير موسى) قد ظلمه حين تحدث عن انخداعه بالانكليز وتغافله عن مخططاتهم ٠ ومع اعتقادنا الراسخ بأن الإنكليز قد خدعوا رجالات العرب إلى هذه الدرجة أو تلك ، ولكن وكما سبق أن ذكرنا كيف أنهم - خاصة السوريين منهم - قد حاولوا الاعتماد على الإنكليز كسياسة (تكتيكية) بقصد الوقوف في وجه المخططات الفرنسية التي كانت تستهدف السيطرة الكاملة على سورية وهي سياسة لعبتها - ومازال - الكثير من حركات التحرر الوطني - مع وعينا الكامل لمخاطر اتخاذ الضرغام بازا للصيد - ٠ ولكن الذي دفعنا للقول بأن (د٠ منير موسى) قد ظلم (الزهراوي) فلأن الباحث لم يتورع عن استخدام معايير مختلفة لقياس الأمر الواحد - حسب المصلحة والهوى - ففي حين اتهم (الزهراوي) بالغفلة والسذاجة والانخداع بالمشاريع الإنكليزية ، فانه اعتبر دعوة (نجيب عازوري) للاعتماد على الفرنسيين أمراً طبيعياً ومبرراً ، لأنه لابد للثورة من البحث عن قوة دولية خارجية تعتمد عليها وتدعمها [٥] وهي عنده (فرنسا وبريطانيا) ٠

وإذا كنا في معرض الإشارة إلى الشبهات التي اثيرت حول (الزهراوي) فلابد هنا أن نشير إلى ماكان (د٠ وجيه كوثراني) يحرص على تأكيده كلما تطرق إلى ذكر (الزهراوي) فهو لاينفك يتهم (الزهراوي) بأنه وقف مستلباً أمام المظاهر البراقة للحضارة الأوروبية عامة والفرنسية خاصة ، مما جعله يغفل أو يتغافل عن المخططات الفرنسية تجاه الوطن العربي لاسيما سورية ٠ و (د٠ وجيه كوثراني) حين افتقد الدليل على ارتباط (الزهراوي) مباشرة بالمشروع الاستعماري الفرنسي ، لجأ إلى فكرة تحمل في

طياتها اتهاماً وغمزاً ، وذلك حين قال بأن الدبلوماسية الفرنسية قد راهنت على (الزهراوي) [6] وورطته كما ورطت (مسلمي بيروت) حين دفعتهم دفعاً لمواجهة السلطة العثمانية وتحديها بعرض مطالب لايمكن أن توافق عليها . فيكون الطلاق التام بينهم وبين السلطنة العثمانية ، ولايكون أمامهم بعد ذلك إلا الالتحاق بالمشروع الفرنسي ، نسجا على منوال من سبقهم وجيرانهم . وكنا نقبل مقولة (د. وجيه كوثراني) لولا أننا وجدنا (الزهراوي) واعياً تماماً بلعبة الدبلوماسية الفرنسية وعملائها ، عارفاً لرجال مخابراتها ، الذين استخدموا - كحصان طروادة - لاختراق صفوف الحركة العربية ، ولجرها لتصب في طاحونة المشروع الفرنسي . وقد سبق وأن ذكرنا فقرات مطولة من الرسالة السرية التي بعث بها (الزهراوي) إلى صديقه (محمد رشيد رضا) أحد أقطاب (حزب اللامركزية) مبيناً له فيها أن (مؤتمر باريس) كان ملفقاً وصورياً وكيف أن (الزهراوي) قد بذل الوسع في سبيل إخراجه (مرونقا) - على حد تعبيره - حتى لايصبح العرب أضحوكة أمام الأوربيين والاتحاديين على حد سواء . وقد بين في هذه الرسالة الهامة جداً ، كيف أن (خليل زينية) و (أيوب ثابت) لم يرشفا من الجامعة (الأمة) العربية ولاحتى الجامعة السورية ولاقطرة وأن همهما بيروت وحدها لاشريك لها ....

أي أن (الزهراوي) كان عليماً بما يجري متيقظاً للمخططات الفرنسية من قبل أن ينشر (د. وجيه كوثراني) كتابه المتضمن وثائق الخارجية الفرنسية بما يزيد عن نصف قرن . بل إن اطلاع (الزهراوي) على النيات الفرنسية كان من جملة أسباب قبوله لمنصب (الأعيان) الذي سبب له بعد ذلك الكثير من العنت وسوء الفهم .

وبرأينا أنه كان الأجدر بالدكتور (وجيه كوثراني) أن

يعود إلى مجموع كتابات (الزهراوي) ، وليس إلى وثيقة وحيدة . نعني بها خطاب (الزهراوي) في مؤتمر باريس وتصريحه للصحفيين الفرنسيين ، مع تأكيدنا مرة أخرى أنها لاتحمل في طياتها أي نكوص أو ارتداد .

وإذا كان (د. فهمي جدعان) قد رشح (الزهراوي) ليكون بطل دور الحرية بلا منازع ، ويعني بدور الحرية الفترة التي تلت الإنقلاب العثماني وإعلان الدستور وحتى إعدام الشهداء العرب على يد العنصريين الأتراك . معللاً ترشيحه هذا باستشهادات ومقارانات كثيرة ، فإنا نرى أن (الزهراوي) بعد إعلان الدستور هو نفسه قبل إعلان الدستور ، لهجة صادقة حاسمة، وريحاً تجديدية عاصفة تحاول أن تكتسح كل القيود التي تكبل العقل والفكر والإنسان والوطن . فمن ذا الذي يقرأ كتابه (رسائل في الفقه والتصوف) ولايلمح من خلاله شخصية مناضلة فذة ، جريئة على قول الحق في وقت كان قول الحق يكلف المرء حياته ورأسه ، وقادرة على المواجهة والمجابهة ، في وقت صمت فيه الكثيرون خشية ورهبة . ثم من ذا الذي يقرأ كتابه الآخر (نظام الحب والبغض) الذي نشره متفرقاً في المنار ولم تتح بعد فرصة نشره مستقلاً / ولايلمح فيه مفكراً مكتمل الأدوات ؟ متمكناً من الموضوع الذي يتصدى للبحث فيه ؟ مع كونه موضوعاً مبتكراً إلى حد كبير في لغتنا العربية آنذاك . ولعل ماجاء في هذا الكتاب بالذات قد دفع الإمام (محمد رشيد رضا) إلى اعتبار (الزهراوي من الحكماء الربانيين والفلاسفة الاجتماعيين وإن قضت عليه الأيام بالانتظام في سلك السياسيين " (٧) كما دفع بعد ذلك (د. فهمي جدعان) إلى التصريح بأن (الزهراوي) لو فكر لحسابه الخاص لكان بما امتلكه من استعدادات وقدرات وأدوات فيلسوفاً (٨) وفي قولهما الكثير من الواقع . فلولا انغماس (الزهراوي) في لجة العمل

السياسي (حتى أذنيه) ، لو حددت أفكاره تعبيراً عنها في المجال الفلسفي والاجتماعي الذي كان يحبه ويؤثره ويعود إليه حتى في كتاباته الصحفية . فقد كان يحمل بين جنبيه نفساً شفافة وعقلاً نيّراً وفكراً طموحاً . . . وتجده حتى في أشعاره - وهي محدودة - يشرئب إلى آفاق شامخة من التأمل الفلسفي العميق:

لاتكذبنا يابصر لاتخدعينا يافكر

إن الحقائق تحت طي النشر فوق المنتظر

لكن برؤيتها دعاوي الناس تعيي من حصر

وسوى سراب لم يروا والآل كم غرّ النظر

أنى التصور ياحجى للسر في هذي الصور

الكون مبني على الحركات كل في قدر

وهي قصيدة رائعة ترقى إلى أن تكون واحدة من غرر قصائد التأمل في الشعر العربي ،وهي طويلة اقتطفنا منها أبياتاً من أولها .

ولأن (الزهراوي) كما قال (د. فهمي جدعان) رفض أن يفكر لحسابه الخاص من جهة ، ولأنه اغتيل قبل الأوان من جهة ثانية ، لم يصل فكره الفلسفي إلى المدى المتوقع له مع أن ما أدركه ليس باليسير .

وبعبارات أخرى إن (الزهراوي) إذ رفض أن يفكر لحسابه الخاص ، فإنه قد اندفع في غمار العمل السياسي والوطني ، وعاش هموم شعبه ، جاعلاً من نفسه الناطق باسمه ، المعبر عن طموحاته .

وإذا كنا نعتقد بأن (الزهراوي) واحد من أهم أساطين النهضة - كما ذكرنا - فإننا نطمح إلى إعادته إلى المكانة التي يستحقها ، بعد أن طال إقصاؤه - ظلما - عنها . ونود أن تأخذ

أقواله وآراءه طريقها إلى دائرة الضوء بعد أن طال التعتيم عليها ، خاصة وأن من يعتد برأيهم من معاصريه قد عرفوا له هذه المكانة . فهذا (محمد رشيد رضا) يقول عنه : " نابغة من نوابغ السوريين لايكاد يلز به في مجموعة مزاياه قرين ماعرفت بلاده كنهه ولاقدرته قدره على أنها لم تقصر في تعظيمه وتكريمه ... أحد أشرف النبلاء المنصرفين لخدمة الأمة بكفاءة واستعداد من معرفة المصلحة وفصاحة اللسان وقوة الحجة وجرأة الجنان ... تلك الفضائل التي عرفها له كل من عرفه من العقلاء المنصفين وهي : استقلال الرأي، وصدق القول ، وقوة الإرادة ، والإخلاص في العمل ، وإيثار الحق على الهوى ، وتوجيه الهم والهمة إلى المصالح العامة ، وترجيحها عند التعارض على المنافع الخاصة "[٩] . وهذا الإمام (محمد عبده) يتوسم فيه الخير ، ويطلب منه البقاء في سورية ليبشر بفكرة الإصلاح وعندما حدثت الفتنة المشهورة بسبب صدور كتاب (الزهراوي) عن (الفقه والتصوف) انتصر الإمام (محمد عبده) له، وأيد ماذهب اليه ، وتهكم على الحشوية من سكنة الأثواب العباعب وحملة العمائم مع أن ماذكره (الزهراوي) هو الحق المبين الذي لاينكره الآكل ولا الشارب .

ولولا المكانة العلمية والاجتماعية والسياسية التي كان يتبوؤها (الزهراوي) ، لما رشحه (حزب اللامركزية) ليكون المتكلم باسمه ، والمعبر عن رأيه ، في مؤتمر باريس العربي ، الذي كان بمثابة تجمع أو جبهة للأحزاب والجمعيات العربية في ذلك الوقت .

ولكن ومع هذا فإن المرء ليعجب كيف أن شخصية مرموقة ، على هذه الدرجة من الفاعلية والكفاءة ، تبقى مبعدة عن دائرة الضوء التي ربما اتسعت لتشمل شخصيات أقل فاعلية وكفاءة وحين يحاول أن يبحث عن سبب مقنع لذلك يكاد لايجد من سبب سوى أن أفكار (الزهراوي) المعارضة دائماً - عن حجة وبينة -

لاتصلح لأصحاب السلطة أيا كانوا ، لأن فيها قبساً من جذوة المقاومة ، وإنهاضاً لقوى الرفض ، وتشجيعاً للمستضعفين ، وغرساً للأمل في نفوسهم حين يؤكد أن العاقبة لهم ، وتحذيراً للظالمين من الطواغيت والمستبدين بأن الدائرة ستدور عليهم لامحالة ، مهما بلغ من جبروتهم ، طالما أنهم لايقيمون ميزان العدل .

وإذا كان ماذكرناه إلى الآن يبرر سبب إقصائه عن دائرة الضوء الرسمية - إن صح التعبير - فثمة تساؤل شرعي يطرح نفسه هنا هو : ماسبب العنت الذي يعانيه (الزهراوي) من كثير من الباحثين ؟ وبرأينا أن أهم أسباب هذا العنت يعود إلى اعتماد هؤلاء الباحثين على آراء بعضهم ، مستريحين من أعباء البحث والتمحيص. ولأنهم لم يعرفوا من آثار هذا الرجل الا المقالات التي نشرها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في كتاب (الإرث الفكري والاجتماعي ..." كما هي حالة (د. منير مشابك موسى) أو بالإضافة لهذا الكتاب " وثائق المؤتمر العربي في باريس) التي نشرها حرب اللامركزية كما هي حالة (د. وجيه كوثراني) .

ويمكننا بالاعتماد على ماذكرناه في ثنايا البحث أن نحدد ملامح فكر (الزهراوي) على الشكل التالي:

- إيمان عميق بالانسان من حيث هو إنسان ، بغض النظر عن أية صفات أو نعوت أخرى (جنس - دين - حالة مادية...

- العمل على نقل الإنسان في وطنه من خانة الرعية إلى خانة المواطنة ، بكل مايترتب على ذلك من حقوق وواجبات ومسؤوليات .

- إيمان مطلق بالعدل ، وعلى كل الصعد : (العدل الطبيعي - العدل الاجتماعي - العدل السياسي ...." .

- إيمان مطلق بالحرية ، لاسيما حرية التفكير والاعتقاد ، والحرية عنده ذات أبعاد إنسانية ، بمعنى أنها من أهم مقومات الإنسان وسبب أساسي لكونه مسؤولاً - أي مكلفاً - ،
- إيمان مطلق بقدرة العقل الإنساني ، وبضرورة فسح المجال له ليعمل ، وعدم وضع أية مناطق محرمة أمامه ،
- دعوة واثقة للاجتهاد ، ورفض مطلق للتقوقع ضمن قوالب القدماء ومذاهبهم واجتهاداتهم الجاهزة ،
- رفض للتعصب ، ورفض للعنصرية ، واعتبار الإنسان أخاً للإنسان (كيفما كان اللون واللسان) ،
- فهم علمي وعقلي للتراث ، والتعامل معه على أساس أنه بشري ، حدث في سياق تاريخي معين ، وكان استجابة لمعطيات محددة ،
- انفتاح على الحضارات المغايرة والتعامل معها بعيداً عن الاستلاب ، وعن الرفض المطلق ،
- فهم علمي وعقلي للتاريخ العربي ، كانت نتائجه تعريف بالعرب وحضاراتهم ومواطنهم ...
- موقف مستنير من المرأة وحقوقها ودورها ....
- التشبث بمكارم الأخلاق ، واعتبارها مقدمة على كل الصفات الأخرى فلا قيمة لعلم أو عمل مالم يكن منطلقاً من أسس أخلاقية متينة ،
- تغليب مصلحة الأمة على مصلحة الفرد وتغليب المصالح العامة على المصالح الخاصة ،
- التمتع بفكر منفتح شفاف ، متمكن من فهم الأحداث وقادر على التنبؤ بمجرياتها ،
- كفاح مستمر لايعرف التعب أو الخوف في سبيل إحقاق الحقوق العربية ،

وقد أخذ هذا الكفاح شكل العمل السياسي النضالي ، حيث صار هذا العمل سمة عضوية لهذه الشخصية الفذة . فقد كان مسكوناً بالسياسة لدرجة استنفدت الكثير من طاقاته واستعداداته ، التي ربما كانت ستؤهله لإنجازات فكرية كبيرة كما لاحظ ذلك (د. فهمي جدعان) . إلا إننا مع ذلك لانستطيع أن نلوم (الزهراوي) . إذ كيف يستطيع أن يبتعد عن السياسة رجل يشعر في كل لحظة أن حبل المشنقة على بعد (سنتيمترات) قليلة من رقبته ؟ وكيف يمكن أن ينأى عن العمل السياسي رجل يرى شعبه ووطنه ميداناً لممارسة كل أنواع القهر والتسلط والظلم ؟ .

ولكن لابد من التذكير بأن (الزهراوي) سياسي عقائدي صاحب رسالة ، وينطلق في عمله من منطلقات ومبادئ ثابتة ومقدسة . فالسياسي عنده (بحاث عن كل روابط الاجتماع) مقاوم ومناضل لايستكثر منه أن يحمل روحه على كفه ويبذلها رخيصة في سبيل القضاء على القهر والاستعباد (عسانا نعيش لانظلم ولانظلم ...) .

فالسياسة عنده التزام نضالي ، وليست خداعاً ومكراً ، وتلاعباً بالألفاظ ، وركوباً للموجة وانتهازاً للفرص وللأحداث . لذلك لم يكن من أولئك الذين يبدلون أفكارهم وآرائهم حسب المواسم . فهو رغم انخراطه ي العمل السياسي – حتى العظم كما يقولون – إلا أنه لم يكن سياسياً محترفاً وفق المفهوم السائد آنذاك للسياسي . بل كان مناضلاً سياسياً ، الأمر الذي قاده وكان لابد من أن يقوده إلى حتفه .

وإذا كان من تعليق هنا على فاعلية (الزهراوي) السياسية ، فهو أن (الزهراوي) بمبدئيته والتزامه الصارم بأفكاره ، لم يكن يصلح للسلطة ، ولم تكن السلطة تصلح له ، إنما كان يصلح لأن

يكون ضمير الوطن ، وعين الأمة ، واللسان المعبر عن المصلحة العامة ، المدافع عن المبادئ . ومثل هذا الرجل لايمكن إلا أن يكون في المعارضة دائماً وهذا ماحدث . فقد كان من أنصار جمعية (الاتحاد والترقي) عندما كانت في المعارضة ترفع شعارات الحرية والعدالة والمساواة ، وشاركها نضالها ضد طغيان السلطان (عبد الحميد) ، ولكن ما إن تسنمت السلطة ، وبدأت تتخلى عن المبادئ التي ناضلت في سبيلها ، تحت ضغط منطق السلطة من جهة، وتنفيذاً للمآرب العنصرية التركية من جهة ثانية ، حتى ناصبها العداء بلهجة حاسمة عنيدة جريئة . ولولا المكانة العلمية والاجتماعية والأدبية (للزهراوي) لكانت (الجمعية) بطشت به منذ وقت مبكر .

وبرأينا أن التزام (الزهراوي) بالمبادئ وعدم استعداده للمتاجرة بها ، جعل سقفه السياسي غير قابل لتجاوز ماوصل إليه . فالسياسي الملتزم يجد نفسه حين تتاح له فرصة الانتقاد ، ووضع اليد على الأخطاء ، وتحليل الأحداث واستنهاض الهمم . لذلك فقد كان منصب (المبعوثان) ومنصب الأعيان بعد ذلك بالإضافة إلى المقالات الصحفية التي كان ينتظرها المؤيدون والمعارضون ، غاية الأفق السياسي الذي يصلح له ولانعتقد أنه كان يصلح لمنصب سياسي تنفيذي ، يكون فيه صاحب قرار ، لأن العمل السياسي من موقع السلطة يدفع المرء للتخلي عن الكثير من القناعات والمبادئ في سبيل التكيف مع منطق الأحداث وفق حسابات مختلفة وما كان الزهراوي - بقناعتنا - مستعداً لمثل هذا التخلي .

وإن كان من مأخذ يؤخذ على (الزهراوي) في عمله السياسي ، فهو وثوقيته ، وسلامة طويته ، وهذا برأينا راجع إلى كونه صاحب رسالة ، وإلى كونه مؤمناً بأنه في النهاية لايصح إلا

الصحيح . ولإيمانه بأنه يسير على النهج السليم ، كان يعتبر أن مناورات الاتحاديين إنما هي رجوع إلى الحق ، ومن هنا كان تورطه في قبول منصب الأعيان . لأنه ظن أن الاتحاديين قد فطنوا إلى المخططات الأوربية عامة والفرنسية خاصة ، وإن الوقوف بوجهها لايتم إلا عن طريق تقوية الروابط مع العرب ، والاستجابة لمطالبهم لأن فيها قوة للدولة . ولكن كان هو في واد والاتحاديون في واد آخر تماماً . لذلك اعتبر غدرهم بالأحرار خيانة للدولة ، وكانت آخر كلماته تحمل اللعنة لهم على خيانتهم ....

ومما يلفت الانتباه في آراء (الزهراوي) وكتاباته أنها تحمل دائماً لهجة ثورية حادة وصدامية ، (إلا أن هذه الحدة نفسها ، هي التي كان ينبغي أن يتسلح بها رجل بقوده مصيره نحو العمل والفعل"

وبعد

« فقد كان (الزهراوي) بطلاً من أبطال الأمة ، ومناضلاً ملتزماً من خيرة مناضليها . تجسدت في أقواله وأفعاله وحياته ، آمال الأمة وتطلعاتها فقد كان حياة متحفزة متوثبة وطاقة واعية متدفقة وطموحاً لايعرف الحدود ولا الكلل وأملاً يداعب النفس والعقل ويتحرق لإدراك الطلبة الكبرى " (١٠) وما الطلبة الكبرى إلابناء الوطن العزيز القادر والقوي والمتقدم ، وبناء المواطن الواعي المتسلح بالعلم والمعرفة والذي يبادر إلى تحمل مسؤولياته وينخرط في العمل الوطني وفي مقاومة الظلم والقهر . وإذا كان (الزهراوي) قد سقط شهيداً ، إلا أن استشهاده كان الخيار الوحيد الذي لايملك سواه مناضل متشبث بأهداف أمته وبآمالها . وإذا كان لابد من تقديم بعض الوفاء لهذا الرائد ولزملائه الذين قضوا معه على مذبح الكرامة فإننا نعتقد أن خير الوفاء هو في حمل الراية التي ضحوا في سبيلها . ومتابعة الرسالة التي قدموا أرواحهم قرابين لها .

و (الزهراوي) بتقديمه روحه على مذبح كرامة الوطن والمواطن ، يكون قد مهر ماكان يطالب به ويدعو له ويعمل من أجله بخاتم صدق . ألا ما أحوجنا إلى الكتاب الأحرار ، والمناضلين الصادقين ، الذين يقدمون الرأي ويقدمون إلى جانبه الروح والنفس .

وإذا كنا قد حاولنا أن نرد في هذا البحث بعض ماينبغي لهذا الرائد الشهيد فاننا نعترف بأن في حياته المزيد من الكنوز ،أو لم نقل من قبل أن (الزهراوي) قمة شامخة لم تستكشف بعد . . . . . . ؟؟

■

هوامش الخاتمـــــــة :

١ ـ انظر : د . منير موسى ، الفكر العربي في العصر الحديث ، سوريا من القرن الثامن عشر حتى عام ١٩١٨ ،(بيروت ، دار الحقيقة ١٩٧٣.

٢ ـ عبد الحميد الزهراوي ،" من هم العرب - تاريخ آداب اللغة العربية " جريدة الحضارة ، السنة ٢ ، العدد ٦٠ ؛ ١ حزيران ١٩١١ .

٣ ـ د . منير موسى ، المصدر السابق ص ٢٣٠ .

٤ ـ انظر د . منير موسى ، المصدر السابق ، لاسيما الباب السادس -

٥ ـ انظر د . منير موسى ، المصدر السابق ، لاسيما ص ١٩٦ .

٦ ـ انظر : د . وجيه كوثراني ، بلاد الشام السياسة والاقتصاد .. وكذلك وثائق المؤتمر العربي الأول .

٧ ـ محمد رشيد رضا ، مجلة المنار ، ج ٣ ، م ١٩ ، ص١٦٩ .

٨ ـ انظر د . فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الاسلام .. مصدر سابق .

٩ ـ محمد رشيد رضا ، مجلة المنار ، ج٣ ، م١٩ ، ص ١٦٩ وما بعدها .

١٠ ـ د . فهمي جدعان ، مصدر سابق ..

المصادر والمراجـــــع :

- أبورية ، محمود . جمال الدين الافغاني " ١٨٣١ - ١٨٩٨ ."
القاهرة : ١٩٦١ .

- أحد الآباء اليسوعيين . معرض الخطوط العربية . بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩١٢م .

- اسحق ، أديب . الكتابات السياسية والاجتماعية .
جمعها وقدم لها ناجي علوش . بيروت : دار الطليعة ١٩٧٨ م

- أرسلان ، شكيب . لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم .
المنار ، ٣١ " ١٣٤٩هـ" . ص ٣٥٥ - ٣٧٠ ، ٤٤٩ - ٤٦٤ ، ٥٢٩ - ٥٥٣

- أرسلان ، شكيب . النهضة العربية في العصر الحاضر .
القاهرة : مطبعة دار النشر ، دون تاريخ

- أرسلان ، شكيب ، سيرة ذاتية . بيروت : دار الطليعة،١٩٦٩م .

- آغا العبد ، حسن. تاريخ حسن آغا العبد قطعة منه " حوادث ١١٨٦ إلى سنة ١٢٤١ هـ .
حققه يوسف جميل نعيسة . دمشق : وزارة الثقافة والإشارد القومي ١٩٧٩ .

- الأفغاني ، جمال الدين . وعبده ، محمد . العروة الوثقى . بيروت: دار الكتاب العربي ، ١٩٧٠ م .

- أمين ،أحمد . زعماء الإصلاح في العصر الحديث . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ م .

- أمين ،جلال أحمد . المشرق العربي والغرب "بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الإقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربي ". بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٠ م.

- أنيس ، محمد .الدولة العثمانية والشرق العربي "١٥١٤-١٩١٤". القاهرة.

- بستاني ، أميل . زحف العروبة . ترجمة عبد اللطيف شرارة : بيروت : دار الكتاب اللبناني ١٩٦١.

- برج ، محمد عبد الرحمن . ساطع الحصري . القاهرة : الهيئة العامة للتأليف والنشر "دار الكاتب العربي " ١٩٦٣."

- برو ، توفيق . العرب والترك في العهد الدستوري العثماني "١٩٠٨ - ١٩١٤ ". القاهرة:

جامعة الدول العربية "معهد الدراسات العربية العالية " ١٩٦٠ م.

- البديري الحلاق ، الشيخ أحمد . حوادث دمشق اليومية "١١٥٤ - ١١٧٥ هـ " " ١٧٤١ - ١٧٦٢ م ". نقحها الشيخ محمد سعيد القاسمي . حققها ونشرها أحمد عزت عبد الكريم . القاهرة : الناشر غير مذكور ، ١٩٦٩ م ،

- البزاز ، عبد الرحمن . هذه قوميتنا . القاهرة : دار القلم ، ١٩٦٤ م.

- البكري ، محمد توفيق : المستقبل للإسلام . القاهرة المطبعة العمومية ، دون تاريخ . - التونسي ، خير الدين .

أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك . تونس ": مطبعة الدولة ، ط ١ ، ١٢٨٤ هـ .

- جب ، هاملتون . وبروان ، هارولد . المجتمع الإسلامي والغرب . ترجمة أحمدعبد الرحيم مصطفى . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧١.

- جدعان ، فهمي . أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث . بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩

- جعيط ، هشام . أوربا والإسلام . ترجمة طلال عتريسي . بيروت: دار الحقيقة ، ١٩٨٠ م .

- الجندي ، أنور . عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع . القاهر ة : الدار المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٦٥

- حاج بكري ، علي . وفارس ، نبيه أمين. العقلية العربية بين الحربين "١٩١٨ - ١٩٣٩ ". دمشق : دار الرواد ، دون تاريخ .

- حاج محمود ، محمد أبو القاسم ، العالمية الإسلامية الثانية ، دار المسيرة ، دون تاريخ .

- حجار ، جوزف . أوربا ومصير الشرق العربي "حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية " بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،١٩٧٦ .

- حسنين ، أحمد طاهر . دور الشاميين المهاجرين إلى مصر في النهضة الأدبية الحديثة . دمشق : دار الوثبة ،١٩٨٣ .

- حوراني ، البرت . الفكر العربي في عصر النهضة " ١٧٩٨ - ١٩٣٩ " . ترجمة كريم عزقول . بيروت : دار النهار ، ١٩٦٨م .
- الحديدي ، علي . عبد الله النديم خطيب الوطنية . القاهرة : مكتبة مصر ، دون تاريخ .
- الحصري ، ساطع . آراء وأحاديث في القومية العربية . القاهرة : مطبعة الاعتماد ، ١٩٥١ .
- الحصري ، ساطع وآخرون . آراء ودراسات في الفكر القومي . الكويت : كتاب العربي ١٩٨٥ م .
- الحمود ، نوفان رجا . العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨١ .
- الحكيم ، يوسف . المذكرات .بيروت ، دار النهار .
- الحكيم ، يوسف . بيروت ولبنان في عهد آل عثمان - بيروت : دار النهار ١٩٦٤ .
- خالدي ، مصطفى . وفروخ ، عمر . التبشير والاستعمار في البلاد العربية " عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي " . صيدا بيروت : المكتبة العصرية ، ط ٣ ، ١٩٦٤ م .
- خاكي ، أحمد . فلسفة القومية . القاهرة : دار المعارف ، دون تاريخ .
- خوري ، رئيف . الفكر العربي الحديث "أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي " . بيروت : دار

المكشوف، ١٩٤٣ .

- الخازن ، فريد وفيليب . المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان "المجلد الأول "، جونية ، ١٩١٠ م.

- دايه ، جان ، صحافة الكواكبي . بيروت : مؤسسة فكر للأبحاث والنشر ، ١٩٨٤ م.

- الدبس ، يوسف . مختصر تاريخ سورية . بيروت : الناشر غير معروف ، ١٩٠٧ م.

- الدوري ، عبد العزيز . مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . بيروت : دار الطليعة ١٩٦٩م.

رافق ، عبد الكريم . بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت " ١٥١٦ - ١٧٩٨". دمشق ١٩٦٧ م .

- رضا ، محمد رشيد . مختارات سياسية من مجلة المنار . جمعها وقدم لها وجيه كوثراني . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٠.

- رزق سلوم ، رفيق . حياة البلاد في علم الاقتصاد . حمص : مطبعة قسطنطين يني ، ١٩١٢ م.

- زادة ، طاشكبري . الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٧٥ م.

- زريق ، فريدريك ، نهضة العرب " التحرر فالاستقلال فالدولة". دمشق : مطبعة ابن زيدون ، ١٩٤٩ م.

- زريق ، قسطنطين . نحن والمستقبل ، بيروت : دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٨٠ م.

-زكار ، سهيل . بلاد الشام في القرن التاسع عشر "روايات

تاريخية معاصرة لحوادث عام ١٨٦٠ م ومقدماتها في سوريا ولبنان ". دمشق : دار حسان ، ١٩٨٥ .

– زين ، زين نور الدين . نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية . بيروت : دار النهار ، ١٩٦٨ م .

– الزركلي ، خير الدين ، الأعلام . دمشق : ١٩٥٩ م .

– الزهراوي ، عبد الحميد . الإرث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي . جمعة وحققه وقدم له جوده الركابي وجميل سلطان . دمشق : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٣ .

– الزهراوي ، عبدالحميد . الفقه والتصوف . القاهرة : المطبعة العمومية ، ١٩٠١ م .

– الزهراوي ، عبد الحميد . خديجة أم المؤمنين . القاهرة : مطبعة المنار ، ١٣٢٨ هـ .

– الزهراوي ، عبد الحميد . " نظام الحب والبغض " رسالة في علم النفس وفلسفة الأخلاق . بمجلة المنار : المجلد السادس ص ٢٧٠ – ٢٧٤ ، ٢٩٨ – ٣٠٢ ، ٣٣٥ – ٣٤١ ، ٥٥٢ـ ٥٥٨ـ ، ٧٧١ – ٧٧٥ ، ٧٤٥– ٧٥٢ ، ٧٩٥ – ٧٩٩ – ٨٦٣ ، ٩١٠ – ٩١٦ . والمجلد السابع ص ٢٩ – ٣٣ ، ٦١ ٦٦، ١٨٧ – ١٩٣ .

– الزين ، علي . فصول من تاريخ الشيعة في لبنان . بيروت : دار الكلمة ، ١٩٧٩ م .

– سابايارد ، نازك . الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة . بيروت : مؤسسة نوفل ، ١٩٧٩ م .

- سامي ، عبد الرحمن بك . القول الحق في بيروت ودمشق " رحلة قام بها إلى سورية ولبنان في أواخر القرن التاسع عشر " . بيروت دار الرائد العربي ،١٩٨١ .

- ستودارد ، لوتروب . حاضر العالم الإسلامي . ترجمة عجاج نويهض . علق عليه وأضاف له شكيب أرسلان . القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٥٢ هـ .

- السباعي ، بدر الدين . أضواء على الرسمال الأجنبي في سورية "١٨٥٠– ١٩٥٨"دمشق : دار الجماهير ، ١٩٦٧ م.

- شيفسكي ، ايفتو . السلسلة الذهبية في المسائل والأمثلة الحسابية للتعليم الاستعدادي والنظامي . عربته بتصرف الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية . بيروت : المطبعة الأدبية، ١٩٠٣.

- الشرباصي ، أحمد . شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام . القاهرة : مكتبة مصر ، ١٩٦٣م.

- الشهابي ، حيدر . نزهة الزمان في تاريخ جبل لبنان . القاهرة : مطبعة السلام ، ١٩٠٠م.

- الشهابي ، مصطفى . محاضرات عن القومية العربية " تاريخها وقوامها ومراميها " . القاهرة : جامعة الدول العربية " معهد الدراسات العربية العالية " ، ١٩٥٩ م،

- الشهابي ، مصطفى . محاضرات في الاستعمار . القاهرة : جامعة الدول العربية " معهد الدراسات العربية العالية "١٩٥٧م.

- الشيال ، جمال الدين . رفاعة الطهطاوي . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٥ م.

- صايغ ، أنيس . تطور المفهوم القومي عند العرب ، بـيروت : دار الطليعة ، ١٩٦١م .
- صعـب ، حسـن . تحديث العقل العربي . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٠م .
- الصباغ ، ليلى . المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني. دمشق : وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٧٣ م .
- طرازي ، الفيكونت فيليب دي . تاريخ الصحافة العربيـة - بيروت ، المطبعة الادبية ، ١٩١٣م .
- الطهطاوي ، رفاعة . مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية . القاهرة : شركة الرغائب ، ١٩١٢ .
- عبد اللطيف ، كمال . سلامة موسى وإشكالية النهضة . الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ،١٩٨٥ .
- عبده ، محمد . الإسلام بين العلم والمدنية . عرض وتحقيق وتقديم طاهر الطناحي . القاهرة : كتاب الهلال ، ١٩٦٠ م .
- عبده ، محمد . رسالة التوحيد . القاهرة : مكتبة الثقافة العربيـة ، تاريخ النشر مجهول .
- عبود ، مارون . رواد النهضة الحديثة . بـيروت : دار العلـم للملايين ، ١٩٥٢ م .
- علوش ، ناجي . عودة إلى موضوعات الثورة العربيـة . .دار الكاتب ، ١٩٧٨ م .
- علي ، محمد . الرحلة الشامية . بيروت : دار الرائد العربي ، ١٩٨١ م .

- عمارة ، محمد . العروبة في العصر الحديث . بيروت : دار الوحدة ، ط ٣ ، ١٩٨١ م .
- عمارة ، محمد . فجر اليقظة القومية . بيروت : دار الوحدة ، ط ٣ ، ١٩٨١ م .
- العدوي ، ابراهيم أحمد . رشيد رضا الإمام المجاهد . القاهرة : الدار المصرية للتأليف والنشر ، ١٩٦٤ م .
- العروي ، عبد الله . الأيديولوجية العربية المعاصرة . ترجمة محمد عيتاني : بيروت : دار الحقيقة ، ط ٤ ، ١٩٨١ م .
- العقاد ، عباس محمود ، محمد عبده . القاهرة : مكتبة مصر ، دون تاريخ .
- العلاف ، أحمدحلمي . دمشق في مطلع القرن العشرين . دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ،١٩٧٦ .
- غرابية ، عبد الكريم . العرب والأتراك " دراسة لتطور العلاقات بين الأمتين خلال ألف سنة " . دمشق : جامعة دمشق ، ١٩٦١م .
- فارس ، نبيه أمين . وحسين ، محمد توفيق . هذا العالم العربي " دراسة في القومية العربية وفي عوامل التقدم والتأخر والوحدة والتفريق في العالم العربي ."
بيروت : دار العلم للملايين ،١٩٥٣ م .
- فكري ، محمد أمين . إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا . القاهرة : مطبعة المقتطف ١٨٩٢ م .
- فهمي ، ماهر حسن ، قاسم أمين .القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٦٣ م .

- فهمي ، ماهر حسن . محمد توفيق البكري . القاهرة : دار الكاتب العربي ، ١٩٦٧ م .
- قرقوط ، ذوقان : المشرق العربي في مواجهة الإستعمار "قراءة في تاريخ سوريا المعاصر ". القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧.
- قرني ، عزت . العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة . الكويت : عالم المعرفة . ١٩٨٠ م .
- القاسم ، أنيس ، معنى الحرية في العالم العربي ، بيروت : دار بيروت ، ١٩٥٥ م .
- القاسمي ، جمال الدين . الفتوى في الإسلام . دمشق : المجلد السادس من مجلة المقتبس ، دون تاريخ .
- القش ، سهيل . في البدء كانت الممانعة "مقدمة في تاريخ الفكر السياسي العربي ". بيروت : دار الحداثة ، ١٩٨٠ م .
- كرد علي ، محمد . خطط الشام . دمشق : مكتبة النوري، ط٣، ١٩٨٣ م .
- كرد علي ، محمد . المذكرات .دمشق : مطبعة الترقي ، ١٩٤٩م .
- كوثراني ، وجيه . بلاد الشام ، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين "قراءة في الوثائق ". بيروت : معهد الإنماء العربي ، ١٩٨٠ م .
- كوثراني ، وجيه . وثائق المؤتمر العربي الأول ١٩١٣ م "كتاب المؤتمر والمراسلات الفرنسية المتعلقة به . "بيروت : دار الحداثة ، ١٩٨٠ م .

- كوثراني ، وجيه . الاتجاهات " الإجتماعية - السياسية " في جبل لبنان والمشرق العربي "١٨٦٠ - ١٩٢٠" م . بيروت : معهد الإنماء العربي ، ط ٣ ، ١٩٨٢ م .
- كوتلوف ، ل . ن . تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي " منتصف القرن التاسع عشر - ١٩٠٨ " . ترجمة سعيد أحمد . دمشق : وزارة الثقافة والإرشاد القومي " ١٩٨١م .
- الكواكبي ، عبد الرحمن . طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد . بيروت : دار القرآن الكريم ، ط٢ ، ١٩٧٣ م .
- لويس ، برنارد . الغرب والشرق الأوسط . تعريب نبيل صبحي. مكان النشر : مجهول ، الناشر مجهول ، تاريخ النشر مجهول ويرجح أنه في أوائل الستينات من هذا القرن .
- اللجنة العليا لحزب اللامركزية . المؤتمر العربي الأول .
القاهرة : اللجنة العليا لحزب اللامركزية " ١٣٣١ هـ - ١٩١٣م ".
- مجهول . مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سورية . تحقيق أحمد غسان سبانو . دمشق : دار قتيبة ، دون تاريخ .
- مجهول . تاريخ حوادث الشام ولبنان أو تاريخ ميخائيل الدمشقي "١١٩٥ - ١٢٥٧ هـ" "١٧٨٢ م - ١٨٤٨ م ". تحقيق وتقديم أحمد غسان سبانو . دمشق : دار قتيبة ، ١٩٨١ م .
- محمد ، محمد عوض ، الاستعمار والمذاهب الاستعمارية . دمشق: مديرية الكتب المدرسية ، ١٩٦٤ م .
- مشابك موسى ، منير . الفكر العربي في العصر الحديث " سوريا من القرن الثامن عشر حتى العام ١٩١٨ " . بيروت : دار الحقيقة ، ١٩٧٣م .

- مراش ، فرنسيس فتح الله . دليل الحرية الإنسانية . حلب : ١٨٦١ م.

- مردم بك ، خليل . أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع ، قدم له وعلق حواشيه عدنان مردم بك . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ١٩٧٧ م.

- ياغي ، هاشم . ملامح المجتمع اللبناني الحديث . بيروت : دار بيروت ، ١٩٦٥ م.

- ياسين ، السيد . تحليل مضمون الفكر القومي العربي "دراسة استطلاعية" . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٠ م.

- مهرجان الفكر والعقيدة لتكريم ذكرى عبد الحميد الزهراوي ورفيق سلوم وعزة الجندي . دمشق : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ١٩٦٣ م.

- الطهارة والمحبة أو المدرسة الإنجيلية الوطنية بحمص سنة ١٩٠٩-١٩١٠ م "السنة الخامسة" . بيروت : المطبعة الأدبية ، ١٩١٠م .

- بشارة تقلا باشا "١٨٧٣ - ١٩٠١ "م "أقوال الجرائد ومراثي الشعراء ومختارات من أقوال الفقيد المنشورة في الأهرام" . القاهرة : دار الاهرام ، ١٩٠٢ م.

- المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام "٩٢٢ - ١٣٥٨ هـ - ١٥١٦ - ١٩٣٩م" المنعقد في دمشق من ٢٥ ذي الحجة ١٣٩٨ هـ إلى ٣ محروم ١٣٩٩ هـ ، الموافق ٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٨إلى ٢ كانون الأول ١٩٧٨ . وقد صدرت أبحاث المؤتمر

في كتاب مستقل أصدرته وزارة التعليم العالي السورية بتاريخ كانون الأول ١٩٧٩ م.

والأبحاث و الدراسات التي تم الرجوع اليها والمتعلقة مباشرة بموضوع الرسالة هي

١ ـ دراسات الجزء الأول:

- خوري ، فيليب شكري ، " طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق ١٨٦٠ - ١٩٠٨."
- سعيدوني ، ناصر الدين . " نظرة في أراضي الميري ببلاد الشام أثناء العهد العثماني ."
- شليشر ، ليند . " بعض مظاهر أحوال الأعيان بدمشق في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ."
- عاشور ، عبد الفتاح . المجتمع الشامي في العصر العثماني بين العصور الوسطى والحديثة

٢ ـ الدراسات المنشورة في الجزء الثاني :

- أحمد حران ، تاج السر . " دور السوريين في ظهور الحركة القومية العربية وتطورها "١٩٠٨- ١٩١٤."
- حنا ، عبد الله . تحركات العامة في دمشق وحلب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ."
- شيتبان ، فريتز . " تغلغل المفاهيم السياسية الاجتماعية الزمنية في القرن التاسع عشر "إسهام في دراسة الوعي السياسي في بلاد الشام."
- ضاهر ، مسعود . إشكالية نظرية لدراسة التطور التاريخي للمسألة الطائفية في لبنان.

- كريم ، مصطفى . " المنافسة الإمبريالية الفرنسية الإنكليزية والاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان " مقتبس عن المصادر الفرنسية. "

- كوثراني ، وجيه . "مشاريع السيطرة والتجزئة في بلاد الشام من خلال أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية "١٩١٥- ١٩٢٠".

- مجي الدين ، جهاد مجيد . " المقاومة العربية في بلاد الشام وجمال باشا "١٩١٥- ١٩١٦ ." .

- موسى ، منير . " محب الدين الخطيب ".

- المجلات والدوريات والصحف -

- الفكر العربي : العدد ١ ، السنة ١ ، ١٥ حزيران - ١٥ تموز ١٩٧٨.

- الفكر العربي : العدد ٢ ، السنة ١ ، ١٥ آب - ١٥ ت ١ ١٩٧٨.

- الفكر العربي : العدد ١٩ ، السنة ٣ ، ك ٢ - شباط ١٩٨١.

- الفكر العربي : العدد ٢٢ ، السنة ٣ ، أيلول ت١ ١٩٨١.

- الفكر العربي : العدد ٢٣ ، السنة ٣ ، ت ١ - ت ٢ ١٩٨١.

- الفكر العربي : العدد ٢٧ ، السنة ٤ ، أيار - حزيران ١٩٨٢.

- الفكر العربي : العدد ٢٨، السنة ٤ ، تموز - أيلول ١٩٨٢.

- الفكر العربي : العدد٣١ ، السنة ٥ ، ك ٢ - آذار ١٩٨٣.

- الفكر العربي : العدد ٣٢ ، السنة ٥ ، نيسان - حزيران ١٩٨٣.

- الفكر العربي المعاصر : العدد ٢٤ لسنة ١٩٨٣ .
- الفكر العربي المعاصر : العدد ٣٧ لسنة ١٩٨٦ .
- تاريخ العرب والعالم : العدد ٤٣ ، ايار ١٩٨٢ .
- تاريخ العرب والعالم : العدد ٦١ ، أيلول ١٩٨٣ .
- تاريخ العرب والعالم : العدد ٧٧ - ٧٨ ، آذار - نيسان ١٩٨٥ .
- الموقف : العدد ٤ ، أيلول ١٩٨٣ .
- الموقف : العدد ٢٢ ، آذار ١٩٨٥ .
- الموقف : العدد ٣٢ ، ك ٢ ١٩٨٦ .
- مواقف : العدد " ٤٧ - ٤٨ " ، صيف- خريف ١٩٨٣ .
- دراسات تاريخية : مجموعة الأعداد التي صدرت لغاية ١٩٨٥ .
- قضايا عربية : العدد ٣ السنة السابعة ، آذار ١٩٨٠ .
- الباحث : العدد ٢٢ ، السنة ٤ ، آذار - نيسان ١٩٨٢ .
- الباحث : العدد ٢٣ ، السنة ٤ ، أيار - حزيران ١٩٨٢ .
- الباحث : العدد ٢٦، السنة ٥ ، آذار - نيسان ١٩٨٣ .
- الباحث : العدد ٢٨ ، السنة ٥ ، تموز - آب ١٩٨٣ .
- الباحث : العدد ٣٧ ، السنة ٧ ، ك ٢ - آذار ١٩٨٥ .
- الباحث : العدد ٣٨ ، السنة ٧ ، نيسان - حزيران ١٩٨٥ .
- المستقبل العربي : العدد ٧٦ ، حزيران ١٩٨٥ .
- المستقبل العربي : العدد ٧٧ ، تموز ١٩٨٥ .

- المستقبل العربي : العدد ٨١ ، تشرين الثاني ١٩٨٥ .
- دراسات عربية : العدد ٨ ، السنة ١٩ ، حزيران ١٩٨٣ .
دراسات عربية : العدد ٥ ، السنة ٢٢، آذار ١٩٨٦ .
- الواقع : العدد ٤ ، السنة ١ ، شباط ١٩٨٢ .
الواقع : العدد ٥ - ٦ ، السنة ٢ ، ك١ ١٩٨٣ .
المنار : المجلدات من ٤ - ٢٢ خاصة.
- الإنسانية "الحموية " : أعداد السنتين الأولى والثانية لاسيما :
الجزء الثامن للسنة الأولى الصادر في ١٩ تشرين الثاني ١٩١٠ .
والجزء الثاني للسنة الثانية الصادر في ١٤ أيار ١٩١١ .
- مجلة المجمع العلمي العربي : م ١٥ ، ج ١١ - ١٢ . دمشق ١٩٣٧ .
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : م ٤٢ ، ج ٤ ، تشرين الأول ١٩٦٧ .
- جريدة النبراس .
- جريدة الجريدة " القاهرية " : لاسيما أعداد السنوات الأولى .
خاصة عدد ١٠ أيلول ١٩٠٧ .
- جريدة المؤيد : لاسيما أعداد السنوات ١٩٠٢ - ١٩٠٥ .
- المقطم : مجموعة أعداد .

المحتــــــوى

الحلاق ، محمد راتب ، عبد الحميد الزهراوي ، دراسة في فكره السياسي والاجتماعي ،
الطبعة الأولى ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،
٢٨٠ ص ، قياس ٥ر١٧ × ٢٥ سم

*

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٥/٣/٢٠٠٠

هذا الكتاب

دراسة عن أحد أهم رواد الفكر العربي الحديث ، وأحد أساطين النهضة العربية المعدودين وواحد من الذين فدوا قضيتها المقدسة بدمائهم الزكية .

ثمن النسخة ٢٢٥ ل.س في القطر
٢٧٥ ل.س في أقطار الوطن العربي

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق